

مجلة ثقافية شهرية - العدد ٢٧١ - محرم ١٤٢٠ هـ - أبريل/مايو ١٩٩٩ م
ALFAISAL MAGAZINE No. 271 - APR./ MAY 1999

الرقص فوق سفينة تغرق

أزمات الغذاء والمياه في العالم العربي

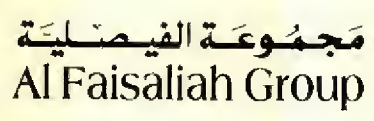
فنون أوروبا في متحف الأرميتاج • الفضة: هذا المعدن الساحر

الاحتفالات والأعياد في اليابان • تشعيع الغذاء: ضرورة أم ضرر؟ • فخ العولمة

في جميع مساعيها

حرصت الفيصلية على تكريس جل جهودها وإمكاناتها لتحقيق هدف واحد، هو كيفية تطوير سبل الحياة في شتى ميادينها والإرتقاء بها إلى أفضل المستويات. ولتحقيق هذا الهدف فقد أقامت الفيصلية شراكات راسخة مع بعض من أشهر الماركات التجارية في العالم.

ففي منازلنا، نجد سوني SONY قد ساعدتنا في تعزيز أسلوب حياتنا اليومية على نحو أكثر متعة وإثارة. بينما نجد ميجاستار أكبر شركات الموسيقى في الشرق الأوسط قد منحتنا البهجة والسعادة بما تقدمه لنا من فنون أصيلة وموسيقى راقية. أما في مكاتبنا ومدارسنا ومنازلنا، فنجد أن hp HEWLETT PACKARD تواصل باستمرار تقدمها لتحقيق التميُّز النوعي في مجال أتمتة المكاتب، والتعليم والثقافة والمعرفة، والإستفادة القصوى من تقنية المعلومات بواسطة الكمبيوتر. كما نجد أن مئات الآلاف من الأسر في كافة أرجاء المملكة العربية السعودية تفضل حليب ومنتجات الصافي AL SAFI الطبيعية التي توفرها لهم أكبر وأضخم مزرعة ألبان متكاملة في العالم. وفي محلات السوبرماركت والزهور نمدكم بأرقى أنواع الورود والزهور الطبيعية والخضروات الطازجة التي يتم زراعتها بواسطة مؤسسة الفيصلية الزراعية. وفي مجال وقود السيارات نجد شركة Ethyl الرائدة عالمياً في صناعة المواد الكيميائية تقوم بانتاج المواد المضافة ذات الجودة العالية التي يتم استخدامها في تحسين وقود السيارات. كما نجد أن المستشفيات والمستوصفات الطبية تعتمد بدرجة كبيرة على كفاءة أجهزة TOSHIBA Medical Systems الطبية في أغراض التشخيص وغيرها من الأمور الطبية. فمن أجهزة التسلية وأنظمة الكمبيوتر والصناعات الكيميائية إلى منتجات الألبان الطازجة والخضروات والزهور الطبيعية، كرسنا جهودنا وسخرنا إمكاناتنا لنحقق التميُّز والهدف المنشود.

شارع العلياء العام - مركز النمر التجاري، ص . ب ١٦٤٠ الرياض ١١٤٦٤ المملكة العربية السعودية - هاتف: ٤٦١٠٠٧٧ - فاكس: ٤٦٤٠٤٩٨

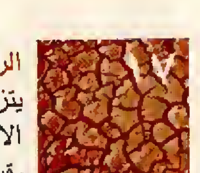


الفيصل

مـجلة ثقافية شهرية - السنة ٢٣ - العدد ٢٧١ - محرم ١٤٢٠هـ - أبريل ١٩٩٩م

ALFAISAL MAGAZINE - No271- MAY. 1999

المحتويات



الرقص فوق سفينة تغرق!!

يتزايد الطلب على المياه في الوطن العربي لتلبية الاحتياجات المنزلية والصناعية والزراعية في وقت تقع فيه أغلب المساحات العربية في المنطقة الجافة وشبه الجافة من الكرة الأرضية، إضافة إلى أن معظم الأنهار الكبرى في الوطن العربي تنبع من دول غير عربية.

وهذا الواقع يعني وجود أزمة في المياه تلقي بظلالها على الأمن الغذائي، فما السبيل للخروج من هذه الأزمات المتوقعة؟



الإستراتيجية العسكرية المقبلة في ضوء التقنيات الجديدة

الحروب القادمة في العالم ستكون من غير إطلاق رصاصة واحدة أو قصف قنابل، وإنما الكلمة ستكون لفأر الحاسوب الذي يتخندق خلفه الجنود. فكيف ستتم هذه الحرب؟ وما نتائجها؟



ضوء القناديل

قناديل البحر غذاء لبعض الأسماك، كما أنها غذاء أساسي للسلاحف البحرية، وعندما تناقصت أعداد السلاحف البحرية، انتشرت قناديل البحر التي أفزعت المصطافين في الشواطئ السياحية، وأضرت بعائدات السياحة في بعض البلدان. فماذا عن حياة القناديل وأشكالها وعلاقتها بالإنسان؟



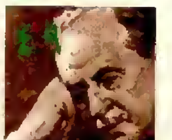
صناعة الزجاج: فن له تاريخ في المملكة العربية السعودية

تحتل صناعة الزجاج مكانة خاصة في الحضارات القديمة، فقد كان الزجاج من الهدايا القيمة التي يتم تبادلها بين الطبقات العليا في المجتمع، وكانت تصنع منها قطع فنية جميلة لتزيين قصور الأغنياء، وفي أرض المملكة العربية السعودية شهدت هذه الصناعة مراحل من التطور ترجع بداياتها إلى قرون مضت.



٣٣ **فنون أوربا الغربية في متحف الأرميتاج**

متحف الأرميتاج في سان بطرسبرج من أكبر متاحف العالم، ويضم مجموعة كبيرة من أشكال الفن الغربي من لوحات ومنحوتات ومطبوعات، تعود إلى مدارس الفن الغربية المختلفة، فما أهم لوحات هذا المتحف؟ وكيف وصلت إليه؟



البريد في الشعر العربي

البريد من أهم وسائل الاتصال التي عرفها الإنسان، فهو ينقل أنّات المغتربين عن الأهل والوطن، ويبوح بالمشاعر بين الأحباب، ويحمل أخبار المال والاقتصاد، وغيرها من الأخبار التي قد تسر أو تشقي، فكان طبيعياً أن يعبر الشعراء عن مشاعرهم تجاه هذا المفرح المبكي..!!

٨٧ **الذباب والحوم حول الحمى!**

لو قُدِّر لزوج من الذباب أن يتوالد، وتعيش ذريته لتتوالد من دون عائق مدة عام واحد، لغطّى الذباب الكرة الأرضية بارتفاع أربعة عشر متراً، والذباب بذلك أكثر الحشرات تكاثراً، وقد شغل الذباب الفلاسفة والأطباء، فقال عنه أفلاطون: إنه أحرص الأشياء، حتى إنه يلقي نفسه في كل شيء، ولو كان فيه هلاكه!!



البؤس بين إمامه وشاعره

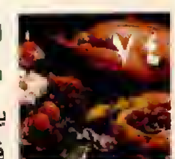
الإمام هو محمد إمام العبد ذلك الأديب الذي أشقاه الألم والحرمان والبؤس فعرف بإمام البؤس، أما الشاعر فهو عبد الحميد الديب الذي كانت معاناته مع البؤس والفقر أكثر شدة، فاستحق لقب «شاعر البؤس»، فماذا عن حياة هذا الشاعر الذي قضى حياته بلا أهل ولا سكن؟!



الفضة هذا المعدن الساحر

الفضة معدن ساحر لخواصه المتميزة، واستخداماته المتعددة، ولقد عرفه الإنسان منذ ما قبل

التاريخ، وأطلق عليه المصريون القدماء اسم «الذهب الأبيض»، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم، وهو معدن يتوارثه الأبناء عن الآباء لرونقه وثباته وارتفاع أسعاره، وإمكانات تشكيله ليلائم الأذواق في العصور المختلفة. فما حكاية الفضة في التاريخ القديم والمعاصر؟



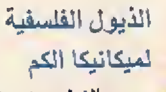
الإشعاع في تعقيم المواد الغذائية: ضرورة أم ضرر؟

يظن كثيرون أن استخدام التشعيع في الغذاء يضر بصحة الإنسان، بينما ينفي المختصون ذلك، ويقولون: إن الإشعاع يقضي على كثير من الكائنات الدقيقة غير المرغوب فيها. ولكن، ما السبيل لتفادي المخاطر التي قد تنشأ من عملية تشعيع الغذاء؟



الاحتفالات والأعياد السنوية في اليابان

لليابانيين أعياد واحتفالات سنوية كثيرة، ترتبط بتغير الفصول الأربعة، ولكل مناسبة منها طقوسها وأزياؤها، فما أهم هذه الأعياد والاحتفالات؟، وماذا وراءها من معتقدات؟



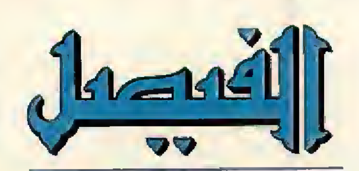
الذيول الفلسفية لميكانيكا الكم

حير الفيلسوف زينون العالم بأفكاره عن السهم الذي لا يطير، والعدّاء الذي تتسمر قدماه في الأرض، وبطل طروادة «أخيل»، الذي عجز عن اللحاق بسلحفاة، وجاء ماكس بلانك بقنبلة علمية حين تجاوز أفكار نيوتن، فهل كان ذلك بدايات انهيار الحتمية والموضوعية وولادة فكرة القانون؟!



المرددات والأهازيج الشعبية

في الاحتفالات الاجتماعية في العالم العربي ينسى الجميع ما قد يكون عالقًا في الأذهان من أدران الحياة المادية، ويبدؤون في التعبير عن مشاعرهم، وإظهار مكنونات نفوسهم معتمدين على مخزون فنهم وثقافتهم، لتشكل لوحة شعبية مضيئة تتمازج فيها الكلمة والصوت والحركة.



الناشر: دار الفيصل الثقافية

الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

المراسلات للتحرير والإدارة:

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ٤٦٥٢٢٥٥

ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:

١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات، أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

السعر الإفرادي:

السعودية ٨ ريالات ـ الكويت ٦٥٠ فلس ـ الإمارات ٧ دراهم ـ قطر ٧ ريالات ـ البحرين ٧٥٠ فلس ـ عُمان ٧٥٠ بيسة ـ الأردن ٥٠٠ فلس ـ اليمن ٦٠ ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان ١٥٠ جنيه ـ المغرب ٨ دراهم ـ تونس دينار واحد ـ الجزائر ١٠ دنانير ـ العراق ٤٠٠ فلس ـ سورية ٣٠ ليرة ـ ليبيا ٨٠٠ درهم ـ موريتانيا ١٠٠ أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠ شلن ـ جيبوتي ١٥٠ فرنك ـ لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الإعلانات:

هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: **يحيى محمود بن جنيد**

مدير التحرير: **عبدالله يوسف الكويليت**

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢

ردمد ١١٤٠ ـ ٠٢٥٨

مناقب الفيصل

يشرفني أن أرفع قلمي للكتابة إليكم من حدود وطننا العربي شمالاً، آملاً لكلماتي هذه أن تعبر عن مدى إعجابي بما تطرحه المجلة من مواد تغني فكر القارئ العربي، وتثير اهتمامه بينما يواجه الفكر العربي محاولة غزوه وتهميش الشخصية العربية من خلال وسائل الإعلام الحديثة التي جعلت العالم قرية كما يقال؛ لذا اسمحوا لي أن أشكر لكم جهادكم في تحقيق الصلة بين الكاتب العربي وقرائه من خلال مجلتنا الغراء التي تكون جسراً للتواصل الفكري، كيف لا؟ وهي تحمل اسم الرجل العربي العظيم الذي تضيق بوصفه المفردات، وتقف لغتنا بعظمتها وبلاغتها وجزالتها عاجزة عن إعطاء ذلك الرجل «الاستثناء» حقه رحمه الله وتغمده بواسع مغفرته.. وما يشرفني أن والديّ أكرماني بحمل هذا الاسم نسبةً إلى الفيصل العظيم، وإنه لمدعاة فخري واعتزازي. أما وإني لم أحظ باقتناء أعداد المجلة كافة فقد ذُكر لي أن كتاباً أُرفق مع أحد الأعداد يتحدث عن مناقب الفيصل رحمه الله، وما أرجوه تزويدي بنسخة عن الكتاب مع صورة الملك عبدالعزيز - يرحمه الله -، وتكون من القياس الكبير بحيث أستطيع تعليقها ضمن إطار، كما أرجو تزويدي بعناوين كتب تتحدث عن تاريخ نجد بأمسها القريب. وشكراً لكم الاهتمام وأرجو لمجلتكم المزيد من الازدهار.

فيصل عبدالله السالم

الرقة - ص.ب ٣١٤ - سورية.

التحرير: نشكر لكم إطراءكم، ونفيدكم أن المجلة قد أصدرت أربعة كتيبات تناولت كثيراً من جوانب شخصية الملك فيصل - يرحمه الله - وإنجازاته الداخلية والخارجية، وكانت عناوين هذه الكتيبات «الفيصل: الملك الإنسان» بقلم صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل مع العدد ٢٣٦، و«الدور القيادي للملك فيصل في العالم العربي» للأستاذ جميل إبراهيم الحجيلان مع العدد ٢٣٧، و«إنجازات الملك فيصل» للدكتور عبدالرحمن صالح الشبيلي مع العدد ٢٣٨، و«النهج الفيصلي في معالجة القضايا الإسلامية» للدكتور ناصر الدين الأسد مع العدد ٢٤٠.

ما قل ودل

أفضل أن أكتب هذه الرسالة المقتضبة فخير الكلام ما قلّ ودلّ. أعيدوا مجلة الفيصل إلى ما كانت عليه؛ لأنها كانت متميزة متألقة في كل الأعداد السابقة، بل فريدة في باب «الحركة الثقافية في شهر» الذي رافق المجلة منذ أول عدد حتى تسلمتم رئاسة تحريرها، وكان يقدم لنا خدمة لا يعرف قيمتها إلا من هو بحاجة إليها. لقد ظهر العددان ٢٦٦ و ٢٦٧ خاليين من جميع الأبواب الثابتة حتى باب البريد وباب ردود خاصة التي كانت حلقة الوصل بين المجلة وقرائها، وكانت هيئة التحرير السابقة ترد على أكثر من خمسين رسالة في كل عدد فجزاهم الله كل خير، أما أنتم فبترتم هذه الصلة بتراً. أعيدوها إلى سابق عهدها ونحن في غنى عن هذه الصفحات الست التي أضفتموها إلى المجلة، وزيادة عدد المقالات لا يفيد شيئاً فقد أصبنا بتخمة من كثرة ما نقرأ.

وأخيراً أعيدوها إلى ما كانت عليه فلم يبق منها إلا اسمها، والسلام.

أمين المليح

مدخل القرن الجديد

بكل الصدق أخبركم: لقد وصلت الرسالة مدوية وصادقة!! إن ما تمّ إنجازه في كل عناصر التشكيل الصحفي والمادة الأدبية بمجلة الفيصل في العدد (٢٦٦)، سوف يعد بحق مدخلاً لاستقبال قرن جديد في حاجة إلى فكر جديد وقضايا (أيضاً) جديدة.

السيد عبدالعزيز نجم

٢١ شارع عوض فهمي - سراي القبة

الرقم البريدي ١١٣٢١ - القاهرة - مصر.

ملاحظات سريعة

أرجو إعطاء معلومات توضيحية لقراء الفيصل الكرام عموماً ولي بصفة شخصية حيث إنني قارئ نهم لعزيزتي الفيصل منذ العدد رقم ١٣٤ حتى الآن - وقد منّ الله عليّ بالفوز مرة بجائزة من المجلة عن العدد ١٥٣ -، والمعلومات التوضيحية خاصة بإلغاء بعض الأبواب الثابتة مثل: «مسابقة الفيصل الشهرية»، و«الحركة الثقافية في شهر»، الذي كان يرصد الأخبار الثقافية في البلاد العربية والأجنبية، وإلغاء بعض الأبواب الخفيفة مثل «استراحة العدد»، و«تباشير»، و«ردود خاصة»، و«عناوين»، و«بين القارئ والقارئ»، و«مناقشات وتعليقات»، و«على موعد»؛ وكلمة رئيس التحرير في البداية، و«البريد»، و«الطريق إلى الله». أرجو التوضيح، وجزاكم الله خيراً.

إيهاب فاروق محمد أحمد

٢٧ شارع لاشين

متفرع من شارع الفيوم - دار السلام

الرمز البريدي ١١٤٣٤ - القاهرة - مصر.

التحرير: لقد تمت إعادة تبويب المجلة، وهناك تقويم عام لايزال مستمراً، لذا نجد أن باب «البريد» قد أعيد من العدد الماضي بعنوان «رسائلكم»، كما أن المسابقة ستعود بشكل جديد، وأفكار جديدة، واستعيض عن الحركة الثقافية في شهر بباب «قراءات» الذي يرصد أحدث الإصدارات ويقدم من خلاله الكتّاب قراءات لأهم الكتب الصادرة حديثاً.

أين الاستطلاعات؟

أتقدم بشكري للعاملين في مجلة «الفيصل» مسطراً إعجابي وتقديري لها، وبخاصة أنها تحمل اسم علم من أعلام الأمة العربية والإسلامية، ألا وهو الملك فيصل طيب الله ثراه.

وما أود طرحه ملحوظتان، الأولى تتعلق بأهمية إعطاء معلومات وافية للقراء عن الملك عبدالعزيز ـ يرحمه الله ـ وإنجازاته، وعن المملكة العربية السعودية منذ التأسيس إلى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز ـ يحفظه الله. أما الملاحظة الثانية فتتعلق بغياب الاستطلاعات عن الدول الإسلامية أو تلك التي بها أقليات مسلمة، ولديّ أعداد من «الفيصل» ترجع إلى عام ١٩٩٥م، بها استطلاعات عن المالديف والمسلمين في الصين، فلماذا انقطعت هذه الاستطلاعات التي تزيد من شهرة الفيصل.

محمود علي حبار

سراقب ـ الحي الغربي ـ شارع الثورة ـ المنطقة رقم واحد جانب مكتب الزعيم للسيارات ـ إدلب ـ سورية.

التحرير: أعدت «الفيصل» عدداً خاصاً عن الملك عبدالعزيز ـ يرحمه الله ـ وعن المملكة العربية السعودية بصفة عامة بمناسبة مرور مئة عام على توحيدها، كما أن هناك استطلاعات عن بعض مدن المملكة نشرت تباعاً، أما الاستطلاعات عن الدول الأخرى، فلم تغب، وآخرها في العدد الماضي عن الكتابات القديمة في المساجد العمانية، وستطالع استطلاعات مصورة من دول كثيرة في الأعداد القادمة إن شاء الله.

اقتراحات

لديّ بعض الاقتراحات التي أرجو أن تكون مفيدة للمجلة، وهي:

ـ أقترح إصدار مجلة للأطفال باسم «الفيصل الصغير».

ـ أقترح إن أمكن أن تعرّفوا مدن المملكة العربية السعودية والأماكن التاريخية بها وبعض قبائلها مثل: المدينة المنورة عبر التاريخ، ومكة، ومؤتة، وقريش، وثقيف، وغيرها من المدن المذكورة في كتب السيرة، مع تناول ثقافة أهلها. ـ تعريف دول الخليج العربية وعاداتهم؛ لأننا في بقية الدول العربية نجهل كثيراً من المعلومات المهمة عنها.

محمد ذيب

رقم ٤٥ ـ حي ابن حمدة

بلدية حمادي ـ ولاية بو مرداس ـ الجمهورية الجزائرية.

التحرير: لقد نشرت المجلة مؤخراً عدداً من الاستطلاعات التي تناولت بعض مدن المملكة ومناطقها، وملامح الحياة فيها، مثل «ليل الرياض» في العدد ٢٦٦، و«المدينة المنورة» في العدد ٢٦٧، و«ذي عين» في العدد ٢٦٩، و«مكة المكرمة المكان والإنسان»، في العدد ٢٧٠. إلى جانب عدد خاص عن المملكة العربية السعودية بمناسبة الاحتفال بمرور مئة عام على تأسيسها، وهناك أعداد أخرى سابقة تناولت تاريخ المملكة ومراحل تطورها. أما دول الخليج، فإن آخر ما نشر عنها كان في العدد ٢٧٠ عن الكتابات القديمة في المساجد العمانية.

طوابع للبيع

أرجو التكرم بإبلاغي بعنوان مؤسسة وردة وزان ـ قسم التراث والطوابع، حيث لديّ مجموعة من الطوابع النادرة أود بيعها مقابل ثمن مناسب، وأرجو معرفة عنوان الكاتب سعود بن نسيب السباعي كاتب مقالة «الطوابع في عهد الملك عبدالعزيز». ولكم في النهاية جزيل الشكر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محمد محمود مصطفى عوض

جامعة المنصورة ـ مكتب بريد رقم ٣٥٥١٦ ـ المنصورة ـ مصر.

التحرير: لا يتوافر لدينا عنوان المؤسسة المذكورة، أما عنوان الأستاذ سعود بن نسيب السباعي فهو: مكتبة الملك فهد الوطنية ـ ص.ب ٧٥٧٢ ـ الرياض ١٢٤٧٢.

ردود سريعة

الأخ د. غالب خلايلي ـ العين ـ دولة الإمارات العربية المتحدة:

المقالة التي أشرتم إليها في خطابكم لم تجز للنشر، فنأمل أن نتلقى مقالات أخرى تجد طريقها إلى النشر، وقد تم اعتماد عنوانكم الجديد. شاكرين لكم حرصكم على التواصل مع المجلة.

الأخت هوارية بن راشد ـ الجزائر:

كنا نود لو نستطيع تلبية طلبك، إلا أن هذا لا يدخل في نطاق اختصاص المجلة، فنأمل أن يتحقق حلمك الذي تتحدثين عنه في رسالتك، ونشكر لك ثقتك بالمجلة.

الأخ إبراهيم العبد العزيز ـ الرياض:

نعتذر لكم من عدم تلبية طلباتكم الخاصة بعناوين بعض المؤسسات في داخل المملكة العربية السعودية وخارجها، لأن باب «عناوين» قد أُلغي في إطار التبويب الجديد للمجلة.

الأخ فيصل بن عبدالرحمن بن محمد السحيباني ـ البدائع الوسطى ـ القصيم:

نشكر لك ملاحظتك، ولكن المجلة كما يتضح لكل متابع لها، حريصة على نشر كل الآراء التي ترد إليها، وترحب بمقالات الإخوة الكتاب من جميع أنحاء العالم بلا استثناء، أما الأعداد القديمة للمجلة، فهي متاحة للبيع من خلال قسم الاشتراكات.

من عالم البحار

ضوء القناديل

أحمد محمد محمد إبراهيم



اعتاد الصيادون الصيد بطريقة الشنشلا - وهي شباك لصيد الأسماك التي تعيش في الطبقة السطحية للماء - في الليالي غير المقمرة من الشهر، إذ يسود الظلام سطح الماء، ويصطحب الصيادون قناديل تضاء بالغاز أو بالكيروسين (البترول)، وتعلق تلك القناديل في منطقة الشباك طافية على سطح الماء، فتتجمع حول الضوء الهائمات النباتية والحيوانية التي تتغذى على الهائمات النباتية، وتعرف تلك الظاهرة بظاهرة الانجذاب الضوئي للبلانكتون، وعليه تتجمع الأسماك لكي تتغذى على تلك الوليمة الدسمة، وبعد فترة من الزمن يصل عدد الأسماك المتجمعة حول الضوء والبلانكتون إلى المئات، بل إلى الآلاف. يتم بعد ذلك جمع الشباك بما فيها من أسماك وافرة.

وجبة دسمة

وفي البحر الأحمر ومناطق أخرى أنواع من قناديل البحر تعرف باسم JELLY FISH، لها ضوء فلوروسنتي مميز يظهر ضوءها الخافت واضحاً على سطح الماء مع تلاطم الأمواج، خاصة عندما يسود الظلام، وتكون على هيئة مناطق أو مساحات مضاءة بالضوء الفلوروسنتي لقناديل البحر. وحقيقة هذا الضوء هو انبعاث موجات ضوئية من المركبات الفوسفورية بقنديل البحر، وتعرف تلك الخاصية بالإضاءة الحيوية (البيولوجية)، ويستخدمها الكائن في إخافة الأعداء. وفي الوقت نفسه تكون إشارات غزل للنصف الآخر وقت التكاثر الجنسي في موسم التزاوج؛ كما تكون وسيلة لتجمع البلانكتون وخاصة الهائمات الحيوانية مع الهائمات النباتية على ضوء القناديل، ثم تتجمع الأسماك الصغيرة في حجم الأصبع وتعرف بالأصبعيات التي تكون وجبة دسمة لقناديل البحر. تتجمع أيضاً الأسماك السطحية الكبيرة لكي تتغذى على البلانكتون الوافر الذي تجمع على ضوء القناديل؛ ولذلك عندما يرى الصيادون تلك البقع المنتشرة من الضوء نتيجة لوجود قناديل البحر، والتي تغطي مساحات شاسعة يستبشرون خيراً بصيد وافر، وتنصب الشباك بتلك المناطق على ضوء القناديل، مع إضافة الإضاءة الصناعية للحصول على محصول وافر من الأسماك.

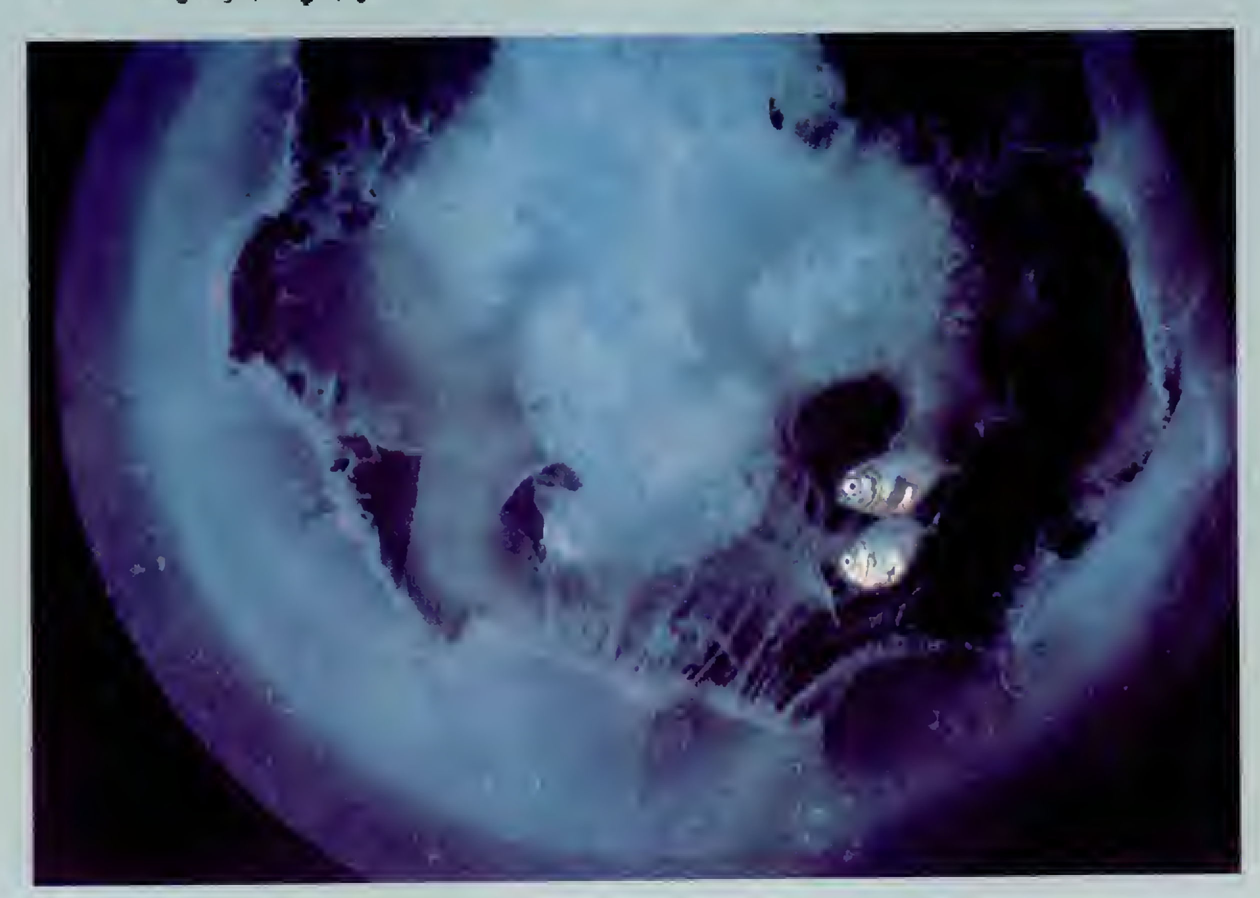
تنتشر قناديل البحر التي تعرف أيضاً برئة البحر، - لتشابه حركتها الانقباضية مع حركة انقباض الرئة في أثناء التنفس - في جميع البحار والمحيطات والأنهار؛ وتختلف من حيث الشكل والحجم واللون من مكان إلى آخر، ومنها غير الضار، ومنها ما تؤذي لسعته الإنسان، وتؤدي به إلى صدمة عصبية مميتة.

وتتسم تلك الأنواع بأشكالها الجميلة الجذابة، وبخاصة تلك الأنواع التي تمتلك خاصية الإضاءة البيولوجية ذات الضوء الفسفوري المميز، وتلك الصفة لا تتمتع بها جميع أنواع قناديل البحر، ولكن توجد خواص أخرى للأنواع المختلفة فمنها ما يتمتع باللون الوردي أو القرمزي، كالنوع الأحمر الداكن CYANEA CAPILLATA، ومنها ما يتمتع باللون الأزرق CYANEA LA-MARCHI و CYANEA PALMSTURUCHI، ومنها البرتقالي أو ذات اللون الشفاف أو شبه الشفاف مثل الزجاج المصنفر مع أشكال هندسية رائعة تراوح أقطارها بين ٢ إلى ٢٠ سنتيمتراً في شكل يملأ القلب بالجمال وروعة المنظر، تبارك الله فيما خلق.

اختلال بيئي

تعدّ قناديل البحر غذاءً لبعض الأسماك، وكذلك غذاء مهماً للسلاحف البحرية، فهي غذاؤها المفضل. وقد أدى تناقص أعداد السلاحف البحرية إلى خلل في النظام البيئي أدى إلى سرعة انتشار قناديل البحر، حتى إنها أصبحت في حد الانتشار الوبائي، فقد غزت، السواحل والشواطئ بأعداد هائلة، وأفزعت المصطافين على معظم الشواطئ السياحية، وكان لذلك مردود عكسي على البرامج السياحية ومسابقات الغوص والصيد، مما اضطر القائمين على السياحة أن يتخذوا تدابير وقائية لحماية المصطافين والسياح من لسعات قناديل البحر.

وإذا أخذنا نوعا من قناديل البحر الذي انتشر بشكل وبائي في سواحل البحر المتوسط بسبب الخلل البيئي لغياب أو لنقص أعداد السلاحف



البحرية التي تقتات أساسا بقناديل البحر مثل قنديل أوريليا AURELIA AURITA فإننا نجد أن حجم الكائن العادي يكون قطر المظلة الخارجية له في حدود ١٥ إلى ٤٠ سنتيمترًا، بينما في السنين الأخيرة وفي أحد البرامج العلمية التي أشرفت عليها في عام ١٩٩٣م، تم تسجيل قطر العديد من قناديل البحر، والتي ظهرت على سواحل مدينة بور سعيد على البحر المتوسط، وقد بلغت متوسط أقطارها ما يفوق ١١٠ سنتيمتر لقطر المظلة الواحدة لتلك القناديل.

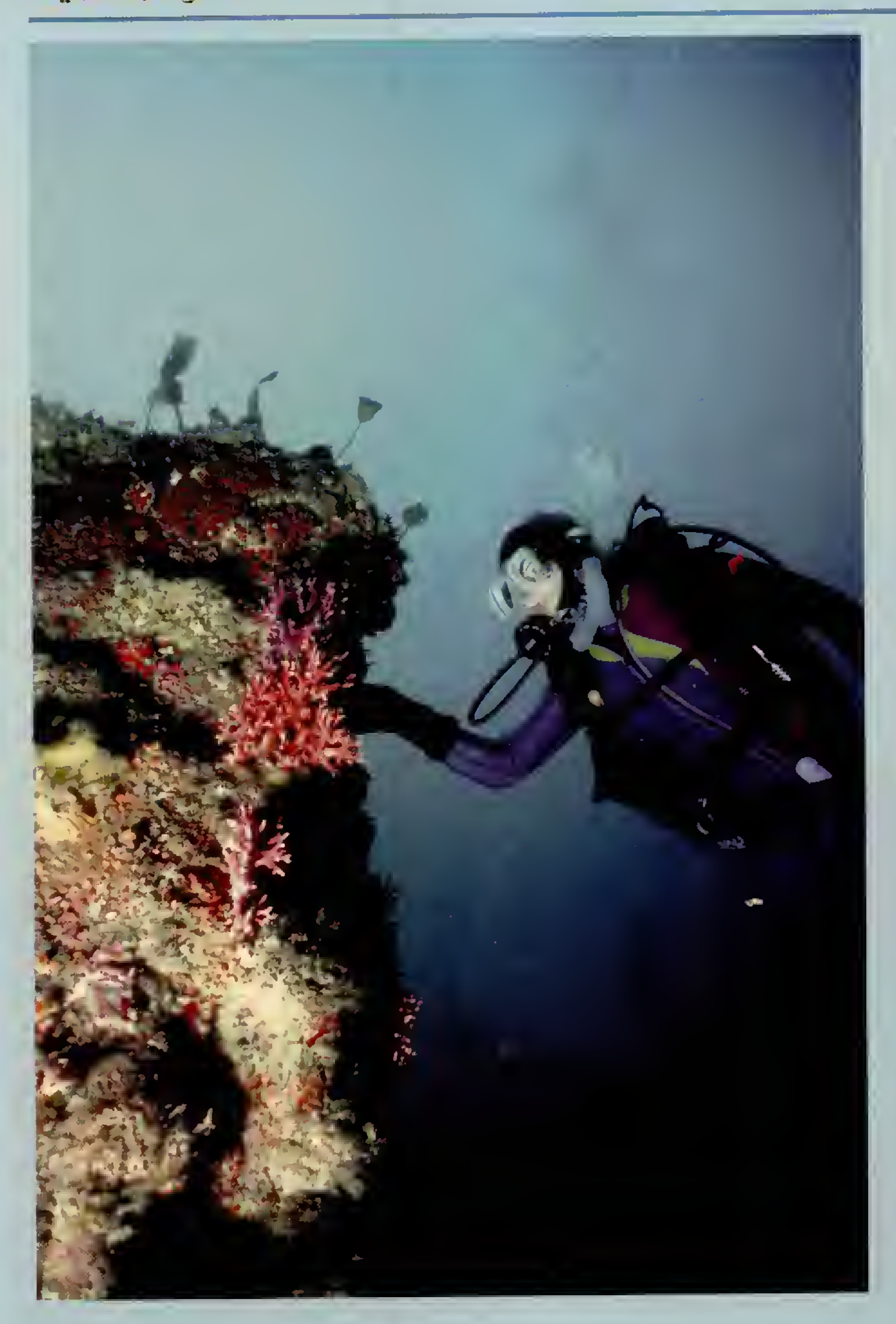
تعيش تلك الأنواع في تجمعات غالبًا ما تكون في الطور الناضج وفي أقصى درجة من النشاط الحيوي لها، وذلك خلال شهر مايو/أيار إلى أواخر شهر سبتمبر/أيلول. وتتوقف درجة انتشارها على عدة عوامل بحرية وبيئية، منها التوزيع الحراري، وقد وجدت في وسط مائي تراوح درجة حرارته بين ٨ حتى ٢٥°م، وتكون الدرجة المثالية لها بين ١٦ إلى ١٨°م، وتراوح درجات الملوحة بين ٢٧ إلى ٣٨٪ (جزيء في الألف) مع درجة رطوبة تراوح بين ٦٩ إلى ٧٥٪. كما تؤدي درجة شفافية المياه دورًا كبيرًا في انتشار تلك الأنواع، وتتغذى على البلانكتون والأصبعيات السمكية، وهي الأسماك الصغيرة في حجم الأصبع لأسماك السردين وغيرها من الأسماك الاقتصادية.

انتشار وبائي

تنتشر القناديل بالإزاحة على سطح الماء، وتدفعها الأمواج وحركة التيارات المائية غالبًا نحو الشاطئ أو السواحل الضحلة أو الجزر المائية. وللقناديل حركة رأسية أو عمودية طلبًا للغذاء أو للحماية، ونادرًا ما يظل الكائن على سطح الماء، لعدة دقائق، ثم يتجه إلى أسفل عن طريق انقباض مظلته الخارجية مع تحريك الأذرع التي تعرف باللوامس أو المجسات، والتي تنتشر على سطحها الخارجي الخلايا اللاسعة. وتتعمد قناديل البحر أن تظل تحت مستوى سطح الماء لتفادي ضربات الأمواج وتلاطمها مع مظلتها، والتي قد تصاب بتمزق نتيجة اصطدام الأمواج بها أو أن تجرح جروحًا غائرة قد تودي بحياة القنديل.

وإذا أخذنا درجة انتشار قناديل البحر في الحالة الوبائية نجد أن أعدادها تراوح كثافتها العددية بين ٥٠٠ إلى ٦٠٠ كائن (قنديل) في المتر المكعب من الماء، وتشبه تجمعاتها السحاب الثقال في السماء. وتشغل تلك الأعداد مساحة قد تمتد إلى عدة كيلو مترات، وعلى عمق بين ٥ إلى ١٠ أمتار، وقد تصل إلى ٢٥ مترًا عمقًا.





وكثيرًا ما يُشاهد أعداد هائلة منها على الجزر أو الشعاب المرجانية أو الشاطئ أو الرمال الساحلية وقد انحسرت عنها المياه نتيجة ظاهرة المد والجزر، وتكون على هيئة طبقة جلاتينية بسمك يراوح بين ٢ إلى ٣ سنتيمتر، وهي ملتصقة بالصخور أو برمال الشاطئ، ويحذر من لمس تلك المخلفات، وبخاصة إذا كانت لا تزال في الحالة الهلامية؛ لأن مجسات القنديل أو اللوامس التي تحمل الخلايا اللاسعة تكون ممتلئة بسم القنديل؛ وهو من النوع البروتيني المعقد، وتظل تلك المادة صالحة لحقن جلد الإنسان حتى بعد موت الكائن.

هجوم على الإنسان

ويصاب المصطافون أو الغواصون والسباحون عن طريق اللمس المباشر بين اللوامس أو المجسات للكائن وجلد الإنسان، وعادة تكون الإصابة موضعية بنسبة تصل إلى ٩٤٪، وتستمر الآلام مدة تراوح بين الساعة إلى يوم أو اثنين، وقد تمتد أسبوعًا، ويتوقف ذلك على عدة عوامل، منها: المدة الزمنية لتلامس سطح الجلد بالخلايا اللاسعة، وكذلك مكان الإصابة سواء أكان حول البطن أو الأماكن الظاهرية أم حول أي مناطق أكثر حساسية، وكذلك على عدد قناديل البحر التي تعرض لها الإنسان في أثناء الإصابة.

وأعراض تلك الإصابة هي الاحمرار مع آلام شديدة حسب موضع الإصابة والمساحة الملسوعة. وتصحب ذلك رعشة تشبه الصدمات الكهربائية فترة وجيزة مع شعور بالرغبة في حك الجلد. ويظهر على الجلد ما يشبه الحروق، وقد تترك آثارًا عميقة مدة طويلة بالأماكن الأكثر حساسية، ويكون الاحتكاك المباشر بين جسم الإنسان ولوامس قنديل البحر NEMATO-CYSTS حيث تنتشر عليها الخلايا اللاسعة المحتوية على البروتين المعقد الذي يمثل سم القنديل، وتعتمد شدة الإصابة على مدة الاحتكاك للواسع وعدد القناديل، وكذلك عدد اللوامس الحاملة للخلايا اللاسعة. بعد التصاق اللوامس بسطح الجلد تتقصف أطرافها، وتلتصق على السطح الخارجي لجلد الإنسان، ويكون التصاقها مثل لصق الغراء على جلد الإنسان، وتنفجر الخلايا اللاسعة نتيجة تغير الوسط المحيط بها، وتخرج سمومها، وتنتشر عن طريق الانتشار السطحي لطبقة الجلد الخارجية، وتتسع المساحة المصابة حسب كمية انتشار السم واختراقه لسطح الجلد، وغالبا ما يكون التفاعل موضعيًا في مكان اللسعة أو مكان تقصف أطراف اللوامس على سطح الجلد والتصاقها.

تختلف درجة تأثير سم القنديل حسب موضع اللمس سواء أكان في مكان عام من سطح الجلد أم بالأماكن الحساسة للإنسان. وقد تكون غير مؤثرة في بعض الناس وخاصة الشباب أو الكبار، ولكن مع الصغار، فالوضع يختلف، وخاصة مع من يعاني من أي نوع من الحساسية ALLER-GIC PERDISPOSITION فإن الإصابة تكون

مؤلمة، وقد تتطور إلى أعراض أخرى.

ويوجد نوع آخر من قناديل البحر العملاقة القاتلة، تعرف بالبارجة البرتغالية -POR TUGUES MAN - OF - WAR، وربما جاءت هذه التسمية عن طريق بعض البحارة الذين تعرضوا لمخاطره، أو نتيجة مشاهدته كثيرًا بالبحار المفتوحة أو المحيطات، إذ يظهر الجزء الخارج للقنديل على شكل عوامة زرقاء اللون على هيئة بالون طاف ممتلئ بالغاز يصل قطره إلى أكثر من ٢٥ سنتيمترًا على هيئة شراع، ويتحرك القنديل بواسطة دفع الرياح لذلك الشراع، وهو يشبه نوعًا من أنواع السفن الشراعية التي تعرف باسم (البارجة).

يوجد ذلك النوع من القناديل بالبحار والمحيطات الدافئة، وغالبًا تدفع إلى الشواطئ الدافئة عن طريق الأمواج والتيارات المائية. وهو يعيش في جماعات كبيرة تصل إلى المئات، كما أنه ينتشر أيضًا عن طريق التكاثر بالتبرعم السريع، فيتم إنتاج المئات من الأجيال الجديدة. يكون القنديل في حالة طفو على سطح الماء بينما يتدلى منه العديد من اللوامس أو المجسات الخيطية الشكل ذات الألوان القرمزية أو الزرقاء الداكنة أو خليط من ألوان متعددة ويصل طولها إلى تسعة أمتار عمقًا. وعند ملامسة تلك المجسات للأسماك يفرز القنديل سمًا مخدرًا يشل به حركة الفريسة ويخدرها، ثم تقوم المجسات بسحب الفريسة إلى أعضاء أنبوبية الشكل تقوم بهضم الفريسة. وكثيراً ما يتعرض الإنسان إلى الإصابة نتيجة التلامس بالمجسات الخيطية لهذا النوع من القناديل، وتكون الإصابة قوية؛ لأنها تنفذ إلى الجهاز العصبي للإنسان؛ وتسبب طفحًا جلديًا شديداً؛ وتكون الآلام مبرحة مصحوبة بغثيان وصعوبة في التنفس مع تشنج عضلي، وتترك آثارًا موضعية تشبه ضربات السوط على هيئة حروق بخطوط طولية بالمنطقة المصابة. وإذا تعرض الإنسان للسعات هذا النوع أو غيره بصفة عامة، فإنه يجب أولاً أن تزال الأجزاء المتبقية من لوامس القنديل من على الجلد؛ لأنها تكون ملتصقة بقوة نتيجة حقن السم البروتيني وانتشاره منها إلى سطح الجلد. كما يجب تنظيف المكان بقطعة قماش جافة ونظيفة وناعمة بحيث لا تخدش سطح الجلد فتزيد من الآلام؛ ويكون ذلك بلطف وبهدوء، ثم يتم غسل الجلد بمحلول النشادر أو الخل المخفف، ثم تجفف بلطف، ويوضع كريم أو مرهم ملطف أو أحد مراهم الكورتيزون السطحية -CORTICORTER OID أو ANTIHISTAMINES لإزالة الآلام وتلطيف مكان الإصابة مع إعطاء المصاب شرابًا مسكنًا للآلام.

أما إذا كان المصاب في حالة غثيان وتهيج فيجب المحافظة على ضربات القلب ودرجة التنفس مع إعطائه جرعات من الأكسجين تساعده على التنفس مع تدليك عضلة القلب إلى حين حضور طبيب معالج أو نقل المصاب إلى أقرب مستشفى.



وإذا ما رجعنا إلى التاريخ العلمي لانتشار قناديل البحر الوبائي التي تهاجم المصطافين أو الشواطئ أو السواحل بصفة عامة، فإننا نجد أن تلك الظاهرة لها دورة بيولوجية يتم خلالها الانتشار، وقد تستمر من سنة إلى ثلاث سنوات ثم تختفي تلك الظاهرة لتعيد دورها مرة أخرى كل خمس أو عشر سنوات، قد تمتد إلى خمسين عامًا. وحتى الآن لم يصل العلم إلى سر ذلك، لأنه لا يقتصر فقط على قناديل البحر، بل يمتد أيضًا إلى العديد من الظواهر البيولوجية الأخرى. ولم يتوصل العلماء حتى الآن إلى معرفة حقيقة تلك الظواهر العجيبة، وسبحان الله العظيم!!

المراجع

١- الموسوعة العربية العالمية.

2- AMERICAN ENCYCLOPAEDIA.

3- AMERICAN YOUTH ENCYCLOPAEDIA.

4- ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA.

5- SERIES OF THE NATIONAL GEOGRAPHIC JOURNAL, WASHINGTON, D.C

6- SHEDD AQUARIUM SOCIETY. 1980: AQUATIC LIFE AGUIDE TO EXHIBIT.

7- ANIMALS BY. SHEDD AQUARIUM SOCIETY. CHICAGO ILLINOIS. U S.A.

8- BEMERT, G., AND ORMOND 1981 RED SEA CORAL REEFS.

9- CARCASSON, R. H 1977: A FIELD TO THE CORAL REEF FISHES OF THE INDIAN AND WEST PACIFIC OCEANS. COLLINS. LONDON.

10- GEORGE, D. J. 1979: MARINE LIFE. AN ILLUSTRATED ENCYCLOPAEDIA OF INVERTEBRATES IN THE SEA. HARRAP. LONDON.



صناعة الزجاج:

فن له تاريخ في المملكة العربية السعودية

محمد بن سعود الحمود

لقد اهتمت الحضارات القديمة بالفنون، وأصبحت وسيلة من وسائل الترف والرقي لدى ملوكها وأمرائها، ومن بين تلك الفنون: صناعة الزجاج التي كانت وسيلة محببة للإهداء، وقطعًا جمالية تُزيّن بها قصور الأغنياء؛ وذلك لما في الآنية الزجاجية من الرونق والجمال، وخاصة بعد اكتشاف طريقة النفخ التي أصبحت ثورة عالمية بهرت أعين الناس، وقد اشتهرت بلاد الشام، ومصر، والإغريق بهذه الصناعات.



من الأواني الزجاجية المكتشفة في المابيات

وعند الرومان أصبح الزجاج من الشروط الأساسية في الجزية التي فرضتها على مصر في القرن الأول قبل الميلاد(١)، بل إنهم أعفوا صناع هذه المهن من الضرائب في القرن الرابع الميلادي(٢)؛ وهذا يدل على عظم هذه المهنة، وما تنتجه من روائع فنية محترمة لدى الطبقات العليا في المجتمع.

ويعتقد أن أقدم قطعة زجاجية مصنعة عثر عليها في مصر، وهي تماثيل فرعونية صغيرة، وتمائم جنائزية شكلت باليد غالبًا، وتعود إلى أكثر من ٢٥٠٠ سنة ق م.

ولكن الانطلاقة الحقيقية في صناعة الزجاج كانت باكتشاف طريقة النفخ في مدينة صور جنوب لبنان في القرن الأول ق م(٣).

ولقد اهتم العرب بهذه الصناعة قبل الإسلام كغيرهم من الشعوب، بل زاد اهتمامهم بها بعد مجيء الإسلام، حيث ارتقت بهم، وبلغت هذه الصناعة أوج تألقها والاهتمام بها، كتحف زجاجية بعد القرن السادس الهجري، خاصة في بلاد الشام ومصر.

وفي أرض المملكة العربية السعودية، الأرض التي ضمت حضارات عربية قديمة، كحضارة، وكندة، وديدان، ولحيان، والجراهمة، والتي تقع فيها أهم مراكز التجارة الرابطة بين الشام واليمن، كمدن الفاو، وثاج، وتيماء، واليمامة، ازدهرت صناعة الزجاج، وتعدد أشكاله، وهذا ما أثبتته الحفريات الأثرية باكتشاف كميات كبيرة من الزجاج في أماكن مختلفة في المملكة.

الزجاج ومادته

الزجاج مادة صلبة شفافة تتركب أساساً من بعض السليكات والقلويات مع مادة قلوية كالصودا أو البوتاس، ويحصل على الزجاج من خلط بعض أنواع الرمال الناعمة أو الصوديوم مع الكلس وكسر الزجاج، وصهرها في درجة حرارة عالية، وتختلف أنواعه باختلاف المواد الخام التي تستخدم في صناعته، وباختلاف درجة الحرارة المستخدمة والطريقة التي يصنع بها(٤).

مميزات الزجاج

من مميزات الزجاج أنه شفاف ورقيق السماكة، ومتعدد الألوان والاستخدامات، وعديم الصدأ، ولا يتأثر بتغيرات المناخ، وسريع الإنتاج، وخفيف الوزن، ولا يتأثر بالمواد الكيماوية، وسهل التشكيل، ويتخذ قطعًا متحفية.

استخدامات الزجاج

يستخدم الزجاج في مجالات عدة كأواني الطب، والعطور، والشراب، والطعام، وأدوات الزينة، والأختام، والحلي، والمكاييل والأوزان، والمحاقن (لتفريغ بعض السوائل) والمصابيح والمحابر والمزهريات والنوافذ وفصوص الفسيفساء والرنوك (شارات يتخذها السلاطين).

زخرفة الزجاج

يزخرف الزجاج بمواد مختلفة ومتعددة من بينها: الختم، والنقش، والقطع، والإضافات، والكتابة، والضغط، والألوان المركبة كالبريق المعدني، والتذهيب، والتمويه بالميناء.

طريقة صناعة الزجاج

تتم صناعة الزجاج بثلاث طرائق وهي: القالب، والنفخ الحر، والنفخ في القالب.

الطريقة الأولى: القالب، وهي أقدم الطرائق في صناعة الزجاج، وكانت تقوم على استعمال كتلة من الخشب يشكل حولها إناء من الرمل، ثم تغمر هذه الكتلة الخشبية مع الرمل في محلول ذائب من الزجاج غمرًا تامًا حتى يعم الزجاج على هيئة إناء الرمل، أو بعبارة أخرى الرمل الذي كان محيطًا بكتلة الخشب، ثم يأخذ الصانع في صقل هذا الإناء وزخرفته(٥).

الطريقة الثانية: النفخ الحر وهي: طريقة ميكانيكية تتم بإحضار أنبوب طويل مجوّف ثم غمر أحد طرفيه في الزجاج المنصهر، وبعد ذلك يتم النفخ باندفاع الهواء عبر الأنبوب لينتهي في عجينة الزجاج لتصبح كالبالونة، ثم يدار الأنبوب يمنة ويسرة لتشكيل الزجاج حسب الطلب والشكل المراد له، وتتم معها وسائل الزخرفة وطرائقها.

الطريقة الثالثة: النفخ في القالب وهي: أكثر دقة في إعطاء الزجاج الشكل المراد عمله، وهو أن توضع عجينة الزجاج في القالب، ومن ثم توضع نهاية الأنبوب فيها، وتتم عملية النفخ، فيتخذ فوراً شكل القالب، والقالب مصنوع من الخشب، أو الطين، أو البرونز.



قارورة زجاجية اكتشفت في المابيات

من المكتشفات الزجاجية في زبيدة (القصيم)

نماذج أواني الزجاج من المواقع الأثرية في المملكة

من المشاهد أن جميع المواقع الأثرية في المملكة لا تخلو من بقايا الزجاج المصنّع، ولكن تنحصر أشكالها ووفرتها في العصر الإسلامي.

الزجاج قبل الإسلام

لقد عرف العرب الزجاج منذ القدم، وكان شائعًا عندهم، وقد ورد في أشعارهم ومعلقاتهم، ومنها قول الأعشى:

فبانت وفي الصدر صدع لها
كصدع الزجاجة ما يلتئم(٦)

وقول النابغة الذبياني في معلقته:

يحفه جانبا نيق وتتبعه
مثل الزجاجة لم تكحل من الرمد(٧).

وقد عثر على الزجاج في أماكن عدة من نواحي المملكة، وخاصة في تلك التي تقع على طرق التجارة القديمة.

قرية الفاو الأثرية

تقع في الجنوب الشرقي من الخماسين عاصمة وادي الدواسر، وتعود إلى القرون الأولى الميلادية، حيث عثر فيها على حلي من أساور وفصوص وخواتم، وكذلك على عدد من الأواني شبه الكاملة، ومن بينها كأس فريد من نوعه عليه رسومات جميلة ذات ألوان زاهية، وأجزاء من صحون شفافة، وقطع زجاجية أخرى؛ وبعض هذه الزجاجيات يبدو أنها مستوردة من بعض الحضارات المجاورة ولا سيما مصر.

جنوب الظهران

عثر على بقايا لأوانٍ زجاجية تمثل أجزاء من القناني والقوارير والخرز المتخذ للزينة في جنوب الظهران، من بينها آنية متكاملة صغيرة صفراء معتمة اللون ذات رونق جذاب، وذات شكل كروي، وفوهة بارزة إلى الخارج، ومقبض صغير على بدنها، بينما تحتوي على زخارف مضافة، قوامها أشرطة بارزة بنية اللون تلتف حول البدن على هيئة أشكال معينية، وبحق تعدّ تحفة فنية فريدة في المملكة.

الزجاج في العصر الإسلامي

لقد تميزت المواقع الأثرية في العصر الإسلامي بوجود قطع الزجاج في جميع مواقعها، وتعدّ من الكنوز الأثرية الأساسية التي عثر عليها بعد الفخار، ولكن لم يعثر في تلك المواقع على أوانٍ متكاملة إلا القليل، وذلك لما يختص به الزجاج من سهولة الكسر، ومن أهم تلك المواقع:

الرياض وما حولها

وجد الكثير من كسر الزجاج على سطح المواقع الأثرية في الحني، والبليدة، والمصانع، والبعيجاء، ولحا، وأبو قصر، والأبيطح وغيرها من المواقع، وهي تمثل كسر فوهات وأجزاء من أبدان صنعت بطريقة النفخ الحر ذات ألوان مختلفة.

شرق المملكة

عثر في الجبيل والعقير في شرق المملكة على عدد من أواني الزجاج المتكاملة وشبه المتكاملة، صغيرة الحجم تمثل قوارير كروية ومستطيلة الشكل ذات أعناق تنتهي بشفة غير



آنية زجاجية وجدت في جنوب الظهران



أوانٍ زجاجية اكتشفت في الجبيل وثاج



لـنـــون و اوزميرويد
أقلام الخط العربي
بالسن البلاستيكي الفريد
مـنْ حَسُـنَ خطُّه حَسُـنَ حظُّه
اوزميرويد
بنتل
Pentel JA220 JAPAN



مكتشفات زجاجية في جريس (الشرقية)

بارزة، وقد صنعت بطريقة النفخ الحر، والنفخ بواسطة القالب ذي الألوان المختلفة. وعثر أيضًا على أجزاء من الأساور تستخدم لزينة النساء ذات ألوان زاهية وجميلة.

المابيات

تقع في الجنوب الغربي من مدينة العلا، وقد تمت فيها حفريات أثرية، وأسفرت عن اكتشافات كثيرة من ضمنها الزجاج الذي لم يبق منه إلاّ أجزاء من أوان، كالصحون والقوارير والأكواب وأوزان الزجاج؛ ومن أهمها جزء من غطاء لزبدية شفافة اللون، عليها زخارف مذهبة بأشكال هندسية ذات مقبض كروي صغير من أعلى، وحافة بارزة إلى الخارج، وكذلك بوتقة شبه متكاملة صفراء شفافة ذات رقبة طويلة، وشفة بارزة إلى الخارج، وتذكرنا تلك الآنية بقول عنترة بن شداد في معلقته:

بزجاجة صفراء ذات أسرّة

قرنت بأزهار الشمال مفدّم(٨)

الربذة

تقع في الجنوب الشرقي من المدينة المنورة على مسافة ٢٠٠كم، وأسفرت الحفريات فيها عن اكتشاف أفران لصهر الزجاج، وعلى أجزاء من الأواني مثل: الأكواب، والقوارير الصغيرة المستطيلة، أو الكروية الشكل والقوارير الرقيقة البدن ذات أشكال زخرفية جميلة محاطة بأسلاك معدنية، وأقماع صغيرة لتفريغ السوائل كالعطور. وقنينة زخرفت بطريقة القطع، وكوب مصنوع بطريقة القالب(٩).

عثر

تقع في مدينة جازان، وأسفرت الحفريات فيها عن اكتشاف عدد هائل من الزجاج مما يدل على ازدهار الصناعة فيها، وخاصة وجود بقايا من المواد المصنعة، ويعدّ هذا الموقع من أكبر المواقع الزجاجية الأثرية في المملكة؛ لذا فإن التحدث عن زجاجها يطول، ويحتاج إلى دراسة مفصّلة، ولكن نشير إلى وجود كميات كبيرة مختلفة ومتعددة تمثل بقايا حواف لصحون كبيرة، وبوتقات، وقوارير، وقنانيّ صغيرة؛ وقد استخدمت فيها طريقة النفخ الحر، والنفخ بواسطة القالب، واحتوت على زخارف مضافة ومقطوعة ومضغوطة، ومن أهمها:

آنية كبيرة غير مكتملة تشبه بوتقة قطرها ١٨سم فقد الجزء العلوي منها، وهي زرقاء اللون معتمة الشفافية عليها بعض الأكسدة الصفراء، صنعت بطريقة النفخ الحر.

الهوامش

١ـ محمد عبدالعزيز مرزوق: الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار الثقافة، بيروت، الهامش، ص٢٠٦.

٢ـ محمد عبدالعزيز مرزوق: الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م، الهامش، ص١٤١.

٣ـ فريد كامل: الزجاج مادة عجيبة رافقت رحلة الإنسان، مجلة أهلاً وسهلاً، ع٦، س١٢، ١٤٠٨هـ، ص٢٣.

٤ ـ محمد كمال صدقي: معجم المصطلحات الأثرية، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٨هـ، ص١٦٢.

٥ ـ محمد عبدالعزيز مرزوق: الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م، ص١٣٦.

٦ـ الأعشى: ديوان الأعشى، بيروت، دار صادر، ١٤١٤هـ، ص١٩٦.

٧ـ أحمد الأمين الشنقيطي: شرح المعلقات العشر، تحقيق محمد الفاضلي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٨هـ، بيروت، ص٢٣٤.

٨ ـ مصطفى الغلاييني: رجال المعلقات العشر، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٣، ١٤١٤هـ، ص٢٣٠.

٩ـ سعد عبدالعزيز الراشد: الربذة، جامعة الملك سعود، الرياض، ص٩٠ ـ ٩٣.

الرقص فوق سفينة تغرق

أزمات المياه والغذاء تواجه الوطن العربي

خالد سعد النجار

كثرت في الآونة الأخيرة صيحات الدعاة المخلصين والخبراء المتخصصين عن مواجهة المنطقة العربية الإسلامية (الشرق الأوسط) في القرن المقبل عدة أزمات تضاف إلى رصيد الأزمات التي تعاني منها في الوقت الحاضر، ولكن تلك الأزمات المقبلة المتوقعة ذات طبيعة خاصة، فهي من الخطورة الشديدة بما يجعلها قاصمة الظهر الحقيقية التي يمكن أن تؤدي إلى انهيار الكيان العربي الإسلامي في المنطقة بأسرها، ولن تنفع حينذاك الشعارات، ولا الهتافات، ولا المؤتمرات التي تتمخض عن استنكارات، وتوصيات. ولا سبيل للخروج من تلك الأزمات المتوقعة إلا بالاستعانة بالله تعالى، ثم بالدراسات الواعية من الخبراء والمتخصصين، لإيجاد الحلول المناسبة التي يعقبها البدء في التنفيذ الجاد، وأن نعد لكل أمر عدته قبل أن نصبح لا في العير ولا في النفير.

أزمة المياه في الوطن العربي

تعاني أغلب مناطق الوطن العربي من ندرة المياه لوقوعها جغرافيًا في المنطقة الجافة، وشبه الجافة من الكرة الأرضية، ومع زيادة نمو السكان في الوطن العربي، فإن مشكلة الندرة تتفاقم، لتزايد الطلب على المياه لتلبية الاحتياجات المنزلية، والصناعية، والزراعية، كما لا تقتصر المشكلة على مسألة ندرة المياه، بل تتعداها إلى نوعية المياه التي تتدنى، وتتحول إلى مياه غير صالحة للاستهلاك الآدمي لأسباب متعددة. وتكاد المشكلة تشمل جميع مصادر المياه في الوطن العربي، فالأنهار العربية الكبرى مثل النيل والفرات تنبع من دول غير عربية، وتجري وتصب في بلدان عربية، مما يجعل لدول المنبع ميزة الأفضلية (الإستراتيجية) في مواجهة البلدان العربية، كما لا تتوافر على المستوى الدولي قوانين كافية لتقاسم الموارد المائية المشتركة، وإن وجدت أعراف وتقاليد غير ملزمة لاقتسام المياه، وتبقى الاتفاقيات بين الدول المشتركة في مصدر مائي معين هي أعلى مراتب الالتزام المعترف به دوليًا لتقاسم الموارد المائية. كما يتطلب الاستغلال الأمثل للمياه الجوفية، ومياه الأمطار استثمارات ضخمة لإقامة التجهيزات والمشروعات اللازمة لهذا الاستغلال، كما أن مشروعات تحلية المياه تحتاج، بالإضافة إلى

الاستثمارات الضخمة، إلى تقانة (تكنولوجيا) متقدمة. وقد جاء في تقويم أجرته مجلة (إيكونوميست) البريطانية في أوائل عام ١٩٩٦م ما نصه: «إن الماء في الشرق الأوسط شحيح بدرجة ليس لها مثيل في أي مكان آخر في العالم، وإنه يزداد نقصاناً».

وفي عام ١٩٨٩م خلص مؤتمر «الموارد المائية للدول العربية وأهميتها الإستراتيجية» والذي عقد في عمان بدعوة من الجامعة الأردنية إلى أن أهم خصائص موارد المياه العربية هو قلتها، بحيث إنها لا تكفي لتغطية الاحتياجات الحياتية، واحتياجات التنمية التي يطمح إليها العرب في العقود المقبلة، وخلص المؤتمر إلى أن الأمن المائي العربي هو بأهمية الأمن السياسي العربي. وأكد تقرير لمركز الدراسات الإستراتيجية في واشنطن أن المياه، وليس النفط ستكون قضية المصادر الطبيعية المسيطرة، فالنزاع على مصادر المياه المحدودة والمهددة يمكن أن يؤثر في الروابط بين دول المنطقة، وربما يؤدي إلى صراعات لم يعرف لها مثيل من قبل. لذلك أصبح الماء قضية ملحة تحمل في طياتها إمكانية زعزعة استقرار النظام حيثما تطل بأنيابها، ونشوء نزاع بين الدول المتجاورة.

وبالرجوع بأحداث التاريخ إلى الوراء قليلاً نلاحظ وجود بعض التوترات بسبب قضية المياه مما يؤكد أن أزمة المياه المتوقعة ليست من نسج الخيال، أو حالة من التشاؤم تنتاب بعض الناس، بل إن لها إرهاصات ومقدمات تنذر بإمكانية انفجارها في أي وقت. ففي ٢٦ شباط/فبراير ١٩٥٦م أعلنت أثيوبيا في جريدتها الرسمية «إثيوبيان هيرالد» أنها سوف تحتفظ لاستعمالها الخاص مستقبلاً بموارد النيل وتصرفاته في الإقليم الإثيوبي - أي نحو ٨٦٪ من مياه النهر بأكمله -، وقد وزعت مذكرة رسمية على جميع البعثات الدبلوماسية في القاهرة تضمنت احتفاظها بحقها في استعمال موارد المياه النيلية لصالح شعب إثيوبيا، ثم عادت تلك التصريحات في الظهور سنة ١٩٨٠م حيث أشار ممثل إثيوبيا في قمة لاجوس أنه [لا توجد اتفاقيات دولية حتى الآن بشأن توزيع حصص مياه النيل]. وقد وضعت إثيوبيا عام ١٩٨١م قائمة بأربعين مشروعاً للري، يقع بعضها على حوض النيل الأزرق وحوض السوباط، أمام مؤتمر الأمم المتحدة للبلدان الأقل نمواً، وأعلنت أنه في حالة عدم توافر اتفاق مع جيرانها في حوض النيل فإنها سوف تحتفظ بحقها في تنفيذ مشروعاتها من جانب واحد. وفي حديث للدكتور زويدي أباتي المدير العام لتنمية الأودية الإثيوبية دعا إلى توزيع مياه نهر النيل بالتساوي بين الدول التسع المشتركة في حوض نهر النيل، وأنه إذا أرادت دولة الاستئثار بنصيب أكبر فإنها يجب أن تدفع تعويضات مناسبة لدول الحوض الأخرى التي ستتأثر الكمية التي ستحصل عليها من جراء ذلك، كما طالب بتوقيع اتفاقيات جديدة بين دول الحوض تقوم على أساس المساواة والعدالة في التوزيع. أما في حوض نهر دجلة والفرات فالأزمة ليست بأقل شأناً من أختها في حوض النيل؛ ففي عام ١٩٨١م بدأت تركيا مشروعها الكبير «مشروع جنوب شرقي الأناضول الكبير» GAP، وهو يضم ١٣ مشروعاً لأغراض الري وتوليد الطاقة الكهربائية، وكان بناء سد أتاتورك - خامس أكبر سد في العالم - على نهر الفرات من أهم المشاريع التي أظهرت حقيقة أزمة المياه في حوض النهر، حيث أقدمت تركيا في ١٣يناير/كانون الثاني ١٩٩٠م على منع مياه نهر الفرات وحبسها عن العراق وسورية بغرض تخزين تلك المياه خلف السد وذلك مدة شهر حتى ١٣فبراير/شباط ١٩٩٠م، وكان قول الممثل التركي: «لا أحد يقيم سداً مائياً ليستخدمه كمتحف للجميع»، ومضت تركيا في تنفيذ خطتها دون الالتفات للاحتجاجات السورية والعراقية من جراء ذلك العمل. ويعتقد كثير من المحللين أن وجود شواهد بترولية في سورية أدى إلى وجود نية تركية قوية لمقايضة البترول بالمياه، حيث يقول سليمان ديميريل في افتتاح سد أتاتورك في يوليو/تموز ١٩٩٢م: «إن منابع المياه ملك لتركيا، كما أن النفط ملك للعرب، وبما أننا لا نقول للعرب: إن لنا الحق في نصف نفطكم فلا يجوز لهم أن يطالبوا بما هو لنا». وأما في الأراضي المحتلة فالأمر أكثر توتراً وصعوبة حيث كان تأمين مصادر وافرة من المياه للدولة الصهيونية أحد أهم أهداف الحركة الصهيونية على حساب العرب.

أزمة المياه المتوقعة ليست من نسيج الخيال، وإنما لها إرهاصات ومقومات تنذر بانفجارها في أي وقت

ويلخص د. سامر مخيمر، وهو أحد المتخصصين العرب في قضايا المياه - خطة إسرائيل المائية وترتيباتها للاستحواذ على مياه نهر الأردن بقوله:

يمكن تقسيم ترتيبات إسرائيل المائية إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى

وتمتد في الفترة من ١٩٤٨ - ١٩٥٨م حيث شرعت إسرائيل في أعمال خطة زراعية/مائية تركز على ثلاثة أهداف:

- إمكانية استيعاب المهاجرين الجدد.
- إقامة المستوطنات الزراعية.
- إنتاج الغذاء.

وتطلب تحقيق هذه الأهداف تنفيذ مشروعات مائية تتمثل في:

- إنشاء شبكات مياه في مختلف المناطق لحصر الموارد الجوفية.
- إقامة جملة من خطوط الأنابيب المحلية تمتد من الشمال إلى الجنوب.
- إنشاء قناة لسحب المياه من نهر الأردن باتجاه الصحراء الفلسطينية.

وقد بدأت إسرائيل بين عامي ١٩٤٨ - ١٩٥٣م بحفر عدة آلاف من الآبار لتزويد المستوطنات بالمياه لدرجة استنزفت الطبقة المائية الجوفية للشريط الساحلي، ثم شرعت بعد ذلك في تنفيذ ما عرف بـ «خطتي السنوات السبع والسنوات العشر»، وبدأ تنفيذ الأولى فعلاً عام ١٩٥٣م، ثم عدلت إلى الخطة الثانية عام ١٩٥٦م. وتضمنت الخطتان استيلاء إسرائيل على ٥٠٪ من مياه نهر الأردن، مع العلم أن كمية المياه التي تنبع من الأراضي التي تحتلها



نمو الإنتاج الزراعي مرتبط بزيادة إنتاجية الأرض

لا تتجاوز ٢٣٪ من المجموع الكلي لكميات المياه التي يحتويها نهر الأردن وروافده. ويتوازى مع المشروع السابق مشروع العوجا - النقب الذي تم إقراره عام ١٩٥٤م، والذي يشكل حلقة متكاملة مع قناة نقل مياه الأردن، وهو يتألف من خطين: شرقي وقد نفذ عام ١٩٥٥م، وغربي نفذ عام ١٩٦٠م، ويسعى المشروع إلى تأمين نقل المياه الواردة من مشروع تحويل نهر الأردن والضخ من بحيرة طبرية إلى أرض النقب.

المرحلة الثانية

وتمتد منذ عام ١٩٥٨ إلى ١٩٦٨م وقد نفذت إسرائيل خلال هذه الفترة أضخم وأكبر مشروعاتها المائية: مشروع طبريا - النقب (الناقل القطري) لنقل ٣٠٠ مليون متر مكعب من المياه سنويا إلى النقب الشمالي وإلى الجنوب.

المرحلة الثالثة

وتمتد منذ عام ١٩٦٨م - حتى الآن، وهي مرحلة الإنتاج والتقانة (التكنولوجيا) الزراعية، ولم تواكب هذه المرحلة مشروعات مائية كبرى.

وتشير البيانات إلى أن استهلاك الإسرائيليين في الضفة الغربية يمثل ٨٧٫٥٪ من مياهها، بينما لا يتجاوز نصيب العرب ١٢٫٥٪، مما يعني أن معدل استهلاك الفرد الإسرائيلي يبلغ ست أضعاف استهلاك المواطن الفلسطيني، كما يدفع الفلسطينيون في الضفة الغربية ستة أضعاف ما يدفعه المستوطن اليهودي في مقابل الانتفاع بالمياه، حيث بلغ سعر المتر المكعب من المياه للفلسطينيين في الضفة الغربية ١٫٣ دولار، أما سعر الكمية ذاتها للمستوطن فيبلغ ٠٫٦ دولار فقط.

أزمة الغذاء في الوطن العربي

مما لاشك فيه أن العالم يشهد اليوم نمواً كبيراً في إنتاج الغذاء والمحاصيل الزراعية، إلا أن هناك بعض الحقائق لا يمكن إغفالها عند الحديث عن تلك النهضة. من أهم هذه الحقائق أن هذا النمو في إنتاج الغذاء جاء من خلال الارتقاء بإنتاجية الأرض، وليس من خلال زيادة المساحة المزروعة، أي من خلال استخدام (تكنولوجيا) ومدخلات إنتاج أفضل. وهذا النمو في الإنتاج رافقه نمو مماثل تقريبا في عدد السكان، ومن ثم ظهر التحسن في مستوى ما يخص الفرد الواحد محدوداً جداً. كما أنه في نطاق محدودية الموارد الطبيعية اللازمة للزراعة - الأرض والماء - وصعوبة زيادتها، واستمرار الزيادة السكانية، سوف يتركز اعتماد العالم مستقبلاً على التقانة (التكنولوجيا) للوفاء باحتياجات السكان الجدد، ولتحسين مستوى ما يخص الفرد بوجه عام. وهذه الحقائق تشمل بالطبع العالم العربي، فعلى الرغم من الزيادة المتواضعة في إنتاج الغذاء في الفترات الأخيرة، فإن الزيادة السكانية قد التهمت كل هذه الزيادات، وظل مستوى ما يخص الفرد العربي من الغذاء أقل كثيراً من المتوسطات العالمية، التي لا يمكن بأي حال قبول أقل منها. فبالنسبة إلى القمح مثلاً، بلغ متوسط حصة الفرد العربي ٧٧كجم، بينما المتوسط العالمي ١٠١ كجم، والسكر ٩٫٧ كجم، والمتوسط العالمي ١٩٫٩كجم. بينما بلغت حصة العربي من اللحوم ١٦٫٤ كجم، والمتوسط العالمي

٤ر٣٣ كجم، أما الأسماك فقد بلغ حصة المواطن العربي ٧ كجم، والمتوسط العالمي ٣ر١٨ كجم، وحصته من الألبان ٥٣كجم، والمتوسط العالمي ٩٥ كجم. ومن ثم لجأت الأقطار العربية قاطبة إلى الاستيراد لسد الفجوة الغذائية الناتجة من زيادة الطلب على الغذاء مع ضعف الإنتاج المحلي. وتواجه الزراعة العربية عدداً من المخاطر من أهمها:

تناقص قاعدة الموارد الطبيعية

لقد تناقص متوسط ما يخص الفرد العربي من المساحة المزروعة بدرجة كبيرة بسبب الزيادة السكانية والتوسع العمراني مع قلة معدلات استصلاح أراض جديدة.

ففي مصر على سبيل المثال: أدى تحويل جانب من الأراضي الزراعية لاستخدامات أخرى غير زراعية إلى تناقص ما يخص الفرد الواحد من الأراضي الزراعية من نحو ٢٠٣٨م٢ عام ١٩٠٧إلى ١٠٢٠م٢ عام ١٩٥٧م أي إلى نحو النصف خلال خمسين عاماً ثم إلى ٥٢٢م٢ عام ١٩٨٥م أي تناقص إلى النصف مرة أخرى خلال ٢٨ عاماً فقط، ثم إلى ٤٧١م٢ عام ١٩٩٢م. ومن حيث النوعية والخصوبة فلا شك أن الأرض تتعرض لكثير من المصادر المسؤولة عن تدهور الخصوبة، لعل أهمها عوامل التعرية والتدهور الكيماوي.

اتفاقية الجات GATT

إن كلمة (الجات) هي الحروف الأولى بالإنجليزية لتعبير: الاتفاقيات العامة على الرسوم الجمركية والتجارة GENERAL AGREEMENT ON TRAIFFS AND TRADE، وهي تعود في تاريخها إلى عام ١٩٤٧م عندما اجتمعت ٢٣ دولة صناعية في جنيف للنظر في تحرير التجارة، وفتح الأبواب بين هذه الدول، وإلغاء الحواجز فيما بينها، وتم التوصل إلى اتفاقية وقعت في المغرب عام ١٩٩٤م، وبلغ عدد الدول الموقعة ١١٧ دولة، وتنص بنود الاتفاقية بالنسبة إلى الزراعة على تخفيض الدعم الداخلي للإنتاج الزراعي في الدول المتقدمة بنسبة ٢٠٪ خلال ست سنوات، وفي الدول النامية بنسبة ٣ر١٣٪ خلال مدة عشر سنوات وإلغاء دعم التصدير. والمتوقع أن ترتفع أسعار الصادرات من الدول الزراعية المتقدمة، وهذا سوف يؤدي بدوره إلى زيادة تكلفة استيراد الغذاء بالدول الإسلامية النامية.

كما أن التخوف قائم من ضعف استفادة الدول الإسلامية النامية من إزالة الحواجز مع لجوء الدول المتقدمة إلى التشديد في مراقبة الجودة والتزام المواصفات القياسية والحجر الزراعي، وهي

تتصاعد المنافسة بين الدول والتكتلات الاقتصادية، وأهم أسلحتها العلم والتقنية



عوامل كثيرة مسؤولة عن تدهور خصوبة الأرض

شروط لا تقدر عليها الدول النامية. ولقد صدق حقاً من قال: إن اتفاقية الجات منتدى الأغنياء لأن المستفيد الأكبر منها هي الدول الصناعية والزراعية المتقدمة، فلقد نشرت منظمة التعاون لاقتصادي والتنمية التابعة للأمم المتحدة إحصائية توضح أرباح الدول الغنية من الجات وورد بها ما يلي: أرباح المجموعة الأوربية ٦١ مليار دولار سنوياً.

الولايات المتحدة الأمريكية ٣٦ مليار دولار سنوياً.

اليابان ٢٧ مليار دولار سنوياً.

الصين ٣٧ مليار دولار سنوياً.

وبصفة عامة يقدر إجمالي مكاسب الدول الغنية بين ٢٠٠ - ٣٠٠ مليار دولارسنوياً ابتداءً من سنة ٢٠٠٢م.

وتشير دراسة للمنظمة العربية للتنمية الزراعية إلى أن تحرير التجارة العالمية في السلع الزراعية سوف يسبب ارتفاع أسعار الحبوب الغذائية، وكذلك انخفاض الإنتاج الحيواني في دول المجموعة الأوربية بسبب تخفيض الدعم، ومن ثم يتوقع ارتفاع الأسعار العالمية للحوم والألبان.. وتقدر خسائر الدول العربية نتيجة لذلك بنحو ٦٦٤ مليون دولار (زيادة في قيمة الواردات للدول العربية)، وكذلك تقدر الخسارة في صورة نقص الرفاهية الاجتماعية للدول العربية بمقدار ٨٨٧ مليون دولار. إلا أن الأمانة، تقضي أن نذكر أن هناك فريقاً من الخبراء يرى بعض الجوانب المشرقة لهذه الاتفاقية، والتي تتمثل في تشجيع الاستثمار في الدول النامية، وزيادة الحافز الذي يحتم عليها الارتقاء بالإنتاجية لمواجهة هذا الارتفاع في الأسعار.

ضعف مجال البحوث الزراعية

إن البحوث الزراعية هي الأمل الوحيد أمام الزراعة العربية للارتقاء بإنتاجية الأرض الزراعية عن طريق تطوير نوع السلالات المستخدمة، والتي تتميز بإنتاجية عالية، أو تحمل أكبر لظروف البيئة أو غيرها من الصفات المرغوبة. والتي يطلق عليها عملية التوسع الرأسي في الزراعة. وبخاصة وأن التوسع في مساحة الأرض المزروعة أصبح أملاً فرصته ضعيفة في كثير من البلدان العربية. ومجال البحوث الزراعية يواجه في معظم البلدان العربية عدداً من الصعوبات: أهمها: ضعف التمويل وعجز عدد منها عن مواجهة مشكلات التنمية دون عون خارجي، والافتقار إلى أسلوب سليم لإدارة الموارد البشرية والمادية المتاحة، ونقص (الطاقات) البشرية المدربة؛ ويكفي أن نعلم أن عدد الباحثين في مجال البحوث الزراعية في الوطن العربي (١٩ دولة) هو ٦٥٣٤ باحث، وفي الدول المتقدمة (٢٢ دولة) هو ٥٦٣٧٦ باحث، وجملة الإنفاق على البحوث الزراعية في الوطن العربي هو ٢٣٠ مليون دولار. وفي الدول المتقدمة هو ٨٥٤٠٠ مليون دولار. ويلخص د. محمد السيد عبدالسلام - وهو من كبار المتخصصين في مجال الزراعة - الوضع الحالي في كلمات رائعة رشيقة، حيث يقول:

«والآن كل هذه الظروف آخذة في التغيير، فالموارد الطبيعية الزراعية المطلوبة للمزيد من الاستثمار لم تعد متاحة، بل إن المستثمر منها بالنسبة للفرد آخذ في التآكل نتيجة لاستمرار الزيادة السكانية، والقلق على حالة البيئة آخذ في التصاعد وفي فرض محددات جديدة على التنمية الزراعية، ومستقبل إمدادات الغذاء



ندرة المياه مشكلة تواجه العالم العربي

على الصعيد العالمي وفي العالم النامي بوجه خص لا يدعو إلى الاطمئنان، واستعداد الشمال لمساعدة الجنوب آخذ في التراجع على المستوى الثنائي، وعلى مستوى المنظمات الدولية، والتكنولوجيا الحيوية الحديثة التي تبنى عليها الآمال في مستقبل التنمية الزراعية ليست متاحة مجاناً، بل هي محمية، وينبغي على من يحتاج إليها أن يدفع الثمن، ونظم إجراءات الحماية سوف تتلاشى في ضوء اتفاقية منظمة التجارة العالمية، وسوف تتصاعد المنافسة بين الدول والتكتلات الاقتصادية، وسوف تكون قدرات العلم والتكنولوجيا السلاح الفاعل في هذه المنافسة، وسوف تكون المغانم للأقوياء الذين يملكون سلاح العلم والمغارم لأولئك الذين يفرطون في الاستحواذ على هذا السلاح، إنه نظام جديد عاصف،

الزيادة السكانية في الوطن العربي تلتهم الزيادة المتواضعة في إنتاج الغذاء

وغالبًا لا يعرف التسامح تجاه العاجزين، يحتم على الدول العربية أن تتحسب له كثيرًا لتواجه سلبياته، وتستفيد من إمكانياته، ولا تكون إحدى ضحاياه».

أزمة البطالة في الوطن العربي

جاءت ثورة النفط عام ١٩٧٣م لترسم معالم جديدة للمنطقة العربية بالنسبة إلى الأوضاع الاقتصادية؛ ففي الدول العربية النفطية زادت الدخول، وارتفع فيها متوسط دخل الفرد بما يقارب دخله في الدول الصناعية المتقدمة، وتميزت تلك الفترة بزيادة معدلات الاستثمار، ووضعت برامج وخططًا طموحة لبناء شبكة البيئة الأساسية والتوسع في بناء المدن والمناطق العمرانية الجديدة، وكانت قلة عدد السكان في تلك البلاد سببًا مهمًا في زيادة احتياج تلك الدول للعمالة الخارجية لتحقيق تلك الثورة الهائلة في التنمية، فرحبت بالعمالة العربية وغير العربية التي راحت تتدفق إلى هذه البلاد بشكل سريع، وفي ظل هذا الرواج الاقتصادي اقترب معدل البطالة في تلك الدول إلى الصفر تقريبا. أمّا الدول العربية غير النفطية فإن معظمها عند مشارف السبعينيات كان قد وصل إلى حالة من الإنهاك الاقتصادي الذي سرعان ما أثّر في أحوال العمالة وظروف التشغيل، إلا أنه، على الرغم من ضغوط وصعوبات تلك المرحلة، فإن ثمة عوامل مختلفة توافرت وخففت من صعوبة الموقف وظهور البطالة على أنها أزمة تهدد عددًا من الأيدي العاملة، فكان من هذه الظروف: ـ خروج أعداد كبيرة من فائض العمالة إلى الخارج، خاصة إلى البلاد العربية النفطية التي رحبت بتلك العمالة كما ذكرنا.

اتفاقية الجات هل هى منتدى الأغنياء أم إن للفقراء فيها نصيبًا ؟

ـ زيادة حجم المعونات الاقتصادية التي قدمتها البلاد العربية النفطية في تلك الفترة.

ـ الموارد الضخمة التي حصلت عليها هذه البلاد في شكل قروض خارجية من أسواق النقد والمال العالمية، حيث كان الاقتراض سهلاً وميسرًا في تلك الفترة، وإن كان بتكلفة مرتفعة مؤجلة.

ـ استمرار التزام كثير من حكومات تلك الدول تعيين الخريجين من حملة المؤهلات كسبًا لتأييد الطبقة الوسطى، والحد من المشكلات الاجتماعية والسياسية نتيجة تفاقم البطالة.

ومع بداية الثمانينيات ومرورًا بالتسعينيات بدأت الأوضاع تأخذ في التغير، وأخذت مشكلة البطالة في الانفجار المدوي حيث مالت أسعار النفط عالميًا إلى التدهور بشكل حاد، مما أثّر بشكل مباشر في الدول العربية قاطبة، ففي البلاد العربية النفطية انخفضت أحجام دخولها الوطنية، وتبعها انخفاض معدلات نمو الإنفاق الحكومي الاستثماري، وبالذات في مجال البنية الأساسية التي كانت قد قاربت الاستكمال، مما حدا بتلك الدول إلى تطبيق سياسات انكماشية وكان من ضمنها وقف التعيينات في الأجهزة الحكومية والحد من استقبال العمالة الوافدة. أما في البلاد العربية غير النفطية فقد كان لانخفاض أسعار النفط آثار سلبية شديدة، من أهمها انخفاض الدخل الوطني، إذ كان النفط مصدرًا من مصادر هذا الدخل في بعض هذه البلاد مثل مصر وسورية، كما انخفضت المساعدات العربية من الدول العربية النفطية، وكذلك عادت العمالة إلى أوطانها مما أدى إلى ارتفاع نسبة البطالة، وفقدت هذه الدول موردًا مهمًا من موارد الدخل الوطني المتمثل في التحويلات النقدية التي كان يرسلها العمال بالخارج، وصاحب ذلك تفاقم أزمة المديونية الخارجية لهذه البلاد التي نجمت عن الإفراط في الاستدانة الخارجية مما أدى إلى ارتفاع معدل خدمة الدين. كل هذه الضغوط قادت تلك الدول إلى اتباع سياسات صارمة كان لها دور كبير في زيادة معدلات البطالة، فتخلت كثير من هذه الدول عن تعيين الخريجين، وتقلص دور الحكومة في النشاط الاقتصادي، مما أدى إلى خفض الطاقة الإنتاجية التي تستوعب الأيدي العاملة العاطلة، وأضحت البطالة كارثة تهدد الوطن العربي. ومع قلة البيانات والإحصاءات عن حجم البطالة في الوطن العربي نستطيع أن نتلمس حجم المشكلة من التقارير المتاحة. ففي التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ١٩٩٤م قدر معدل البطالة في الاقتصاديات العربية بنحو ١٠٪ من قوة العمل العربية التي بلغت عام ١٩٩٣م نحو ٦٧٫٥ مليون عامل، مما يعني أن عدد المتعطلين يصل إلى نحو ٦٫٧٥ مليون عاطل. أما منظمة العمل العربية فقد قدرت معدل البطالة على مستوى جميع البلاد العربية بقرابة ١٥٫٥٪ من قوة العمل العربية، وهو ما يعني وجود ما يزيد على عشرة ملايين عامل عربي عاطل. بعد هذا العرض السريع لطبيعة الأزمات التي تواجه المنطقة العربية، لا يسعنا إلا أن نقول: إن الأمر يتطلب جهودًا كبيرة تشمل كل قطاعات الوطن العربي لمواجهة تلك الأزمات، ولكن الملاحظ حتى الآن أن الجهود المبذولة متواضعة إلى حد كبير بالنسبة إلى حجم المشكلة، فالحل يبدأ من الإعلام العربي المسؤول عن عرض القضية أمام الرأي العام، وشحذ همم الشعب لتحمل المسؤولية، وعقد الندوات واللقاءات مع الباحثين والعلماء المتخصصين لإيجاد تصور عام لحل المشكلة، وتقديم العلماء والخبراء على أنهم هم قدوة المجتمع، ومثال كفاح مشرف لكل من أراد الرقي والنهضة، فكم في حياة هؤلاء الشرفاء من كفاح ومثابرة وإخلاص نحن أحوج ما نكون إلى معرفتها كي نحتذيها في حياتنا. ولكن مع الأسف وجدنا قطاعًا عريضًا من الإعلام العربي بأجهزته كافة يلهث وراء نجوم الرياضة والفن، ويوقف جهده ووقته على عرض صور من حياتهم الخاصة، وأعمالهم الفنية.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هل نحن حقًا وفي ظل الوضع الراهن بحاجة إلى كل هذا الحشد من النجوم من الرياضيين والفنانين الذين يقدمون لنا كل هذا الكم الهائل من المباريات والمسلسلات والأفلام والأغاني أم إننا نرقص فوق سفينة تغرق؟!

المراجع:

١ـ أزمة المياه في المنطقة العربية، د. سامر مخيمر، خالد حجازي.
٢ـ الأمن الغذائي للوطن العربي، د. محمد السيد عبدالسلام.
٣ـ الاقتصاد السياسي للبطالة، د. رمزي زكي.
٤ـ النظام الاقتصادي العالمي واتفاقية الجات، د. حسين شحاته.

الإستراتيجية العسكرية المقبلة
في ضوء التقنيات الجديدة

الحرب الحاكومية أو السيبرناتية*

صلاح يحياوي

لن يُسمع في حروب القرن الواحد والعشرين الوشيك القدوم قصفُ القنابل، بل طقطقةُ فأر الحاسوب.. وسيكون هناك جنود باستمرار، لكن هؤلاء سيعتمرون خوذات «مُعَلْوَمة»(٢).

عندما ينشب نزاع بين بلدين في المستقبل، ويتحول إلى حرب معلنة، ستُقلع طائرة عابرة للمحيطات من دون أن تلفت انتباه أحد لتقوم بمهمتها المتناهية في السرية.. ستكون طائرة ذات هوائيات متعددة ومختلفة الأنماط، جوفها مكيف الضغط والهواء عامر بأجهزة إلكترونية معقّدة ومَناظر - جمع مِنظر - monitors تلفازية، ومقاييس ومكاشيف مغناطيسية، وفاكسات faxes، وأقراص مكتنزة compacted disks أو اختصاراً cd، يحسدها عليها الكثير من الدراسات المذياعية والتلفازية، وستقوم هذه الطائرة بالبث على جميع الترددات (التواترات) المذياعية والتلفازية الممكنة لتدب الفوضى في صفوف الخصوم الذاهلين المصعوقين، وتتداخل هذه الترددات مع ترددات إذاعة العدو وتلفازه، وتحل محلها أحياناً متسللة إلى درجة يشتبه فيها الأمر على الخصوم فيحسبونها حقيقية، وتعرض نشرات أخبار تُظهر المجرى الحقيقي للحرب، وتُنذر الجنود المروَّعين بالاشتباكات القادمة. إنها هجمات حرب نفسانية، إنها الحرب الحاكومية، وفيها تتفرغ طائرة أخرى كالسابقة لتعترض اتصالات العدو، وتنصت لها، وتسجل جميع الحركة الإلكترونية للعدو، وتنقلها إلى مراكز شديدة السرية كمصلحة الاستخبارات، وإدارة الأمن والمخابرات، وكلية الحرب البحرية.. إن أسلحة حروب القرن المقبل أسلحة مذهلة، إنها شاشات الحاسوب وفئرانه ومفاتيحه...

وتقوم القوى المسلحة للبلد القوي وطواقمها السرية متظاهرة بتلقي أمر رئاسي للشروع بالعدوان على البلد الآخر، أو ترسل نداء عبر (المُضمِّن - الكاشف) modem(٣) لتحشر حُمات أو فيروسات المعلوماتية في نظام الرقابة الهاتفية العدوة، مُنزلةً الخلل التام فيه، قاطعةً الاتصالات الهاتفية، فينعزل البلد عن الخارج. ثم تُفَعَّلُ القنابل الفيروسية معلومات كانت قد أُدخلت مسبقًا في دارات الحواسيب وأُعدِّت لغرض معين في تاريخ وساعة محددين، فتستطيع بذلك تخريب البرامج الإلكترونية للنظام الخاص بالسكك الحديدية، وتتحكم بالحركة الجوية، وترسل مئات القطارات إلى أماكن تختلف عما كانت مبرمجة لها، وتتأخر المئات من رحلات الطائرات من دون سبب أو لأسباب مجهولة، فتعم الفوضى في النقلين الأرضي والجوي. البلدان الصناعية وقابلية العطب

لتخريب دارات الحواسيب تخريباً مادياً تُستخدم بكتريات ملتهمة لشبكات العدو المعلوماتية، ويقوم المخربون والطوابير الخامسة بتشغيل أجهزة حجومها كحجوم الحقائب الصغيرة،

قادرة على إحداث نبضات كهرطيسية مماثلة لتلك التي تولد الانفجارات النووية.. فتحصر هذه الإشعاعات حواسيب البنك المركزي مجمدة نظامه المالي، ومسببة إفلاسه بمجرد أن يعرف المواطنون أن أموالهم وتوفيراتهم لم تعد في مأمن!.. في هذه الأثناء تتدخل طائرات الحرب النفسية والحرب الإلكترونية، وتنزل الخلل في نظام الاتصالات بالراديو والتلفزيون، أو تلحق العمى بالرادارات ومحطات الاتصال، وتعزل ضباط العدو وإداراته، وتجعل التلفزيون الرسمي يعرض من خطب المستبد وبلاغاته ما يثير سخط المواطنين ويضللهم، كما تعرض صوراً له في أوضاع أو أفعال

أسلحة الحروب القادمة هي الحاسوب وفئرانه ومفاتيحه

تتنافى على نحو واضح مع الأخلاق والتعليمات الدينية للبلد. وأخيراً عندما يفهم المستبد خطورة وضعه ويتهيأ للهرب فإنه يتبين مذعوراً من حاسوبه الشخصي بأن حساباته السرية في سويسرا وفي جهات مالية أخرى قد سُرقت، وأن أرصدته قد غدت أرقاماً جوفاء.

وفي غمرة هذه الفوضى يستطيع جنود القوي احتلال البلد من دون إطلاق أية رصاصة.

هذا من الناحية النظرية.. إلا أن الأمر لا يخلو من أصوات مُندِّدة ترفعها مجالس ومنظمات مأذونة لتَرى الوجه الآخر لقطعة النقد..

ويتبادر السؤال التالي:

ـ ألا تكون البلدان الصناعية في حرب قادمة أمام أخطار الحرب المعلوماتية والإرهاب المعلوماتي قابلية للعطب من البلد الذي يستبد فيه رئيس ما؟..

ويأتي الجواب:

ـ بلى.. إن هذه الأسلحة الجديدة تمثل تحدياً، وتتكشف عما ينزل القشعريرة في البدن، إذ أنه لم يكتشف أو يعاقب سوى نسبةٍ مئوية ضئيلة من القراصنة الذينَ يدخلون النظام المعلوماتي للبنتاغون!..

تزوير معطيات الحاسوب

تُفلتُ الغالبية العظمى لهؤلاء القراصنة من جميع المراقبات، ويبقى هؤلاء مجهولي الهوية.. وما أسهل الدخول على الإرهابي المعلوماتي ـ من الناحية النظرية ـ الدخول مثلاً إلى نظام التحكم بالحركة الجوية لمطار كبير، وتزوير المعطيات التي تظهر على شاشات رادار المراقبين، وإحداث أصداء مزيفة فيها. وبالفعل تدور إشاعات حول قرصان توصل خلال حرب سابقة إلى تقديم خدماته ـ مقابل مكافآت سخية جداً ـ إلى عدو مستبد، لكن هذا الأخير قد رفضها إما لأنه كان لا يعتقد بأهميتها أو لأنه قد قام بذلك من باب الحذر!.. ومع ذلك، فقد تبدو بعض افتراضات الإستراتيجيين الحاكوميين متفائلة قليلاً.. إذ من الصعب في بعض البلدان تخيل الفوضى في حركة سكك الحديد بسبب خلل في النظام المعلوماتي؛ لأن من المحتمل أن تكون هذه البلدان لاتزال تسجل اتجاه العربات وشحناتها كتابة بالطباشير، وهو نظام بسيط ومجد.

هل فصلُ الشبكة هو العلاج؟

يقفُ أمام بعض هذه الألاعيب شعر الرأس فزعاً؛ إذ يمكن مسح



رصيد الحسابات السرية في سويسرا، كما يمكن فتح حسابات جارية بكميات جمة لمن تستدعي الضرورة أن تكون لديه أمثال هذه الأرصدة.. وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي؟ ـ إلى أي مدى يمكن الاعتماد على شرف السياسيين بعد اليوم؟

لقد سبقتنا هوليود إلى تمثل الكيفية التي يحدث فيها ذلك.. يتذكر كل من شاهد فيلم الشبكة THE NET الذي يعرض حالة موظفة إدارية كبيرة



وَجَدتْ في حاسوبها اليدوي وفي (المضمِّن) modem ما قلب حياتها جحيماً.. فقد جعلوها تختفي أيضاً على نحو معلوماتي. لقد غدت احتمالات الهجمة الحكومية واضحة، أما احتمالات الدفاع الحاكومي فهي أصعب تخيلاً.. قد يكون أجود شكل لتجنب اعتداء معلوماتي كامل هو الانفصال عن الشبكات، وتحويل نبوءة ألبرت أينشتاين إلى حقيقة عندما قال مشيراً إلى خطر حرب نووية: ـ لا

يستطيع جنود البلد المتقدم تقنياً تعطيل شبكات العدو المعلوماتية واحتلال أرضه من دون إطلاق أية رصاصة

أعرف بأية أسلحة سيتم إنقاذ العالم من الحرب العالمية الثالثة، إلا أن ما أعرفه هو أن الأحجار ستستخدم في الحرب الرابعة!..

ولكن في الوقت الذي تغدو فيه هذه التهديدات المعلوماتية واقعية فلا يستبعد أيضًا حدوث مجابهة جسدية.. وسيتغير ميدان المعركة نتيجة لظهور الجنود الحاكوميين. يُجهز هؤلاء بألبسة ميدان مُتدرجة (متساوية درجة الحرارة) تحميهم من الاعتداءات البيولوجية والنووية والكيماوية؛ كما يجهزون بدروع من مواد خفيفة في مُنتهى الصلابة كالكفلار kevlar(٤) الأكثر مقاومة من الفولاذ والمستعمل في صنع الألبسة المصفحة. لن يكون جنود العصر الإلكتروني هؤلاء وحدهم وسط دوي المعركة وهزيمها. لقد انتهت صيحات القيادة التي تختلط بضجيج الانفجارات، وانقضت أخطاء التفسير التكتيكي الرديء. إن العنصر الأساسي للجندي الجديد هو خوذته التي ستحتوي على كاميرات تلفازية، وأدوات لحصر المرئيات، وأجهزة تسديد ليلية، ونظام تواصلات رابط للمعطيات، وكلها مأمونة وصامدة تجاه التداخلات.. سيُربَطُ الحاسوب في المنطقة القطنية من لباس الميدان، وسيكون مُوقى من الضربات والصدمات بفضل درع مضاد للقنابل صنع من الكفلار.

سَيُنَسِّقُ هذا الحاسوب الشخصي أنظمة الاستشعار والتواصلات، وسيُزَوِّدُ الجندي بهوية مزدوجة صديقة - عدوة. وسيكتشف الألغام المعدة للأفراد، والمواد الكيماوية الخطيرة، وسيحدد له موقعه بفضل نظام تحديد خاص، وسيخبره في كل لحظة عن مكانه على نحو دقيق لا يتجاوز الخطأ فيه السنتيمترات. معرفة الحالة الصحية للجندي

سترسل المستشعرات المختلفة المنصوبة في أجزاء مختلفة من جسم الجندي عبر التابع satellite الثابتات الأساسية للجندي: نبضه، وضغط دمه، ومخطط كهربائية قلبه، وحتى مخطط كهربائية دماغه، وتعرّقه، وتنفسه... ويستطيع رئيس وحدته الاطلاع على أي بيان بيولوجي ضروري لمعرفة الحالة الجسدية والعصبية للمحارب في أية لحظة، وعلى بعد آلاف الكيلو مترات، أو على بعد مئات قليلة من الأمتار: سيعرفها وهو قابع في داخل عربة القيادة. وسيقوم جهاز التصويب المثبت في الخوذة من جهة أخرى - وعندما تدعو الضرورة - بأمر شفهي من حامله بعرض صور لما التقطته الكاميرات التلفازية لرفاق وحدته، يعرضها على رئيس فصيلته كي يتفهم هذا الأخير تفهمًا حقيقيًا وكاملاً وضعهُ التكتيكي. وستتضمن بعض الأسلحة التي هي في دور التجريب أجهزة تسديد للسلاح مصممة على أشعة الليزر. فأمام عقبة أو مقاومة غير متوقعة سيستخدم الجنود أسلحتهم الشخصية لتدل - عن طريق الليزر - على الصواريخ والقنابل الموجهة من الطائرات والحوامات المعدة للدعم المباشر على الأهداف. يستطيع الجندي المتصل بواسطة سلك الحاسوب وأجهزة التصويب أن يسدد بدقة من دون التعرض لنيران العدو، وذلك بمجرد إطلالة من مدفعه، وسيخطره الحاسوب أيضًا بالذخيرة المتبقية لديه، وسيدله على أكثر أنماط النيران والقذائف ملاءمة. إن الوجه الجديد للحرب القديمة أكثر ملاءمة للحقيقة الافتراضية منه للحقيقة المجردة.. ولكن إذا ما تجسدت كل هذه التقدمات، أو إذا ما أضيف بعضها إلى التجهيز العسكري، فإنها ستزيد الفروق الهائلة بين الجندي الغني والجندي الفقير.

آينشتاين: لا أعرف بأية أسلحة سيتم إنقاذ العالم من الحرب العالمية الثالثة، إلا أن ما أعرفه هو أن الحجارة ستستخدم في الحرب الرابعة!

الهوامش:

* - cybernetics السيبرناتية أو الحاكومية كلمة مشتقة من الإغريقية kybernetes بمعنى حاكم ومن اللاحقة ics - التي تدل على دراسة أو معرفة أو مهارة أو ممارسة والتي يمكن مقابلتها بياء النسبة المتلوة بالتاء المربوطة الملحقتين بالاسم لتشكيل المصدر الصناعي. ويغدو الحاكم حاكومًا إذا كان قادرًا على التحكم بكل شاردة وواردة من قريب أو بعيد، ومن هنا يشتق المصدر الصناعي «الحاكومية» أي علم التواصل ونظرية التحكم المعنيان خاصة بالدراسة المقارنة لأنظمة التحكم المؤقتة أي التي جعلت تلقائية الحركة.

٢- informatized مُعلوم أو مُعلومة مشتق من informatize يُعلوم ومن informatics المعلوماتية أو علم المعلومات أو العلومة.

٣- (المضمن - الكاشف) نبيطة إرسال معطيات الحاسوب عبر خطوط الهاتف - modulator demodulator = modem.

٤- kevlar كفلار اسم تجاري لأميد عطري اصطناعي طويل السلسلة يمكن بثقه إلى ألياف مقاومة لدرجات الحرارة المرتفعة وشديدة الصلابة.

المرددات والأهازيج الشعبية

أحمد صدوق صافي

تقاس عظمة الأمم بما لها من تاريخ عريق، وأصالة خالصة، وحضارة ضاربة جذورها في أعماق الأرض، وممتدة فروعها على أرجاء المعمورة.

وكذلك هي الأمة العربية، ذات المنشأ القديم الأصيل، والدين السماوي القويم، واللغة الجميلة الحية، والامتداد الجغرافي الواسع، والتاريخ المضيء، والثقافة المتنوعة الشاملة، وغير ذلك من مقومات المنعة والبقاء والتقدم. ومن مقومات الشعوب التي تدل على أصالتها، وطيب معدنها، وحسن جوهرها، وتآلف أبنائها، ما كان يقام بينهم وخلال العصور المتلاحقة من تجمعات واحتفالات في مناسبات مختلفة دينية أو اجتماعية أو ثقافية، وما يتم في تلك التجمعات والاحتفالات من نشاطات تعبر عن المشاعر، وتظهر مكنونات النفوس، وتخرج المخزون المترع بالثقافة والفن، وهذا ما نطلق عليه التراث الشعبي (الفولكلور) أو بتعبير أدق شكلاً من أشكال التراث الشعبي وفرعًا من فروعه. ومن أمثلة ذلك ما يقام في المناسبات الاجتماعية، كحفلات الأعراس والولادة والختان وقدوم الحجاج من الديار المقدسة، وغير ذلك من المناسبات التي يعبر فيها الأهل والأقارب والأصحاب والجيران، بفرحة غامرة، عن مشاعر الود والتآلف.. التي تتخذ أشكالاً وألوانًا مختلفة باختلاف البيئة والبشر، وإن كانت تجمعها خيوط واحدة في سائر البلدان العربية، مما يؤكد الوحدة القائمة بين الشعوب العربية والبلدان العربية، حيث هناك أسلوب واحد أو متقارب في التعبير الشعبي في مختلف الأغراض والمناسبات؛ وأهم تلك الخطوط التي تربط التراث الشعبي في الوطن العربي، تلك المشاعر الإيمانية والدينية التي تظهر ولا تنقطع في كل نشاط من النشاطات، بحيث تظهر في التعبيرات والأنماط المختلفة التي تتم في الاحتفالات الاجتماعية؛ ومن ذلك أيضًا ظهور روح الأخوة في صفوف الجماعة التي تشارك في الاحتفالات، بحيث تبدو المناسبة كأنها تخص الحاضرين كافة، وليس أهل البيت وحدهم، وفيها ينسون كل ما قد يكون عالقًا في النفس من أدران الحياة المادية من مآخذ وسقطات وهنات يحملها بعضهم تجاه بعض، والتي تزول وتتلاشى في مثل هذه المناسبات. وسوف نقدم في هذا العرض بعض اللوحات الشعبية المضيئة في المناسبات الاجتماعية كاحتفالات الأعراس التي تقام في بلاد الشام، وفي سورية خاصة.

ومن هذه اللوحات ما نطلق عليه المردَّدات الشعبية؛ ونقصد بالمرددات تلك القصائد والأهازيج والمدائح والأناشيد، يشترك في ترديدها وإنشادها مجموعة من الحاضرين؛ على أن ما اصطلحنا عليه هنا بالمرددات والأهازيج الشعبية(١)

قديمة جداً عرفت في مجالات ومناسبات مختلفة، كالنفير إلى الحرب، والعودة من الجهاد، والعمل في زراعة الأرض وحصاد الزرع وإقامة البناء، وفي الأعراس وليالي السمر والحداء للإبل في أثناء السفر عبر الصحراء؛ ونذكر هنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يشارك في ترديد الأهازيج في مثل هذه المناسبات، ومن ذلك الأهازيج التي رددها المسلمون في أثناء بناء أول مسجد لهم في المدينة:

اللهم إن الأجر أجر الآخره

فارحم الأنصار والمهاجره

وفي رواية أخرى ذكرها البخاري:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخره

فانصُر الأنصار والمهاجره

ونود أن نسجل هنا بعض المرددات والأهازيج التي يرددها الرجال دون النساء في المدن والقرى السورية، ومن خلالها نستطيع أن نستشف ونستخرج بعض الملامح والخصائص النفسية والبيئية في حياة الناس وأمزجتهم وأحوالهم. إن النزعة الإيمانية والارتباط بالدين سمة ظاهرة وبارزة في المرددات والأهازيج الشعبية، كما أشرنا إلى ذلك سابقا، ومنها ما يستلهم السيرة النبوية والمعاني الإسلامية، وتردد فيها صيغ الصلاة والسلام على الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم. ومن اللوحات الشعبية التي تعرض في الأعراس، وهي في طريقها إلى الزوال والانقراض وما زالت تقام في بعض الأحياء الشعبية، أن يجتمع الرجال في أحد البيوت من أقارب العريس (المعْرِس) فيشتركون في إلباس العريس بزّة العرس وسط الأهازيج والتعبيرات الفكاهية المرحة التي سنعرض مقتطفات منها فيما بعد، وتسمى هذه

في الاحتفالات الاجتماعية ينسى الجميع ما قد يكون عالقًا في الأذهان من أدران الحياة المادية

المراسم (التلبيسة)، ثم يسيرون في موكب حافل يعرف بـ «العراضة»، و«ينتظمون فيه متماسكي الأيدي متقابلي الوجوه في صفين متوازيين يلتحم طرفاهما من جهة - وهذا صدر العراضة - وإذا كان الحفل لعريس أو محتفى به فهذا مكانه، ويبقى الطرفان الآخران سائبين ينضم إليهما من يدرك العراضة في أثناء المسير، وبين الصفين يخطر الحُداة - المرحّلون - خفافًا نشيطين يلوّحون بالسيوف، ويهتفون بالأهازيج، والشباب يرددون أهازيجهم، ويتجاوبون مع نغماتها المختلفة تمايلاً واختلافًا. وتتوقف العراضة بين الفينة والفينة، أو تتمهل ريثما يقدم السيّافة - لاعبو السيف والترس - جولة من المبارزة على دقات الطبل وهي تبدأ بالتبختر والاختيال، وتنتقل إلى المناوشة والصيال، حتى إذا ارتفعت دقات الطبل إلى (الحروبي) التحم البطلان كأنهما جبلان - كما تقول القصص الشعبية - وتقارعا بالسيوف، وتساقيا كؤوس الحتوف. وقبل أن يختلفا بالضربة - التي تشق الخصم من رأسه إلى تكة لباسه - يثب (شيخ) الشباب مناديا: واصيـ... ـيـ...ل، ويحسم المعركة بينهما صلحًا، فما منهما إلاّ بطل همام، وأسد ضرغام. وبما أن العراضة ليلية ترى في الحلبة (فوانيس الكاز) تتراقص على رؤوس الغلمان لاهثة لا تقوى على فض لثام الظلمات. فلما أخذت مصابيح (اللوكس) مكانها صارت تتيه متوهجة فتمزق جلابيب الليل البهيم»(٢). وينطلق صوت الحادي - المرحّل - جهوريًا حماسيًا رخيمًا، ويردد الركب من بعده:

محمد زين، ذكره زين

محمد يا كحيل العين

محمد خاطبو ربه

وكانت ليلة الإثنين

وانشق القمر نصفين

من هيبة رسول الله

ومن هذه المرددة تعرف أن حفلات الأعراس تقام عادة يوم الخميس (ليلة الجمعة) أو يوم الأحد (ليلة الإثنين)، وفيها إشارة إلى حادثة انشقاق القمر التي تروى ضمن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وعندما يصل الموكب إلى مكان (الزفّة) في بيت العريس يردد الركب هذه:

طلع البدر علينا

من ثنيات الوداع

صلى الله على محمد

صلى الله عليه وسلم

وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع
صلى الله على محمد
صلى الله عليه وسلم
أيها المبعوث فينا
جئت بالأمر المطاع
صلى الله على محمد
صلى الله عليه وسلم
جئت شرفت المدينة
مرحبًا يا خير داع
صلى الله على محمد
صلى الله عليه وسلم

وعندما تردد هذه الأهزوجة في احتفال زواج فإنها تضفي - بلا شك - مشاعر دينية جليلة، ويخلع على الزواج ما يتسم به من روابط مقدسة مصداقًا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم «.. واستحللتم فروجهن بأمانة الله». وعندما يدخل العريس إلى بيته ليُزَف لعروسه، لا يتوقف الموكب عن ترديد المرددات والأهازيج، وهنا يجتمع لفيف من المحتفين على شكل حلقة واضعين أيديهم على أكتاف بعض، ويرددون:

اللّه سوا.. جوز جوز.. وجي
صلوا على محمد..
زين زين.. مكحول العين
واللي يعادينا.. الله عليـه

وهذه الأهزوجة خاصة بأهل مدينة حلب السورية، والمعنى: (اَلّله سوا) أن الله معنا، (جوز..جوز) ومع كل جوزين، (وجي) وها قد جاء العريس للعروس، (صلوا على محمد) فالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم (زين..زين) ذي الصفات الحميدة الجميلة، (واللي يعادينا.. الله عليه) ونوكل الله بكل من يعادينا فيحمينا ويحمي العروسين من الشرور والحسد والنيّات السيّئة. ولأهل مدينة حلب أغرودة مختلفة تتسم بالطرافة والمعنى المبتكر، فهم يقولون في لحن جميل مؤثِّر:

فصَّلْتَ لك ثوب
لا فضَل ولا عوزْ
ومبارك العرس
يارايح تتجوز

فهم يتوجهون بالتبريك للعريس.. فقد خاطوا له ثوب العرس من القماش الخام المتوافر فلم تبق فضلة منه، ولم يحتاجوا إلى قطعة إضافية من الخام ليكملوا الثوب.. وهذه إشارة فنية لطيفة إلى أن هذا الزواج ناجح بإذن الله؛ لأنه مناسب تمامًا، ويحقق جميع المواصفات.. وأن العروس جاءت موافقة لذوق العريس، و(على مقاسه)، وحسب طلبه، وفي مستواه، وبذلك فإن الثوب الذي يلبسه، ثوب الحياة الزوجية، ليس فضفاضًا ولا ضيقًا.. وينتظر المحتفون بصبر نافد خروج العريس من بيته حيث يزف إلى عروسه، ويستمرون في ترديد الأهازيج:

لولا عويناتك هالسود
ما اتعنّينا ولا جينا
ولولا محبة العربان
ما اتعنينا ولا جينا

الآلات الشعبية سيدة الموقف في الاحتفالات

ولولا محبتك (بو محمد)
ما اتعنينا ولا جينا
(وأبو محمد هنا هو والد العريس أو العريس نفسه)

ومن الأهازيج التي يرددها المحتفون في هذا الموقف هذه الأهزوجة التي تتضمن إشادة بصاحب الدعوة (والد العريس):

رحنا لنزور الميـة
لقينا الميـة محمـية
وحاميها (أبو محمد)
بسيوفه هالمضويّة

فصاحب الدعوة رجل ذو قيمة اجتماعية مرموقة، وذو مجد وسؤود، فهو راعي القبيلة وحامي حماها، والماء هو أهم الحمى وأولها، ولابد أن تكون محمية ممتنعة على غيره أن يرتادها، ولصاحب الدعوة حامي الحمي وسيلة حازمة في الحماية وهي سيوفه المضيئة المصقولة القاطعة: أولاده الشجعان البررة (ومنهم العريس) الذين يضيئون ظلمة الليل إذا ادلهمّ بما يعكر صفوه من تعديات ومن صروف الزمان. ونلاحظ كيف تعبر هذه اللوحة عن مشاعر طيبة نحو صاحب البيت ترفع من قدره، وتمنحه الرضا والسرور والاعتزاز بنفسه وبأسرته، وإن كان من المتواضعين في منزلته الاجتماعية بين أفراد عشيرته وأبناء منطقته! وبهذا الشعور وهذا التوجه يرددون بين آونة وأخرى:

(أبو محمد) ويا هي!
وشي ما شا اللّه!

تبدو في أهازيج حفلات الزواج المشاعر الدينية الجليلة المؤكدة قدسية الروابط الزوجية

صلوا على محمد
زيدوا الصلاة يا هي!

ويمكن أن يكون (أبو محمد) والد العريس أو العريس نفسه، أو أحد أعمامه أو أحد أخواله، أو أحد الوجهاء من كبار السن الذين يرافقون الموكب، توجه إليه هذه الأغرودة تحية له وتقربًا وتقديرًا واحتفاء بوجوده.. وهكذا يشعر الجميع بالتكريم والتقدير والألفة والمحبة. وبعد أن يخرج العريس من البيت (الزفّة)، ينضم مجددًا إلى الموكب، ويعودون إلى البيت الذي انطلقوا منه ليكملوا احتفالهم وسمرهم حتى الهزيع الأخير من الليل. وفي طريق العودة تستمر الأناشيد والأهازيج، وقد تأخذ شكلاً آخر يتصف بالملاحة والطرافة، ومن ذلك هذه الأهزوجة:

يا أم عيون اللوزّية
وجراح بخدك زيزة
عالصدر لانصب بَسْتَنَة
والخد له غمّيزة

وهذا نوع من الغزل العفيف والتشبيب البريء بالمرأة، التي جعلها الله سكنًا للرجل وحباها بالجمال والرقة والحنان.. فتلك عيونها كحبة اللوز في اتساعها وشكلها الانسيابي.. والخدود التي يكاد ينفر منها الدم كما ينفر من الجرح لرقتها ولونها الوردي، والتي تترك في النفس جراحًا من الهيام والوجد!.. ذلك الصدر الذي ترفّ به ما يرف البستان من خضرة وورد وبهجة.. و(الغمازة) في الخد ميزة محببة في مقاييس الجمال، وما تفعل العيون حين تغمز في رقة ودلال.. وتتابع الأهزوجة اللطيفة:

بالليل جاني الواوي
واحترت وين بآوي
وانا على قتله ناوي
بسكّينة الحزّيزة

وهذه الصورة تمزج بين المناسبة والبيئة العربية في مضارب الصحاري والبوادي.. فابن آوى (الواوي) قد هاجم صاحبنا فارتاع واحتار أين يأوي؟ (الجناس بين الواوي وآوي) .. هل يأوي إلى ظل خيمته بجوار الحبيبة أم أين؟! وعلى كل حال فإنه ينوي مهاجمة هذا الوحش الذي يعكر صفوه في لحظات الأنس، وهو عازم على إشهار السلاح في وجهه مدافعًا عن حبيبته بالسكين القاطعة!..

والعزّابين يا دلّهم
ما حدا يحمل همهم



المشاركة الجماعية سمة لاحتفالات الأعراس في الدول العربية

روحوا قولوا لأمهم
كل تيس بدو عنيزة

وهذه الصورة الفكاهية تلمح بضرورة زواج العزاب وتشجع عليه، فالأعزب (يا دله: يا حسرة عليه) يبقى في همه وحيداً لا يسأل عنه أحد، ولا يشاركه همومه، ولا يوليه اهتمامه ورعايته أحد.. فسارعوا إلى الزواج أيها الشباب، وادعوا الآباء والأمهات إلى تزويج أولادهم.. فكل شاب (تيس) يريد فتاة (عنيزة) وإن كان يخجل أن يعلن ذلك صراحة لوالديه.. فلينقل الطلب إذن لوالديه في هذه المناسبات الجميلة بأسلوب فكاهي مرح في غاية العفوية والعذوبة والجمال! وعندما يصل الركب إلى بيت الصديق، يتحلق الحاضرون، ويرددون مع المرحّل:

دلّ الأعزب يا دلّه
ما حدا يحمل همه
صابونته بكمه
داير على جيرانه
بقمله وبصيبانه!

وذلك في لوحة أخرى تحمل روح الفكاهة والدعابة، فيها إشفاق على الأعزب، وعلى حياته المملوءة بالفوضى والهموم والمشكلات.. فهو يحمل همّ نظافته، ونظافة ملابسه.. ينتقل من بيت قريب إلى بيت صديق، يبحث عمن يغسل له حاجياته.. حاملاً قطعة الصابون يخفيها في كمه على استحياء، ويحمل ملابسه المتسخة.. وهو أيضاً متسخ يسرح في جسمه القمل والصيبان (يرقات القمل وبيوضه).. إذن فليهرع إلى الزواج حيث سبقه العريس صاحب الحفل ففاز بالسعادة والهناءة والراحة. ومن الفصول الجميلة التي تعرض في مدينة حمص في أمثال هذا الحفل مشهد يسمى (المصدّر) ولعلها تنفرد بهذا اللون دون المناطق الأخرى، وإن كانت المباريات الزجلية المشابهة لها - إلى حد ما - معروفة ومشهورة في بلاد الشام.. «فينصب في فناء الدار، وفي صدره منصة - شبه مسرح صغير - للمنشدين الذين يجلسون جثّياً على الركب في صفين متواجهين، ويبدأ أحد الصفين بالإنشاد هوناً، ويجيبه الثاني بمثله مضيفاً أو معارضاً ومفنداً، ويستمر تبادل الصفين الإنشاد، وتتدرج النغمات شدة وارتفاعاً يرافقها تصفيق

إيقاعي، ويتطاول المنشدون في مجالسهم، ويتمايلون، والناقر على الكوبة (الدربكة) يساير نغماتهم وحركاتهم، أو لعله يقودها، فتراه يلين، ويتمهل حتى لتقول: هوّم ونام، ويشتد ويسرع حتى لتحسبه: صفق وطار! والناس نشاوى من طرب، تتلاصق أكتافهم إذ يميل بعضهم على بعض، وتتوافق أكفهم إذ تجاري نقرات (الدربكة)، وتصفيق المنشدين»(٣). ومن أحد فصول (المصدَّر) هذه المناظرة الغنائية بين الفريقين حول البيضاوات والسمراوات، كل فريق يؤيد وينحاز إلى فئة منهن(٤)، فيبدأ الفريق الأول بالافتتاحية:

واسمعوا قولي المعنّى
عالسمر والبيض غنّى
واسمعوا قولي وقولوا
واسم الله حولي وحولو

ويعرف من هذه المقدمة أن القول ملحن ومغنّى، وأنه مُغنّى يثير الاهتمام، ويشغل النفس، وأنه يدور حول السمراوات والبيضاوات، وأنها مناظرة بين رأيين.. وأنه لا يوجد خلاف ولا تعصب في الرأي وعليك أن تسمع الرأيين ولك الاقتناع والتأييد لأيٍّ منهما، فلا يوجد عداوة من جراء ذلك (واسم الله يحيط الفريقين وأصحاب الرأيين معًا) ثم يبدأ الفريق الثاني بعرض رأيه أن السمراء أفضل من البيضاء، وتمتاز عليها، ويقدم الدليل الساطع، والبرهان القاطع على صحة ما ذهب إليه!

والسمرا كبّة بصينية
يتهادوها الأفندية
والبيضا شرقة لبنّية
عالمزابل كبّوا عنّا

فالسمراء طيبة ولذيذة كما هي أكلة (الكبة بالصينية) الفاخرة التي تقدم في الولائم والحفلات، وتتهاداها البيوتات الراقية.. أما البيضاء فلا تعدو أن تكون سؤرًا (شرقة) من أكلة اللبنية المطبوخة من الرز واللبن الزبادي دون أي دسم أو مطيبات!! وهنا يثور الفريق الآخر، ويرغي ويزبد، ويرد بالأسلوب الفكاهي نفسه:

والبيضا رز بحليب
كل ما برد أكله يطيب
والسمرا قرمة زبيب
عالمزابل كبّوا عنّا

ثم تتوالى المرافعات الزجلية الغنائية بين الفريقين إلى أن تنتهي بتعادل الفريقين.

وهكذا نرى أن المرددات والأهازيج الشعبية لها دور مهم وجميل في بث روح التآلف بين أفراد المجتمع، وفي تزكية المعاني الطيّبة، وفي إضفاء جو من المرح والصفاء والسرور على قلوب السمّار والمحتفين.. خالية من التكلف والأقنعة والمظاهر البراقة! ولكن هذه المظاهر وهذه الطريقة في الاحتفالات وما يرافقها من ترديد الأهازيج والأناشيد العفوية المرتجلة، والتي تنطلق على ألسنة الحاضرين دون تخطيط أو تدبير مسبقين في أغلب الأحيان.. هذه المظاهر قد زالت أو في طريقها إلى الزوال، وحل محلها الحفلات الموسيقية الراقصة (في بعض المجتمعات)، وأصبحت الاحتفالات ذات طابع رسمي تسودها المجاملة والتكلف دون مشاركة أو تفاعل وانسجام.. مقلدين الشعوب والمجتمعات الأخرى الغريبة عن عاداتنا وتقاليدنا، «وغفل الناس عن أن الشعوب التي نستمد منها (التقدمية) ما تزال بالغة الحرص على تراثها الشعبي (الفولكلور)، ولو أنّا رزقنا العبقرية التي تتناول تراثنا الشعبي بالتطوير والتهذيب والصقل، لصانت وجوهنا عن موقف (الشحاذين) أمام (الكرنفالات)، ولأغنتنا عن كثير من الفنون التي بتنا نستوردها من الخارج»(٥).

الهوامش

١- يقول الكاتب والمفكر الكبير عباس محمود العقاد: «المرددات الشعبية هي الكلمة التي نختارها لترجمة كلمة (فولكلور) التي شاعت في لغات أوروبا خلال هذا القرن الأخير، ونحن نفضل ترجمة الكلمة على نقلها بلفظها كما يفعل بعض الكتّاب؛ لأن الفولكلور بطبيعته شيء يتصل بملامح الأمة وخصائصها، ويدل على الخلائق والعادات التي تميزها من غيرها، فلا يصح أن نطلق عليه كلمة مستعارة من لغة أجنبية، ولا معنى لهذه الاستعارة مع إمكان الترجمة وإمكان الاستغناء بها عن النقل والتعريب، وكلاهما ممكن يساعد عليه صقل الكلمة مع طول الاستعمال وطول التفاهم على مدلولها». مجلة العربي - العدد الأول/ ديسمبر ١٩٥٨م - عن مجلة الشهر - فهل يفهم من ذلك أن العقاد يحصر الفولكلور (التراث الشعبي) بالمرددات التي تتناقلها الأجيال من غناء وقصص وأشعار، في حين أن القواميس الإنجليزية تشرح كلمة فولكلور (foolklore): على أنها المعتقدات والتقاليد والقصص الشعبية. والدكتور حسام الخطيب يطلق المرددات الشعبية على الزغاريد والأهازيج التي يطلقها الجمهور في المناسبات المختلفة، والتي تتنقل من جيل إلى جيل، فيقول في بحثه: «حمص على جناح الذكرى» في العدد (١٩٥ تموز - يوليو ١٩٨٧م) من مجلة الموقف الأدبي - دمشق: «ومن أطرف المرددات الشعبية التي يوردها المؤلف على لسان الأولاد ما يتعلق بسرقة الصيام.. وهناك نداء المسحر»، وهذا المعنى هو ما اعتمدناه في هذه المقالة. والأهازيج: مفردها: أهزوجة، من هزج يهزج هزجًا: تغنّى، ويقال هزج القارئ في قراءته: طرّب، فهو هزج، وهي هزجة. وأهزج الشاعر: نظم على بحر الهزج، والهزج نوع من بحور الشعر العربي سمي بذلك لتقارب أجزائه (ج) أهزاج.

٢- من كتاب «على جناح الذكرى»، رضا صافي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ج٢، ص١١٣.

٣- المصدر السابق ص١٣١.

٤- كلمات هذه المناظرة الغنائية مشهورة أيضًا في مدينة حلب السورية.

٥- المصدر السابق ص ٢٤٧.

فنون أوربا الغربية في متحف الأرميتاج في سان بطرسبرغ

إليان شكور

متحف الأرميتاج في سان بطرسبرغ هو أحد أهم المتاحف في العالم؛ إذ يحوي مجموعات عديدة من أشكال الفن الأوربي الغربي: اللوحات، والمنحوتات، والمطبوعات، والفن التشكيلي، وهي تمثل أكثر من ٢٢٥ سنة من العمل، وتقدم فكرة عن تطور الفن في أوربا الغربية. والمهم منها بشكل خاص هو مجموعة فن القرن الثالث عشر إلى القرن العشرين، وتضم حوالي ٨٠٠٠ لوحة تعود للمدارس الهولندية والألمانية والفلمنكية والإيطالية والأسبانية والفرنسية، وممثلة بعدة أعمال مميزة تعود لأساتذة عظماء مثل رامبرانت، وروبنز، ورفاييل، ودافنشي غريغو، وغويا، وموريللو، وبوسين، ودافيد، وواتو ديلاكروا، ومونييه، ورينوار، وماتيس، وفان غوغ، وغوغان، وبيكاسو، وتمثل كلها عبقرية الفن الإنساني. ومجموعة الصورالتي تشكل الجزء الأساسي والأقدم من متحف الأرميتاج، الذي أسس عام ١٧٦٣م، تشتمل على ٢٢٥ لوحة رسمها رواد الرسم من أوربا الغربية، وبعد القرنين التاليين ازدادت مجموعة الرسوم حتى تجاوزت ٨٠٠٠ لوحة. إن كل الفروع والمدارس التي كانت غير معروفة في أوربا الغربية منذ بداية الرسم حتى منتصف القرن العشرين والموجودة في هذه المجموعة، واللوحات الرائعة المتنوعة المعروضة أو غير المعروضة هي التي جلبت شهرة المتحف العالمية، وفي كل عام يكتشف أكثر من ثلاثة ملايين زائر من كل أنحاء الاتحاد السوفييتي السابق ومن أقطار أجنبية بأنفسهم إبداعات العبقرية الفنية لأبناء أوربا الغربية.




منظر عام للأرميتاج

مراحل وصول اللوحات إلى المتحف

المرحلة الأولى: صفقات في هولندا وبلجيكا

النوع الأول من رسوم أوربا الغربية بدأ بالوصول إلى شوطئ Neva بعد وقت قصير من تأسيس العاصمة الروسية الجديدة التي أسسها بطرس الأول، وأول صفقات اللوحات جرت في هولندا وبلجيكا، ففي عام ١٧٦٦م مثلاً تم شراء ١٢١ صورة لبطرس الأول في هولندا، واشتراها أوسيب سولوفيوف، و١١٧ طُلبت في الوقت نفسه في بروسيلز وأنتويرب، وطلبها عميل تجاري اسمه يوري كولوغريفوف، وبعد ذلك بوقت قصير زيدت المجموعة ١١٩ لوحة إضافية أرسلها إلى بطرس الأول / تاجران إنجليزيان هما إيفان وإيلسن.

المرحلة الثانية: رامبرانت يصل إلى روسيا

الجزء الأول من القرن الثامن عشر شهد تأسيس معرض الصور في سانت بيترسبورغ وبيتروف، ومعرض آخر في قصر مونبليزيه الذي يعدّ نسخة من الأرميتاج، وعلى الرغم من أن المستوى الفني لهذه المعارض لم يكن بالمستوى المطلوب، فإن بعض المعروضات كانت ممتازة، وأضيفت فيما بعد إلى الأرميتاج إحدى هذه اللوحات، وهي لوحة رمبرانت «دافيد وجوناتان»، وقد عرضت أساساً في مونبليزيه عام ١٨٨٢م، ثم انتقلت إلى الأرميتاج، وهذه كانت الأولى لرامبرانت التي تصل إلى روسيا.

المرحلة الثالثة: مجموعة غوتسوفسكي النواة للأرميتاج

في منتصف القرن الثامن عشر وجدت أهم مجموعة من رسوم أوربا الغربية في معرض الصور في تزارسكوي سيلو «الآن يعرف باسم بوشكين»، إذ ضم المعرض أكثر من مئة لوحة يعود معظمها إلى رواد ألمان وهولنديين وفلمنكيين، مع قليل من أعمال الفرنسيين والإيطاليين، وأضيفت إليها رسوم لجورج غروث وهو رسام

جورج مورلاند ـ إنجلترا ١٧٦٣ ـ ١٨٠٤م، عاصفة قادمة، زيت على القماش، ٨٥× ١١٧ سم

ألماني، بطلب من الإمبراطورة الروسية إليزافيتا بيتروفنا، وبين هذه اللوحات كانت هناك قطع قيمة جداً مثل Danae لجاك بلانشار، ومجموعة عائلية، وهو عمل مهم لدانييل شولتز «نقل إلى الأرميتاج عام ١٩٣٧م». والعديد من المجموعات الأوربية الغربية جاء إلى سانت بيترسبورغ في أثناء حكم كاترين الثانية، ومرت روسيا حينذاك بمرحلتين من الجمع الفني لتشق الطريق لافتتاح الأرميتاج الذي ضم لوحات عديدة من الطراز الأول رسمها رامبرانت، وروبنز، على أن مجموعة غوتسوفسكي التي كونت النواة الأصلية للأرميتاج، لم تكن متخلفة في المستوى الفني عن لوحات بطرس الأول وإليزافيتا. وفي عام ١٧٦٩م أضيفت مجموعات هولندية وفلمنكية لرامبرانت تضم لوحته «صورة رجل عجوز بالأحمر»، وجاكوب جاك إسحق، ولروبنز مشهد طبيعي مع قوس قزح وبطل من أبطال الميثولوجيا الإغريقية «برسيسوس وأندروميدا»، ومجموعات من



أدريان فان أوستاد ـ هولندا ١٦١٠ ـ ١٦٨٥ موسيقيو القرية،
زيت على الخشب، ٣٩ × ٥ر٣٠سم



أنطون رفاييل مينغنز ـ ألمانيا ١٧٢٨ ـ ١٧٧٩م، صورة شخصية، زيت على الخشب ١٠٢ × ٧٧ سم

مشاهد الصيد لبول دوفوس، وعدة تحف لجيرار تير بورش، وفرانزجانز، وفان ميريس، وأدريان فان أوستاد، وفيليب وفرمان. وكان هناك القليل من الأعمال الفرنسية والإيطالية في مجموعة برول، التي يعود إليها الفضل لأن الأرميتاج يدين لأنطوان واتو بأعمال مهمة مثل «العرض المحرج»، «واستراحة في الرحلة إلى مصر»، وكذلك هناك مجموعات رائعة من مشاهد دريسدن وبيرنا قام بنسخها برناردو بيلدوتو بشكل خاص لبرول، والجزء المهم من مجموعته: لوحات ذات قياس صغير رسمها جيوفاني باتيستا، وهذه الصورة رسمت أيضًا خصوصًا لبرول.

المرحلة الرابعة: المسؤولون ودورهم في تطوير المتحف

في النصف الثاني من القرن الثامن عشر عُرضت في المزاد العلني مجموعات خاصة في باريس، زودت الأرميتاج بتحف عالمية، مثل: لوحة رامبرانت «عودة الابن الضال»، وهي أعظم ما أبدعته العبقرية البشرية، فالتعبير القوي لهذا العمل يعكس الحب المتسامح للناس، والثقة في مستقبلهم الأسعد. وفي عام ١٧٦٨م طُلبت مجموعة صغيرة في بروسلز من الكونت جوهان ـ كارل ـ فيليب كوبنزل. ومن بين أفضل الرسوم كان هناك إحسان روماني لسيمون وبرو، وفينوس، وأدونيس، وتمثال لسيريس، وفي عام ١٧٧٢م، كانت هناك ١٥٨ لوحة تخص البارون بيير كروزات، الذي قدم أوّل مرة أعمال رواد النهضة الإيطالية: لوحة رافاييل «العائلة المقدسة» التي تعرف أيضًا باسم مادونا، والطفل مع القديس جوزيف، ولوحة باولوفيرونيس بيتا، حيث تتضارب



كميل بيساور . فرنسا ١٨٣٠ ـ ١٩٠٣م
مكان المسرح الفرنسي في باريس ١٨٩٨م، زيت على القماش ٥ر٦٥ × ٥ر ٨١ سم

ألوان الأخضر والزهر لتعرض الحزن اليائس، ولوحة تينتوريتو «ولادة يوحنا المعمدان». إن أعمالاً عظيمة كهذه من القرنين السابع عشر والثامن عشر لفنانين فرنسيين، مثل لويس دونان، وسيباستيان بوردون، ونيكولاس بوسان، ونيكولاس دولارجيليه، وأنطوان واتو، وجان بابتيست، وسيميون شاردان، وضعت حجر الأساس للرسم الفرنسي، وكان المتحف الهولندي الفلمنكي في الأهمية نفسها من خلال مجموعة كروزات التي كانت مع عدد من اللوحات قد جذبت انتباه الخبراء، مثل لوحة رامبرانت داناي، وروبنز باخوس، «صورة سيدة في حالة انتظار للطفلة إيزابيلا»، ومجموعة استكشاف لحياة ماريا دي ميديسي، وأيضاً لوحة فان ديك «صورة شخصية».

ومتحف سير روبير والبول في لندن عام١٧٧٩م لا يقل أهمية عن سابقيه، وقد أضاف إلى القسم الفلمنكي أعمالاً إضافية لروبنز «سائق العربة»، و«وليمة في بيت سايمون»، و«إسكتشات من أقواس النصر»، والعديد من الأعمال لفان ديك، مثل «استراحة في الرحلة إلى مصر»، ومجموعة لفرانز سنايدرز «حوانيت»، وصور لجاكوب جوردين، ودافيد تينيزر الأصغر، وفرانسيسكو الباني، وكارلو ماراتي، وفرانسيسكو دي روز أولوكا، وجيوردانو، كلها أغنت المتحف في جزء الفن الإيطالي، بينما تمثل مجموعة رامبرانت إحدى التحف الأقدم، ومنها: تضحية إسحق؛ وحياة ماريا دوميديسي، وآخر إضافة على قدر من الأهمية إلى الأرميتاج كانت في أثناء القرن الثامن عشر، في عام ١٧٨١م، وهي مجموعة بودوين في باريس التي تشكل ١١ لوحة، تضم لوحات رامبرانت، وفان ديك، وفان أوستاد، وجاكوب إسحق، وفان رويسلايل. الحدث الخطير في تاريخ الأرميتاج في أواخر القرن الثامن عشر هو ضم أعمال لفنانين معاصرين، فكان هناك أنطوان رافاييل مينغنز وأنجيليكيا كوفمان من ألمانيا، وبومبيو باتوني من إيطاليا، وجوزيف رايت من إنجلترا، وجان بابتيست غروز من فرنسا، كلها ترافقت مع أحدث حركات الكلاسيكية والعاطفية، وبغض النظر عن ذلك فإن عدداً من الفنانين المعاصرين الرواد كانوا يقومون بأعمال لروسيا، وكان جوشوا رينولدز مشغولاً بلوحته الرحبة: «ابن الملك هرقل يشنق الأفعى التي أرسلتها هيرا»، ورسم فرنسوا بوشيه اللوحة التزينية «بيغماليون وغالاتيا». إن النوعية العالية التي تفردت بها الرسوم المخصصة للمتحف في ختام القرن الثامن عشر يعود الفضل إلى الرجال المسؤولين عن المتحف وأهمهم بشكل ملحوظ ديمتري غولتيسين، السفير الروسي في فرنسا، وإلى التعاون بين الخبراء الأجانب، مثل ميشوا غريم، ودينيس ديديروت، وفرنسوا ترونشان، وإيتيان - موريس فالكونيه. وصدر ثبت «كاتالوج» مطبوع للصور المعروضة عام ١٧٩٧م ضم ٣٩٩٦ لوحة تمثل العديد من الروائع.



رامبرانت - هولندا ١٦٠٦ - ١٦٦٩م رجل عجوز بالأحمر، زيت على القماش ١٠٨ × ٨٦ سم



فنسنت فان جوخ ـ هولندا ١٨٥٣ ـ ١٨٩٠م الشجيرة
زيت على قماش ٧٢ × ٩٢ سم

المرحلة الخامسة: حجر الزاوية للقسم الإسباني

تتابعت المكتسبات في أثناء القرن التاسع عشر، ولكن بشكل أبطأ، ففي عامي ١٨١٤ و١٨١٥م أحضرت ٧٥ لوحة إلى أمستردام من المصرفي الإنجليزي كوزفلت كانت بينها صورة كونت ديوك أوليفاريه، وهي مثال رائع للفن الواقعي، هذه الخطوة وضعت حجر الزاوية في قسم المتحف الخاص بالرسم الإسباني في روسيا، وأحضرت لوحات من بيز دولاكادينا عام ١٨٣٤م، السفير الإسباني في روسيا. وبعد نهاية الحرب الوطنية في عام ١٨١٢م طلب إليكساندر الأول ١١٨ لوحة من قصر ماليزون، وهو قصر الإمبراطورة جوزفين زوجة نابليون الأولى. وتمثل هذه المجموعة أعمالاً عديدة من المدرسة الهولندية

مثل: «رامبرانت: «نزول عن الصليب»، وباولوس بوتر: «حقل»، وتير بورش: «كأس ليمونادة»، والمدرسة الفلمنكية تتمثل في أعمال: روبن: «نزول عن الصليب»، وتينير: «قرود في المطبخ». والمدرسة الفرنسية: «سلسلة أوقات النهار» لـ كلود غيليه دُعيت لورين.

المرحلة السادسة: لوحات تصدح بالموسيقى

في النصف الأول من القرن التاسع عشر ضم المتحف رسومًا إيطالية من أواخر القرن السادس عشر، مثل لوحة كارافاغيو وأنيبال، وطلبت مجموعة قصر بارباريغو في فينيسيا، ومجموعات مارشال سولت في باريس، ووليم الثاني من نيذر لاند، والمجموعة الأخيرة كانت ذات أهمية خاصة؛ لأنها ضمت أعمال روجرثان دير ويدن، وجان غوسيرت «يعرف أيضاً بـ مابيوس» وجان بروفوست، وأعمال أوائل الرسامين في نيذرلاند، وهذه حتى الآن ليست معروضة في المتحف. انتقل معرض صور الأرميتاج في عام ١٨٥٢م إلى مبنى الأرميتاج الجديد الذي صممه ليوفون كلينز، وفُتح أمام عامة الشعب، وبالإضافة إلى رسوم أوربا الغربية فقد عرض أفضل أعمال المدرسة الروسية التي نُقلت في عام ١٨٩٨م إلى متحف إلكسندر الثالث «المتحف الروسي الآن»، وفي عام ١٨٦٥م طلب المتحف من دوق ليتا في ميلانو لوحة



جورج فليجل - ألمانيا ١٥٦٦ - ١٦٣٨م، طبيعة صامتة مع أزهار وطعام
زيت على قماش ٥٢ × ٤١ سم



سنايدرز ـ فلاندرز ١٥٧٩ ـ ١٦٥٧م طبيعة صامتة مع حيوانات، زيت على القماش ١٣١× ١٨١ سم

ليوناردو دافنشي: «مادونا والطفل»، وهي أول تحفة للرسام العظيم تصل إلى روسيا، وفي عام ١٨٧٠م ابتاع المتحف لوحة رافاييل «مادونا والطفل»، وهي لوحات تكاد تصدح بالموسيقى، وتبدو فيها أجمل مشاهد الطبيعة في الربيع، وفي عام ١٨٨٠م توقفت العروض مع أنه في هذا الوقت تلقى المتحف ٧٣ لوحة من أفضل اللوحات من متحف غوليتسين في موسكو، بينها البشارة لسيما داكولنجليانو، ومنظر مدينة لفرانسيسكو غوردي، ومن ثم تتابعت عروض مهمة في أوائل القرن العشرين ـ عام ١٩١٠م مع مجموعة بيوتر سيميونوف ـ تان ـ شانسكي، وفي عام ١٩١٤م بلوحة ليوناردو دافنشي «مادونا مع زهرة،»، أما في عام ١٩١١م فقد دخلت المتحف أعمال نادرة من إيطاليا تعود إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ولفت الأنظار لوحة سيمون مارتيني «مادونا صاحبة البشارة»، وكذلك لوحات رسمها فرابياتو إنجيليكو من مجموعة غريغوري سترو غانوف الرومانية، ولوحة فيلينو ليبي «عبادة الطفل يسوع» من مجموعة بول سترو غانوف في سانت بيترسبورغ. امتلك الأرميتاج عام ١٩١٥ و١٩١٦ ميراث ف.ب. زوروف، وأ.ك خيتروف، ومجموعة الباحث والرحالة الروسي سيميولوف ـ تين ـ شانسكي التي تزيد على ٧٠٠ لوحة، وهو أحد أغنى الأغنياء في العالم، وأعطى المعرض أكثر من ٤٠٠ عمل من الهولنديين التي لم تعرض عمليًا حتى الآن، وميراث خيتوروف مكن المتحف من تأسيس معرض ممتاز للرسم الإنجليزي في ذروة تطوره: أعمال توماس غينبوروف، وهذي ريبورن، وجون هوبز، وجورج رومني، وجون أوباي، وتوماس لورنس. بعد ثورة

١٩١٧م دخل الأرميتاج مرحلة جديدة من تاريخه، إذ أصدر لينين مرسوماً بتأميم وحفظ الكنوز الفنية مما جعل من الممكن إغناء المتاحف الوطنية بأعمال فنية، ومجموعات النبلاء الروس الشهيرة، مثل: عائلات ستروغانوف، وشيريمثيف، وشوفالوف ويوسوبوف التي تحولت في البداية إلى متاحف عامة، ولكن فيما بعد تحولت، إما كليًا أوجزئيًا، إلى الأرميتاج، وهناك إضافات مهمة تبعت التأميم كالمجموعات الخاصة لكل



يوجين ديلاكروا - فرنسا ١٧٩٨ - ١٨٦٣م عربي يسرج حصانه، زيت على القماش ٥٦ × ٤٧ سم

من أرغـوتينسكي، ودولغـوروكـوف، وفـورونتـوف، وداشكوف، وغورتشاكوف، ومياتليف، ووأوليف، كما أن مـواد المتحف السابق من الآثار المقدسة المسيحية في أكاديمية الفنون، ومجموعة نيكولاي ليخاتشوف ساهمت في إغناء قسم الفن الإيطالي وفي زيادة جماله، أما أعمال أوغولينو لورينزيتي، وسبينللو أرتينيو، وفرافيلينو ليبي، ولورنزو كوستا، وفرانسيسكو فرانسيا، وأساتذة آخرين،



كارافاكيو إيطاليا ١٥٧١ - ١٦١٠م، عازفة العود، زيت على القماش ٩٤ × ١١٩ سم

فقد مكّنت المتحف أن يفتح معرضًا من الطراز الفني في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. أما القسم الإيطالي، وهو يضم فترة ما بين القرن الثالث عشر والثامن عشر، فيحوي الآن أكثر من ١٠٠٠ لوحة، وهو اليوم، بلا منازع، أحد أجمل المجموعات خارج إيطاليا مع أنها لا تمثل جميع المدارس الإيطالية للفن بشكل واسع كتلك التي في القرنين السادس عشر والثامن عشر في فينيسيا.

الفن الواقعي الفرنسي في القرن السابع عشر أصبح ممكنًا مع عمل بيير مونتيليه «أعمال رحمة»، وصورة شخصية لجان داريه، ومعظم اللوحات ساهمت في زيادة مجموعة المتحف من اللوحات الفرنسية من القرن الثامن عشر، وهي أعمال الأساتذة القادة لتلك الفترة لكونهم أصحاب نوعية عالية مميزة، ومن بينها لوحة واتو «فتاة متقلبة»، ولوحة ليموين «عذراء»، ولوحة بوشيه «انتصار فينوس»، ولوحة غروز «طفل مدلل»، ولوحة فراغونار «الرهن الضائع»، ولوحة هيوبر روبير فيلا «مادامـا قرب روما» و«آثار شرفة في حديقة». واستعاد المتحف ملكية أفضل أعمال شاردان في عام ١٩٢٦م، وتعرف باسم «البقاء على قيد الحياة» التي بيعت عام ١٨٥٤م بأمر من نيقولاس الأول. مجموعة الرسم الفرنسية في فترة القرنين الخامس عشر إلى الثامن عشر الآن عددها أكثر من ٦٠٠ لوحة، والقليل من الأعمال ذات الأهمية أضيفت إلى مجموعة نيذر لاند، ومن الأعمال المشهورة في القسم الفلمنكي «المسيح المتوج بإكليل الشوك»، و«سوزانا والأكبر سنًا» وإسكتش النزول عن الصليب لروبنز، وثلاث لوحات لفان ديك، ولوحة جورديان «ملك الفاصوليا» التي تعبر بطريقة رائعة عن جذور الفن الفلمنكي، ويحوي المعرض الفلمنكي الآن ٦٠٠ لوحة تقريبًا، ويمتلك المعرض ٣ لوحات لإبراهام بلومار. وكانت مجموعة الأعمال قد زيدت من خلال



غليسبريكت ليتنس - فلاندرز ١٥٨٦ - ١٦٤٣م، منظر في الشتاء زيت على الخشب ٥ر٧١ × ٨٩ سم

اللوحات من معرض أرغوتينسكي دولغوروكوف لوحة هزيك تيربروغن «حفلة موسيقية»، وهو العمل الوحيد الذي يملكه الأرميتاج، و«طفولة المسيح» التي عُدّت إحدى أفضل اللوحات من قبل جيرار هونتورست، وكان هناك المزيد من الإضافات للمعرض لرسامي معرض هارلم، مثل «مجزرة الأبرياء» لكارل فان ماندر، التي جاءت عام ١٩٢١م من مجموعة الفنان الروسي نيكولاي رويخ، و«الخطأة قبل الطوفان» لكور نيليس كورنيلز، ثم تلقى فان هارلم بعدها بقليل من قصربافلوفسك، إحدى أعمال رامبرانت النادرة: «عبادة ماكي» التي أضيفت إلى المجموعة الرائعة لأعماله في الأرميتاج، أما مجموعة المتحف من الرسوم الهولندية لما يُدعى بـ العصر الذهبي للرسم، فقد أصبحت إحدى أكبر المجموعات في العالم، وتضم أكثر من ١٣٠٠ لوحة، أما

القسم الإسباني فقد حصل على «الصلب» لفرانسيسكو دوزورباران، و«البشارة» لخوسيه كلوديو أنتولينيز، والقسم الإنجليزي حصل على لوحة رايت جيراندولا «قلعة القديس إنجيلو في روما»، ولوحة موزلاند



دييغو دوسيلفا فيلازكي - إسبانيا ١٥٩٩ - ١٦٦٠م، وجبة طعام، زيت على القماش ١٠٧ × ١٠٢ سم

«العاصفة القادمة». إن أعمال الفنانين من الدانمارك والسويد والنرويج وفنلندا التي طلبت من قصور مختلفة وأملاك فردية خاصة، كونت نواة القسم الحديث من الفن الإسكندنافي. أهم نتيجة لجهود المتحف في مجال الجمع بعد عام ١٩١٧م كانت إيجاد قسم للفن المعاصر والحديث تأسس على مجموعة كورشيليف في أكاديمية الفنون التي نقلت إلى الأرميتاج عام ١٩٢٢م وصالة عرض الكونت كيلولاي كوشيليف - بيزبورودكو التي قدمها إلى الأكاديمية، وعرضت بشكل رئيس أعمال الفنانين الفرنسيين والهولنديين والألمان الفاعلين في أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهذه الزيادة أعطت الأرميتاج الأعمال الأولى ليوجين ديلاكروا وهيبولايت ديلاروش من المدرسة الرومانسية، وتيودور روسو، وتشارل فرنسوا دوبجني، وجول دوبريه من مدرسة الباربيزون، والفنانين الذين رافقوها عن قرب مثل نارسييس فيرجيل دياز دولابنيبا، وتشارل أميل جاك، وكونستانت ترويون، وجان بابتيست، وكاميل كوروت، وأخيراً غوستاف كوبير، وجان فرانسوا ميلليه الذي عُدّ قائد الفرع الواقعي والديمقراطي للقرن التاسع عشر، وأعمال من معاصريهم تم تلقيها في الوقت نفسه، وتضم أعمال فرديناند دو بريكبلير، ولويس غاليه، ونيكيس دو كيير، وهزيك ليز من بلجيكا، وجان ويسينبروك، ووليم رولوفز، وبتيروس فان شيندل من هولندا، والإخوة إخينباخ، ولودفينغ كناوس من ألمانيا. وفي عام ١٩٢٩م، ازداد قسم المتحف الخاص بالقرن التاسع عشر بلوحات جمعها رسام المناظر الطبيعية الروسي ألكسي بوغوليوبوف



فرانسيسكو دو زورباران - إسبانيا ١٥٩٨ - ١٦٦٤م، أنوثة، زيت على القماش ٥ر٧٣ × ٥ر٥٣ سم

لقصر إينكوف. وهناك عدد من الرسوم الفرنسية من المدرسة الكلاسيكية على قدر كبير من الأهمية جاءت عام ١٩٢٠م من مجموعات يوسوبوف وناريشكينا، وضمت «سافو فاون» لجاك لويس دافيد، و«مورفيوس وايريس» لبيير نارسيس غويرين، و«براءة تفضل الحب على الشهرة» لبيير بول برودون، وصورة كونت نيكولاي كوريف لدومينيك إنجريس. تتابعت في عامي ١٩٣٠م و١٩٣١م، إعادة توزيع الكنوز الفنية بين متاحف موسكو ولينينغراد، فتلقى الأرميتاج أعمالاً مختلفة من كلود مونيه، وأوغست رينوار، وبول سيزار، وفينسنت فان غوخ، وبول غوغان، وبابلو بيكاسو، وهنري ماتيس، وألبير ماركيت، وفنانين آخرين من أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. كل هذه اللوحات جمعها في وقت سابق موسكو سيرجي شوكين، وإيفان موروزوف، وبدأ شوكين جمع الأعمال الانطباعية وما بعد الانطباعية في عام ١٨٩٠م، وكان لديه اهتمام واضح ببيكاسو وماتيس، وأعمالهما تشكل ثلثي مجموعته، أما مجموعة موروزوف (١٩٠٤م - ١٩١٤م) فعكست الذوق الراقي لمالكها، وفي الوقت الحالي تبلغ مجموعة الأرميتاج من الرسوم الفرنسية من أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أكثر من ٩٨٠ لوحة، تضم ٨ لوحات لمونيه، و٧ لوحات لرينوار، ولوحتين لسيسلي، و٦ لوحات لديغا، وقسم ما بعد الانطباعية يحوي ١٥ لوحة لغوغان، و١١ لوحة لسيزان، و٤ لوحات لفان جوخ، ومن المؤثر أكثر هو عرض الجيل التالي من الفنانين الذي يضم ٣٧ لوحة لماتيس، و٩ لماركيت، و١٤ لوحة لديران، و٩ لوحات لبونار، و٢١ لوحة لدينس، وأكثر من ٣٠ لوحة لبيكاسو. بالمقارنة مع هذه المجموعة، وهي واحدة من أعظم المجموعات في العالم، فإن عرض المتحف لأية لوحات تعود إلى مدارس عالمية أخرى من الرسم في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يجعل من الأخيرة متواضعة جداً. أما المدرسة الألمانية فهي شيء استثنائي، لكونها موضحة أكثر بأعمال وليم ليبل، وفرانز ستاك، وهنريك كامبندونك، وهنريك إيمسن، وأوتوناغل، وهانز غروندي. وآخر قسم من صالة عرض الصور خاص ببلدان أوربا الشرقية، وخلال السنوات الماضية الأخيرة زيدت مجموعة المتحف بهدايا تلقاها من الفنانين أو من أعضاء عائلاتهم، أو من جامعي اللوحات، وبهذه الطريقة استطاع الأرميتاج امتلاك لوحات لجاك بيلانغ: «بكاء ونواح»، ولوحة ماسيمو ستانزيون: «كليوباترا»، ولوحة أدريان فان أوستاد: «مجتمع ريفي»، ولوحة نيكولاس بيرشم: «مشهد رعوي»، ولوحة ريناتو غوتوسو: «حشد روكو وأبنائه وبطاطا على ورقة صفراء»، ولوحة أندريه فوجيرون: «صيادو تشاد»، و«جسد».

مجموعة الأرميتاج لرسوم أوربا الغربية هي واحدة من أفضل المجموعات في العالم، إنها تضم كل المدارس العالمية، وأعمال عدد من الأساتذة المشهورين

إن مجموعة الأرميتاج لرسوم أوربا الغربية هي واحدة من أفضل المجموعات في العالم، إنها تضم كل المدارس العالمية، وأعمال العديد من الأساتذة المشهورين، وعرضها يقدم فرصة ممتازة لدراسة رسم أوربا الغربية من القرن الثالث عشر حتى القرن العشرين، وإسهامات كل مدرسة وعصر في تطور الفن في أنحاء العالم. وزيارة صالة عرض الأرميتاج تتيح للزائر متعة جمالية من الدرجة العالية.

المراجع:

THE HERMITAHR - LENINGRAD WESTERN EUROPEAN PAINTING
AURORA GALLERY PRINTED IN FINLAND 1988.

ثقافة

البريد في الشعر العربي

محمد عصام علوش

البريد: لغة: التواصل والتخاطب والتفاهم والتقارب، يحمل أنَّاتِ المغتربين، وآهاتِ النَّائين المبتعدين عن أهليهم وذويهم وأوطانهم، تحلق طائراته ووسائله الحديثة برسائل العشاق، وبَوْح المحبِّين، ومواعيد المغرمين، وأرصدة المال، وصفقات رجال الأعمال، فتسابق الضَّوْءَ والصَّوْتَ والرِّيح.

أيّ عالمٍ عالَمُ البريد؟! وأيُّ سلطانٍ للبريد؟! يتكلم بكلِّ لغة، ويصل إلى كل قلب ساخراً من الحواجز والحدود التي وضعها الإنسان، فهو حقًا رسول السَّلام. كم ضمَّ بين جنباته من أسرار، وكم احتوت أكداس رسائله على مشاعر وأفكار، وكم انتظر وصوله المنتظرون، وترقب قدومه المترقبون! فإذا ما وردهم وجبت قلوبهم، وخفقت أفئدتهم، وذرفت عيونهم، وانهالت ثغورهم على الرسائل بالقبلات، واطمأنت نفوسهم، وحلَّقت خيالاتهم لتجتمع مع الأهل والأصحاب والأحباب.

هذا البريد كم كان باعثًا لإبداع المبدعين، وشاحذًا لقرائح الشعراء المجيدين، ومجالاً لمطارحات الأدباء المبتكرين مما أغنى اللغة والفكر، وعاد على الآداب الإنسانية بالخير العميم!!

وقد ورد البريد في لغتنا العربية بمعنى المسافة المعلومة المقدرة، وبمعنى الرسول والإرسال. ففي الحديث النبوي الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أبردتم إليَّ بريداً، فاجعلوه حسنَ الوجه حسَنَ الاسم»(١).

وقال الرَّاجز: «رأيتُ للموت بريداً مُبرِداً»، وقال بعض العرب: «الحُمَّى بريد الموت» يريدون أنها رسول الموت تنذر به(٢).

وقد أخبرنا الله عز وجل في القرآن الكريم أنه اصطفى من الملائكة رسلاً، ومن البشر رسلاً، فكانت الملائكة بريد السماء إلى الأرض، وكان الرسل حاملي رسالة التوحيد إلى الناس كافة، وقد سخَّر الله لنبيِّه سليمان الجنَّ والإنس



أحمد شوقي

والطير، فعلَّمه الله منطق الطير.. *وتفقَّد الطير فقالَ مالي لا أرَى الهُدْهُدَ أم كان من الغائبين* لأعَذِّبَنَّهُ عذابًا شديدًا أوْ لأذْبَحَنَّهُ أو ليَأتِيَنِّي بسلطانٍ مُبين* **النمل: ٢٠ ـ ٢١**.. ثم جعل سليمان الهدهد رسوله إلى أولئك القوم الذين كانوا: *يَسْجُدونَ للشمس من دون الله وزَيَّن لهم الشيطان أعمالهم فصدَّهم عن السبيل فهم لا يهتدون.* **النمل: ٢٤**، فحمَّله كتابه بقوله: *اذْهَب بكتابي هذا فألْقِهْ إليهم، ثم تولَّ عَنْهُم فانْظُرْ ماذا يَرْجِعون* قالتْ يا أيُّها الملأُ إني ألقيَ إليَّ كتابٌ كريمٌ* إنه منْ سُلَيْمانَ وإنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم* ألاَّ تَعلُوا عَلَيَّ وأْتوني مُسلمين.* **النمل: ٢٨ ـ ٣١**.

وانتهى مطاف الرسالات السماوية بالبعثة المحمدية حملها جبريل إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عندما كان

يتعبد في غار حراء، فانطلق الرسول الأمين يدعو الناس إلى الإسلام بالوسائل والسبل كافة، فاستخدم الخُطَب التي كانت بمنزلة رسائل شفوية، وبعث للملوك والحكام بالكتب ممهورة بختمه الشريف، فكانت رسائل مكتوبة.

وفي تاريخ الأدب العربي كان الشاعر لسان قبيلته المعبِّر عنها، والمنافح عن أمجادها، والمدافع عن قضاياها، والذائد عنها بشعره ولسانه، وهو سفيرها في المهمات، والناصح في الملمَّات، وحكيمها المجرِّب، الذي تتعدَّد مجالات القول لديه بتعدد الأعباء التي تلقيها القبيلة على عاتقه، فكان بحقٍّ بريد قومه، وكانت قصائده الشعرية رسائلهم إلى العالم من حولهم. هذا لَقيط بن يَعْمَر الأيادي(٣) (ت نحو ٢٥٠ ق.هـ) يحذِّر قومه من غزو كسرى، ويناشدهم أن يُعدُّوا العُدَّة لمحاربته حين يقول:

أَبْلِغْ إياداً وخَلِّلْ في سَراتِهِمُ
أنّي أرى الرَّأيَ إنْ لَمْ أُعصَ قَدْ نَصَعا
مالي أراكُمْ نِياماً في بُلَهْنِيَةٍ
وقَدْ تَرَوْنَ شِهابَ الحَرْبِ قَدْ سَطَعا
صُونوا جِيادَكُمُ وَاجْلُوا سُيوفَكُمُ
وَجَدِّدُوا لِلقِسيِّ النَّبْلَ والشِّرَعا

وهذا طرفة بن العبد(٤) يجعل إحدى قصائده رسالة وداعٍ لأخيه خالد بعد أن حمَّله النعمان الرسالة التي لقي فيها حتفه على يد عامله على البحرين. قال:

ألاَ أيُّها الغادي تَحَمَّلْ رسالةً
إلى خالدٍ منّي وإنْ كانَ نائِيا

إبراهيم ناجي

وصِيَّةَ مَنْ يُهْدي السَّلامَ تحيَّةً
ويُخْبِرُ أهْلَ الوُدِّ أنْ لا تَلاقِيا
خَرَجْنا وَحادِي الموتِ فينا يَقُودُنا
وكانَ لنا النُّعمانُ بالسَّيْفِ هادِيا

وننتقل إلى عالم المحبين، ورسل المشتاقين فنصل إلى الشاعر عمر بن أبي ربيعة المخزومي(٥) الذي يبحث عن رسول إلى (الثُّرَيَّا) يبلغها أن الفراق برَّح بقلبه، وأن البعد أضناه، وأنه لم يعد يطيق الهجر أو يتحمَّله.

مَنْ رسولي إلى الثُّرَيَّا فإنّي
ضِقْتُ ذَرْعاً بِهَجْرِها والكِتابِ

ويختار إحدى جواريه لتكون بريده إلى (زينب) يحمِّلها شكواه وتحياته، ويطلب منها أن تعود إلى وصاله؛ لأنه مازال مقيماً على العهد:

فَبَعَثْتُ جاريتي فقلتُ لها اذْهَبي
واشْكي إليها ما عَلِمْتِ وَسَلِّمي
قُولي يَقُولُ تَحَرَّجي في عاشِقٍ
كَلِفٍ بِكُمْ حتى المماتِ مُتَيَّمِ

والنساء الشواعر كان لهن في بعض الأحيان بريدهنّ من بنات جنسهنّ، ولكن الويل لهنّ إن كان هذا البريد أجمل منهنّ.

هذه إحداهُنّ تبعث بإحدى جواريها لتكون بريدها إلى حبيبها، وإذا بهذا البريد يبطئ عليها، بل لا يعود إليها؛ لأن الجارية المليحة زُفَّتْ إلى العاشق الولهان، وباتت صاحبةُ البريد تندب حظها العاثر الذي جعلها تصير رسولاً بعد أن كانت صاحبة الرسالة، ولم يعد أمامها إلا أن تنشد:

بَعَثْتُ الرَّسولَ فأبْطا قليلا
على الرَّغْمِ منّي فَصَبْراً جَميلا
وكنتُ الخليلَ وكانَ الرَّسولُ
فَصِرْتُ الرَّسولَ وصارَ الخليلا
كَذا مَنْ يُوَجِّهُ في حاجَةٍ
إلى مَنْ يُحِبُّ رسولاً جَميلا

وقد تحدث الشعراء عن (الطَّيْف) الذي يزور في المنام لا يخشى واشياً أو رقيباً، فكان هذا الطَّيْفُ بريداً، ولكن لا يصل إلاَّ في المنام، ولا يأتي إلاَّ في الأحلام.

يقول الشاعر ابن قُسَيْم الحموي(٦):

أهْلاً بطيفِ خيالٍ زارني سَحَراً
فَقُمْتُ واللَّيْلُ قَدْ شابَتْ ذوائِبُهُ
وكِدْتُ لولا وُشاةُ الصُّبْحِ تُزْعِجُهُ
بالبَيْنِ أُصْغي لِما قالَتْ خَوالِبُهُ

وأخذ الشعراء بعد ذلك يفتنُّون في اختيار رسلهم إلى محبوباتهم، ووجدوا في بعض الظواهر الطبيعية ما يمكن أن يقوم بهذه المهمة، فكان أول ما لفت نظرهم (البرق) السَّاري اللامع الذي يبشر بالخير، ويحمل المطر الغزير المدرار، فجعلوا منه بريداً يحمل رسائلهم إلى من يعشقون. هذا ابن زيدون(٧) يناجي البرق، ويطلب منه أن يكون رسول محبة، وواسطة خير عند محبوبته ولاّدة حين يجود على قصرها، ويسقيه من ماء المطر، كما كانت هي تسقيه من كؤوس الهوى والغرام، وليسألها حينذاك عن عهود الحب والوداد، وذكريات أيَّام الوصال. قال:

يا ساريَ البَرقِ غادِ القَصْرَ واسْقِ بِهِ
مَنْ كانَ صِرْفَ الهَوى والوُدِّ يسقينا
واسْألْ هُنالِكَ هل عَنَّى تَذَكُّرُنا
إلْفاً تَذَكُّرُهُ أمْسى يُعَنِّينا

ويلجأ ابن زيدون بعد البرق الساري إلى رسول آخر هو نَسَماتُ الصَّبا النَّدِيَّة، فيحملها التحية ولواعج الشوق والحنين، فيقول:

ويا نسيمَ الصَّبا بَلِّغْ تحيَّتَنا
مَنْ لَوْ على البُعْدِ حَيَّا كان يُحْيينا

ولم يقتصر اللجوء إلى هذه الظواهر الطبيعية على الشعراء المحبين، والعاشقين الغَزِلين، بل تجاوزهم إلى سواهم، فقد وجد كل بعيد ناءٍ عن وطنه في هذه الظواهر رسل خير تستطيع أن تحمل مشاعر الشوق والحنين، ورسائل الوفاء مضمَّخة بعبير الحب، ريَّانة بالشذا العطر. هذا أمير الشعراء أحمد شوقي(٨)، وهو في منفاه في الأندلس، ينهج نهج ابن زيدون، فيخاطب البرق الساري، ويجعله رسوله إلى (وادي النيل) محمِّلاً إيَّاه دموعه ومواساته على ما حلَّ بوطنه من نوائب الدهر وحادثات الأيام، يقول:

يا ساريَ البَرقِ يَرْمي عَنْ جَوانِحنا
بَعْدَ الهُدوءِ ويَهْمي عَنْ مآقينا
باللهِ إنْ جُبْتَ ظلماءَ العُبابِ على
نجائبِ النُّورِ مَحْدُوّاً (بجبرينا)
فَقِفْ على النِّيلِ واهْتِفْ في خَمائِلِه
وانْزِلْ كما نزَلَ الطَّلُّ الرَّياحينا
وآسِ ما باتَ يذوي مِنْ مَنازِلِنا
بالحادثاتِ ويَضْوي مِنْ مَغانينا

ويأتيه الردُّ من وادي النيل حملته إليه أنسام الصَّبا المفعمة بعطر الوطن، وطيوب وروده ورياحينه فيودُّ لو كافأها بروحه، وجزاها بنفسه. يقول:

ويا مُعَطَّرةَ الوادي سَرَتْ سَحَراً
فطابَ كُلُّ طروحٍ من مَرامينا
جَشَّمْتِ شَوْكَ السُّرى حتى أتيْتِ لنا
بالوَرْدِ كُتْباً وبالرَّيَّا رَياحينا
فلَوْ جَزَيْناكِ بالأرْواحِ غاليةً
عن طيبِ مَسْراكِ لم تَنْهَضْ جَوازينا

ونصل إلى الشاعر القروي(٩) الذي يناجي في مهجره القمر الطوَّاف في السَّماء، ويستعطفه كي يحمل رسالته إلى أمِّه التي كانت تسائل البحر عنه عند المغيب، وينصحه أن يُقَبِّل جبينها ليزداد ضَوْؤه إشراقاً وجلالاً، ويناشده أن يوصيها بالصبر إذا طالت أيام الغربة وامتدت سنوات البُعْد. يقول:

وإنْ شِمْتَ أمِّيَ عِنْدَ المغيب
تَوَجَّهُ للبَحْرِ عَنِّي سؤالا
فَقَبِّلْ بنورِكَ ذاكَ الجبينَ
ليزدادَ نورُكَ منه جلالا
وقُلْ أيُّها الأمُّ صَبْراً جميلاً
إذا زَمَنُ البُعْدِ يا أمُّ طالا

حتى الثلج كان على جموده مهيِّجاً للذكريات، وباعثاً لمشاعر الشوق والحنين، وكان يصلح على رأي الشاعر رشيد أيوب(١٠) ليكون رسولاً إلى الأهل والجيران، ينبئهم أن الشاعر مازال يرعى حرمة العهد، ويحفظ المودة، يقول:

يا ثلجُ قَدْ هَيَّجْتَ أشْجاني
ذَكَّرْتَني أهْلي وأوطاني



رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي)

بالله قل عني لإخواني
مازال يرعى حرمة العهد

ولا عجب أن يذكّر الثلج الشاعر بوطنه، فالمغتربون الذين اقتلعوا بعيداً عن تربتهم تلتهب قلوبهم بالشوق والحنين، وتخفق أفئدتهم لكلّ شيء يُذكّرهم ببلادهم، ويكون للبريد عندهم معنى آخر، إذ يتمنى واحدهم لو يستعير جناحي طائر يطير بهما إلى مرابع الأنس والصِّبا، ومراتع الشباب، بل يرجو في غمرة انفعالاته أن ينوب عن البريد في حمل المشاعر والأحاسيس. يقول الشاعر:

وددتُ من الشّوق المبرّح أنني
أعارُ جناحَيْ طائرٍ فأطيرُ
فما لنعيمٍ لَيْسَ فيه بشاشةٌ
وما لسرورٍ ليسَ فيه سُرورُ
وإنَّ امْرأً في بلدةٍ نصفُ قلْبِهِ
ونصفٌ بأخرى غيْرِها لَصَبورُ

ويكون لموزّع البريد عند المغترب أهمية خاصة؛ لأنه يحمل الفرحة للقلوب، والبسمة للشفاه، ينتظره المغتربون خلف النوافذ، وتترقب الأمهات في الوطن وصوله بفارغ الصَّبر، ويتلهف المحبّون لفضّ الخطابات التي تكاد تبوح بأسرارها، وتفشي مواعيد أصحابها، يقول الشاعر شفيق المعلوف(١١):

ساعي البريدِ وما ينفكُّ مُنطلقًا
وكلُّ بابٍ عليْهِ غيْرُ موْصودِ
يَسْعى بأكداسِ أوراقٍ مُغلّفةٍ
تفوحُ منْهُنَّ أطيابُ المواعيدِ
خلفَ النّوافذِ أجْفانٌ مُشوّقةٌ
إليهِ تَخْفقُ منْ وَجْدٍ وتَسْهيدِ
يا ساعيًا بابْتساماتٍ تُوزّعُها
على الشّفاهِ بلا مَنٍّ وترْديدِ

ويواصل الشاعر حديثه عن موزّع البريد، وكيف يعيد للأمهات اللائي نزح عنهنّ أبناؤهن مظاهر الصحة والعافية؟ فتختفي حين تتسلم الأم الرسالة الغضونُ والتجاعيدُ، وتبادر إلى ضم هذه الرسالة بين النحر والجيد، يقول:

كمْ وَجْهِ أمِّ عَجوزٍ إنْ بَرزْتَ لَهُ
لَمْ تُبْقِ مِنْ أثرٍ فيهِ لِتَجْعيدِ
تُلقي إليها كتابًا إنْ يُصِبْ يَدَها
شدّتْهُ باليدِ بيْنَ النّحْرِ والجيدِ

وإذا تأخر البريد قلق الناس لتأخره، وإذا انقطع سألوا: أماتت العواطف في القلوب، وجفّت الانفعالاتُ في الجوانح،


شفيق المعلوف

وذوت المشاعرُ في النفوس، وذبُلت الأشواقُ في الضلوع، وجفّت الأقلام، وطويت الصحف؟ هذا الشاعر أحمد الصافي النجفي(١٢) يتساءل:

قد انقطعَ البريدُ فلا جديدٌ
ولا كُتبٌ ولا نَبأٌ مُفيدُ
فهل ماتَ الهوى أو ماتَ حُبّي
أو القرطاسُ أو ماتَ البريدُ

ولكنَّ البريد لن يموت، وسوف يبقى حيًا يقدّم خدماته للمحتاجين على اختلاف أصنافهم، وأجناسهم، وسوف يبقى البريد حيًا مادامت القلوب تخفق بالحب، والعروق تنبض بالمودة، ومشاعر المغتربين تلتهب بجراح الغربة النّازفة، وعندئذ سيكون مداد الرسائل من بوْح الأفئدة، وسطورُها من نَبْض الصدور، وحروفُها من مشاعر الشوق والحنين يقول الشاعر جورج صوايا(١٣) في قصيدته على جناح الأثير:

مع المدادِ فؤادي
يسيلُ ضِمْنَ السُّطور
جُسّوا السُّطورَ تُحِسّوا
نَبْضًا كَنَبْضِ الصُّدور
يَنْسابُ فيها ولاني انْ
سيابُ ماءِ الغدير

وسوف يبقى المحبّون يفتنّون في اختيار أوراق الرسائل المعبِّرة، وزخرفتها بالزخارف الجميلة، وتلوينها بالألوان البديعة، ووشْيها بالرموز الموحية، وتطريزها بالرسوم الخلابة، ولا عجب أن تصل بعد ذلك مضمخةً بالعطور، تضوع بأحلى أنواع الطيوب. قال الشاعر:

وَصلَ الكتابُ فما فضَضْتُ ختامَهُ
حتى تأرَّجَ طيبُهُ وتَضَوَّعا
كالرَّوْضِ إلاّ أنَّ وَشْيَ سُطورِهِ
أسْنى نَدىً عِنْدي وأحْسَنُ مَوْقِعا

وأما خطوط الرسائل فهي بدورها مجال للافتنان والإبداع، وطرائق الكتابة تتنوع وتتعدَّد لتعبِّر عمًّا في القلوب، وتلقى القبول عند مَنْ يتسلَّمُها، ويصبح الخط جزءًا من شخصية صاحبه، بل نائبًا عن صاحبه في رسالته، وما تكاد تصل الرسالة حتى يبادر مَن تلقاها إلى تقبيل حروفها حَرْفًا حَرْفًا، وقد يقبِّلُها ألفًا وألفًا مثلما فعل الشاعر إبراهيم ناجي(١٤) الذي يقول:

قَبَّلْتُ خَطَّكِ ألْفا
ولَمْ أدَعْ مِنْهُ حَرْفا
قدْ كُنْتِ تَوْأمَ قَلْبي
وكُنْتِ في الغَيْبِ إلْفا

ولم يترك الشعراء شيئًا يتعلق بالبريد إلا تحدَّثوا عنه، وبالرسائل إلا وصفوه حتى طابع البريد كان له في شعرهم نصيب، وكان مجالاً لإبداع بعض الشعراء الذين عدُّوه رمز الوفاء والأمانة والإخلاص، ورأوا فيه شيئًا يستحق التحية والشكر والامتنان قال الشاعر أحمد شوقي في الذكرى الخامسة والعشرين لإصدار طابع بريد:

أنا مِنْ خمسةٍ وعشرين عاما
لم أرِحْ في رِضاكُمُ الأقْداما
أركَبُ البَحْرَ تارةً وأجوبُ الـ...
بَرَّ طَوْرًا وأقْطعُ الأيَّاما
ويُوافي الرَّسولَ مني رَسولٌ
لم يَكُنْ خائِنًا ولا نَمَّاما
وجَزائي عن خِدْمتي ووَفائي
ثَمَنٌ لا يُكَلِّفُ الأقْواما

والقيمة الحقيقية لطابع البريد لم تعد في ثمنه الذي لا يكلف الأقوام أكثر من دراهم معدودة، بل هي في أنه أصبح رمزًا للخدمات البريدية، ورمزًا للوفاء والأمانة والإخلاص، والتعارف بين شعوب العالم؛ حتى إن جمع الطوابع التذكارية أضحى هواية ومَيْلاً عند أصحاب الهوايات والميول. وإذا كان الشعراء في الماضي يتشوَّقون إلى البرق الخاطف لنقل مشاعرهم وخفقات قلوبهم فإن البريد في العصر الحاضر حقق لهم ما كانوا يتشوَّقون إليه، فصارت الرسائل والأرصدة والحوالات تنتقل بأسرع من البرق الخاطف فيما أصبح يعرف بالرسالة الهاتفية وغيرها، وأضحى العالم بحق شبكة بريدية، بل قرية بريدية واحدة.

الهوامش والمراجع:

١- لسان العرب مادة (برد).
٢- لسان العرب مادة (بَرد).
٣- لقيط بن يعمر بن خارجة الإيادي شاعر جاهلي توفي نحو (٢٥٠) ق.هـ من أهل الحيرة كان يحسن الفارسية، واتصل بكسرى فكان من كتابه والمطلعين على أسرار دولته.
٤- طرفة بن العبد (نحو ٨٦ - ٦٠ ق هـ) شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، ولد في بادية البحرين، وتنقل في بقاع نجد، واتصل بالملك النعمان، فجعله من ندمائه، ثم أرسله بكتاب إلى عامله على البحرين يأمره فيه بقتله، فقتل وهو ابن ستة وعشرين عامًا .
٥- عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي (٢٣ - ٩٣هـ) أرق شعراء عصره، ولد في الليلة التي استشهد بها عمر بن الخطاب، عرف بالغزل والمجون ووصف المحاسن.
٦- ابن قُسيم الحموي هو شرف الدين أبو المجد مسلم بن الخضر بن مسلم ولد في أوائل القرن السادس الهجري بحماة، وتوفي عام ٥٤٢هـ، وهو أحد شعراء العصر المشهورين.
٧- ابن زيدون أحمد بن عبدالله (٣٩٤ - ٤٦٣هـ) شاعر أندلسي من أهل قرطبة جمع بين الوزارة والكتابة، وانقطع إلى ابن جهور، ثم اتصل بالمعتضد صاحب إشبيلية. اشتهر بحب ولادة بنت الخليفة المستكفي.
٨- أحمد شوقي (١٢٨٥ - ١٣٥١هـ) أمير الشعراء في العصر الحديث تربّى في قصر الخديوي إسماعيل، وحصل على شهادة الحقوق من فرنسا، واطلع على الأدب الفرنسي، نفي إلى إسبانيا، وعاد إلى مصر في أواخر عام ١٩١٩م.
٩- الشاعر القروي رشيد سليم الخوري شاعر لبناني من أشهر شعراء المهجر.
١٠- رشيد أيوب (١٢٨٨ - ١٣٩٠هـ) من شعراء المهجر كان يلقب بالشاعر الشاكي لكثرة ما نظمه في شكوى الدهر.
١١- شفيق المعلوف من شعراء المهجر المعروفين لبناني الأصل، وأخواه فوزي ورياض شاعران.
١٢- أحمد الصافي النجفي من شعراء العصر الحديث أمضى حياته فقيرًا، وتوفي في دمشق.
١٣- جورج صوايا (١٨٨٢ - ١٩٥٩م) طبيب لبناني من شعراء المهجر.
١٤- إبراهيم ناجي (١٨٩٨ - ١٩٥٣م) طبيب مصري شاعر من أهل القاهرة اشتهر بالغزل.

هل العربية ليست عربية؟!

حسين بافقيه

يتملكني العجب والدَّهش وأنا أطالع الكتب في فقه اللغة، أو كتب المعرَّب والدخيل، من أنَّ الكثير من الكلمات التي يعلو ملامحها رمل الصحراء من شدَّة عروبتها وبداوتها، تغدو - وبجرَّة قلم - يونانية أو سريانية أو عبرية أو قبطية! ولا يتعلق دَهَشي هذا وعجبي ذلك بعصبيةٍ (شوفينية) لغوية يمارسها العرب، وهم يتعصبون للغتهم، أو محاولة منّي نفي عوامل التأثير والتأثر بين اللغات، فهذا ما لا يسع أي مدركٍ لحقيقة نموّ اللغات وتطورها إنكاره.

كما أنني لا أقف من تلك الكلمات التي لا يشكّ عاقل - كذلك - في كونها دخيلةً على عربيتنا التي تسارع في صهر ذلك الأجنبي الدخيل في معجمها. بل إنها تمعن في تعريبه حينما تلبسه العباءة العربية، وتخلع عنه الطربوش أو القبعة! ولا أعني بذلك الدخيل القديم، بل الدخيل الجديد على لغتنا مثل هذه الكلمات: (ورشة - بنك - سقالة - أبلة) على الرغم من أنني قد قرأت لبعض المؤلفين طرائف تقرب من طُرفة (شكسبير والشيخ زبير)! كأن يحشد أحدهم كلّ مقدرته اللغوية ليجعل من كلة «أبلة» التركية، عربية عرباء، فهي سليلة (قابلة)، ولكنّ أشقاءنا في مصر مصّروها فغدت (آبلة) لا (قابلة) ثم صدّروها إلى الوطن العربي المجيد بعد أن أسبغوا عليها شيئًا من التهذيب اللغوي فغدت (أبلة)، وما عادت تطلق على (القابلة) التي هي - كما في العاميّة الحجازية والشامية - (الدايَة)، ولكن يستخدمها طالبات المدارس والمعاهد لقبًا لـ (المعلّمة)!(١).

تصفية

وأعود إلى دَهَشي الذي لا يقلّ عن دَهَشي من (الشيخ زبير وأبلة) من تلك التصفية التي تمارَس على جسد لغتنا العربية، والتي لا تبقي لنا من عربيتنا إلا أشلاء لن يعدم الدهر - بعد حين - أن يسوق إليها باحثًا في فقه اللغة (فيلولوجيًا) لكي يصادر البقية الباقية من الكلمات التي اطمأننا إلى كونها نشأت في بطحاء مكة، أو عرصات نجد! وإليكم طائفة من مصادر كلماتنا التي لم تكن سوى كلمات (متجنّسة):

- سجد: آراميّة!
- صام: آراميّة!
- صدقة: آراميّة!
- حجّ: عبرية!
- سبّح: عبرية!
- قرأ: سريانية!
- كتب: سريانية!
- أكل: سريانية!
- سافر: سريانية!(٢)
- جنْس: من قولنا هذا مجانس لذاك، ليست عربية فهي مأخوذة من الكلمة اليونانية (جنوس)، كما يقول ف. عبدالرحيم!(٣)، ولا أدري لماذا لم يأخذها - وغيرها - اليونان من العرب في أثناء اتصالهم الحضاري بالعرب الفينيقيين، أو في أثناء اتصالهم بآداب المنطقة العربية وطقوسها في بلاد

الرافدين، وهو ما يجعل من ملامحنا العربية الرافدية القديمة أصلاً للملاحم اليونانية، وهو ما غدا واضحًا بيِّنًا في الدراسات الحديثة والمعاصرة!

حتى تحولت عربيتنا إلى أمشاج من اللغات المختلفة (يونانية وعبرية وسريانية وحبشية..) والبقية تأتي!

قرابة بين العربية وأخواتها

والأمر الغريب أنّ أولئك اللغويين ينسون ذلك الإرث المشترك لمجموعة اللغات العروبية - المسماة خطأ بالسامية جريًا على الاستخدام التوراتي - الذي يجعل العربية أختًا كبرى لتلك اللغات - إن لم تكن أصلاً لها - وهو ما تنبّه إليه عدد من لغويينا القدامى، كوصف السيوطي (ت: ٩١١هـ) للسان السرياني بأنه: «.. كان يشاكل اللسان العربي، إلا أنّه محرَّف..»(٤) والوصف بـ (محرَّف) لا يعدّ وصفًا قيميًا، بقدر ما هو وصفٌ تاريخيٌ لسانيٌ، ومن قبله كان ابن حزم (ت:٤٥٦) قد شعر بتلك القرابة بين العربية وأخواتها، حينما قال: «إن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينًا أن السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر لا لغة حمير، لغة واحدة تبدلت بتبدّل مساكن أهلها فحدث فيها جرش كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نغمة أهل القيروان، ومن القيرواني إذا رام نغمة الأندلسي..»(٥)، وهو ما أقرّه الدرس اللغوي الحديث الذي أثبت تلك الجذور المشتركة في الألفاظ والصيغ والأساليب والبنى الصرفية وأسماء الأعلام، مما يجعلنا نتريّث في إصدار تلك الأحكام التي تجرِّد الكثير من الكلمات العربية من عروبتها بدعوى أنها سريانية أو عبرية أو آرامية، على الرغم من كونها من الإرث اللغوي المشترك بين هذه اللغات. فكلمة (مدينة) التي يرى الأب هنري فليش اليسوعي أنها آرامية الأصل (مدينتو) ومن ثمّ فهي دخيلة على العربية! تعدّ - كغيرها - من الإرث المشترك بين تلك اللغات؛ لأننا - يقول الدكتور محمود فهمي حجازي -: «..في العربية والعبرية نجد كلمة «دين» بمعنى القانون، وفي الآرامية «دينا». كما نجد في العبرية «بيت دين» بمعنى المحكمة، وفي العربية والعبرية «ديّان» بمعنى القاضي، وقد ظهرت كلمة مدينة في الآرامية في منطقة الشام قبل الإسلام بمعنى المنطقة الإدارية، أو الدائرة القضائية مرتبطة بهذا المعنى القضائي الذي ما زلنا نجده في كلمات عربية مثل دائن، أدان، إدانة.. إلخ. وعندما أطلق الرسول - صلى الله عليه وسلم - على يثرب اسم المدينة كان هذا الاستخدام مرتبطًا بظهور الدولة الإسلامية الصغيرة حول الرسول، وهو يحكم في «المدينة»..»(٦).



جرجي زيدان

تطور طبيعي

والذي يبدو أن مسألة الدخيل في العربية، وإرجاع الكثير من الكلمات - لدى اللغويين القدامى والمحدثين - إلى أصول غير عربية، ترجع إلى تطور لغتنا من العربية القديمة - قبل الجاهلية المتأخرة - إلى عربية الجاهلية المتأخرة، التي يمكن وصفها بالعربية (المضريّة) التي خضعت لبُنى صرفية وصوتية تختلف - قليلاً أو كثيراً - عن العربية القديمة التي تحتوي على بنى صرفية وصوتية مغايرة للعربية (المضرية)، ومن أظهرها أسماء الأعلام التي تطلق عليها المدونات النحوية والصرفية بأنها (أعجمية)! قياساً إلى العربية (المضرية)، وما هي بأعجمية إذا نظرنا إلى أصولها العربية القديمة؛ فـ (إبراهيم) مركّبة من (أب + رحيم) أي: أبٌ رحيم! وهو المعنى الذي نجده في القرآن الكريم فيما يتعلّق بـ (أبينا) إبراهيم. *ملّة أبيكم إبراهيم*. **الحج**:٧٨، وكذلك إسماعيل وأبنائه الاثنى عشر!

التصفية التي تمارس على جسد لغتنا العربية تجعلنا نخشى أن يأتي من ينكر عليها كلمات نشأت في بطحاء مكة أو عرصات نجد!!

حيث يشير الدكتور نجيب البهبيتي - رحمه الله - إلى الأصول القديمة للصيغ الصرفية العربية النامية في العربية القديمة التي نجدها في تلك الأسماء، إذ «.. تبدو أسماء أبناء إسماعيل عربية عريقة في عربيتها، واقعة في صيغ صرفية نامية لا تتحقق للغات إلا بعد أن تكون قد مرّت بأطوار ومراحل كونتها هذا التكوين الذي تفارق فيه الصيغة الأخرى بالزيادة أو بالنقص أو بالضبط لتفيد زيادة في درجة المعنى، من هذا القبيل «مبسام ومشماع» من صيغ المبالغة في معنى الفاعل من «بسم وسمع»، ومنه «دومة، وقدمة، ومسا» على وزن «فعلة» في حركات فائها الثلاث. وكلها أفعال عربية: من «دام وقدم ومسا». وبين الأسماء من ذوات الصيغ النادرة «قيدار ونافيش ويطور». وقد مات الفعل من «يطور» وإن كان قد بقي ممثلاً في «الطور والطوران» بمعنى التحويم. وبقي من تلك الصيغ النادرة «نبايوت»، وهي من فصيلة «رحموت وملكوت وكهنوت وجبروت ورهبوت»... و«إسماع إيل» تفيد معنى «استجابة الله» فتكاد تكون نصاً في الدلالة على أن إبراهيم سأل الله أن يرزقه الولد الذي لم يكن له من قبل فسمع الله دعوته»!(٧)

صهينة المنطقة العربية

ويمكن ملاحظة التقارب الصوتي بين العربية (المضرية) والعربيات القديمة (البابلية الأكادية والسريانية والآرامية) من خلال هذه الصيغ والألفاظ التي تشهد بوحدة الإرث العربي الواحد للغات المنطقة العربية، وذلك بربطها بالأصوات العربية العرباء، لا كما يفعل بعض الدارسين من المستشرقين الذين يمعنون في تغريب تلك اللغات - لا تعريبها - حينما يربطونها بالنطق الأجنبي لأصواتها فتبدو تلك المفردات نافرةً من العروبة(٨)، أو محاولة نفور منهم لأسباب دينية وثقافية واستعمارية ربط نطق تلك المفردات

لا يمكن النظر في مسألة الدخيل في اللغة العربية من دون الرجوع إلى مراحل تطورها من العربية القديمة إلى عربية الجاهلية المتأخرة


ناصر الدين الأسد

بأصوات العبرية، رغبة في تأثيل هذه اللغة الميتة، ومحاولة منهم لتزييف الواقع، وصَهْيَنة المنطقة العربية! ومما يؤسف له - أنّ ثقافتنا العربية - قديمها وحديثها - أسهمت في حجب الوقائع الحضرية لعرب ما قبل الإسلام، أو «تجهيل الجاهلية»! - كما يحلو للدكتور ناصر الدين الأسد أن ينعتها(٩) فصرنا أكثر قدرة على رفض الكثير من الصور العمرانية واللغوية والأدبية الممعنة في التاريخ العربي القديم (الجاهلية الأولى)، مبالغة في التديّن والغيرة على الإسلام الحنيف، أو بدعوى الروح العلمية التي يعدّ نسف تراث عرب ما قبل الإسلام من أيسر آلاتها!

ويمكن التدليل على الإرث المشترك بين العربية (المضرية) واللغات العربية القديمة بهذه الأمثلة التي تنتمي إلى لغات المنطقة العربية قبل الإسلام بنحو ثلاثة آلاف عام:

فالمعجم الإبلائي (نسبةً إلى إبلا) يشهد بتلك الصلة بين عربيتنا وعربيتها، مع ملاحظة الاختلاف الذي توجبه المرحلة الزمنية البعيدة الغور في أعماق التاريخ، وما تحدثه من تغيّرات صوتية وصرفية، وبخاصةٍ في حرف الميم الذي يلحق الكلمة الإبلائية، وهو ما يقابل التنوين في العربيّة:

بيتوم (بيت) - ملكوم (ملك) - كوكاباتوم (كوكب) - مخوم (مخ) - ذنابوم (ذنب) - أخوم (أخ) - إخوتوم (إخوة) - حامضوم (حامض) - يمينوم (يمين) - غليم (غلام) ... إلى آخر تلك المفردات والتراكيب والصيغ والأعلام التي تشهد بالإرث العربيّ الواحد للغات العروبية، وهو ما جعل باحثًا مرموقًا كطه باقر - رحمه الله - يشعر حينما قام بترجمة كلكامش إلى

العربية الحديثة - بذلك النسب المشترك بين العربية (البابلية) والعربية (المضرية)، يقول: «.. إلا أنني لا أتحرّج إذا ادّعيت بأنّ هذه الترجمة العربية هي الترجمة الوحيدة بين جميع التراجم العالمية الشهيرة التي تقارب الأصل البابلي بالنظر إلى وشائج القربى الوثيقة بين اللغتين العربية والبابلية، لو أنني ألزمت نفسي بإبقاء معظم الكلمات البابلية الأصلية المشتركة مع قريبتها العربية، ولم أحد عن هذا السبيل إلا في بعض كلمات عربية مضاهية للكلمات البابلية اضطررت لتركها لحوشيتها وبطلان استعمالها في الأساليب العربية المألوفة..»(١١)، ومن ذلك إيثار طه باقر لكلمة (أُسْكُفَّة) في العربية، على كلمة (عَتَبَة) في ترجمة هذا السطر عن البابلية:

واستلم أسكفته الحجرية الموجودة منذ القدم(١٢)

وذلك لأن كلمة أسكفّة العربيّة تطابق الكلمة البابلية! وهو ما قام به - أيضًا - الدكتور سامي سعيد الأحمد في ترجمته (كلكامش) عن الأكّديّة، فكلمة (أسكفة) العربية لا تختلف عنها في البابلية إلا في بعض التغيُرات الصوتية الطفيفة (أسكفة = اسكوباتي) بالباء المثلثة التي تصوّر في العربية فاءً(١٣)، إلا أن يأتي باحث لغوي (فيلولوجي) ويزعم أن كلمة (أسكفّة) ليست عربية عرباء، بل هي أعجمية دخيلة، إما جهلاً بالإرث اللغوي المشترك بين اللغات العربية القديمة(١٤)، أو إمعانًا في تجزئة المنطقة العربية ذات الإرث الثقافي المتجذّر في التاريخ! ومن ذلك: ذلك التقارب في المبنى والمعنى بين جدّ كلكامش (أوتو نبتسم) الذي أعطي الخلود، حينما نقابلها بالعربية المتأخرة (أوتو نبتسم = الذي أوتي النفس)!(١٥) وهذا ليس بغريب على تطوّر اللغة من مرحلة إلى أخرى، في بيئة عربية شاسعة (صحراوية)، وفي ظل الاتصالات - إن لم يكن انعدامها - قبل آلاف السنين من الآن، وهو ما يجعل بعضًا منّا يبتسم حينما يقرأ أو يسمع أنّ حمورابي أو أيوب أو هانيبعل كانوا عربًا، وينسى عوامل نموّ اللغة وحياتها واكتهالها أو موتها، ولذلك أجدني موافقًا لقول جرجي زيدان عن هذه الظاهرة «ونحن في غنًى عن التنبيه على أنّ قولنا: إن الدولة الحمورابية عربية ليس مثل قولنا «دول الإسلام عربية». وإذا صحّت عربية تلك، فلا يستلزم أن تكون لغتها مثل لغة القرآن، ولا أنّ عاداتها وديانتها مثل ما لعرب قريش. فإن بين الدولتين نحو ٢٥ قرنًا، والأمم تتغير عاداتها ولغاتها بتغير الأقاليم، وتوالي العصور»(١٦).

يمعن المستشرقون في تغريب اللغات العروبية بدلاً من تعريبها

الهوامش والمراجع

١- كما فعل عاتق بن غيث البلادي في كتابه «الأدب الشعبي في الحجاز»، دار مكة، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٣٣٦.

٢- ينظر في هذه الكلمات وغيرها: غرائب اللغة العربية، الأب روفائيل نخلة اليسوعي، دار المشرق، بيروت، ط٤، ١٩٨٦م، ولنا أن نتدبّر قول العلامة إبراهيم السامرائي في مثل هذه الظاهرة، وذلك في معرض تعليقه وعجبه من زعم أحد آباء الكنيسة السريانية (مار أفرام أغناطيوس) في كتاب نشره مجمع اللغة العربية في دمشق! ادعى فيه أن الكثير من كلمات العربية قد أخذ من لغة آرامية سريانية. وتعجّب من هذا الذي جعل: قرأ وكتب وزرع وصلى وصام وزكى وحجّ وعشرات غير هذه مما استعارته العربية من السريانية. الدخيل في الفارسية والعربية والتركية، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص٤٣.

٣- القول الأصيل فيما في العربية من الدخيل، مكتبة لينة، دمنهور، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص٧٨، ٧٩.

٤- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط١، ١٩٥٨م، ١/٣٠.

٥- الإحكام لأصول الأحكام ١/٣١، ٣٢ نقلاً عن كتاب: نظرات في اللغة عند ابن حزم الأندلسي، سعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص٢٦.

٦- علم اللغة العربية: مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية، وكالة المطبوعات، الكويت، د.ط، د.ت، ص٢٠٩.

٧- المدخل إلى دراسة التاريخ والأدب العربيين، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص ص ٥٣٥، ٥٣٦.

٨- ينظر في ذلك: المعلقة العربية الأولى عند جذور التاريخ، نجيب البهبيتي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ١/٩، ١٠، ١١.

٩- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار الجيل، بيروت، ط٧، ١٩٨٨م، ص٤٢.

١٠- إمبراطورية إبلا، علي القيّم، الأبجدية للنشر، ط١، ١٩٨٩م، ص١٠١، ١٠٢.

١١- ملحمة كلكامش، د.م، د.ت، د.ط، ص ص٣١، ٣٢.

١٢- السابق، ص٣٨.

١٣- ملحمة كلكامش، دار الجيل، بيروت، دار التربية، بغداد، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٣٥.

١٤- يقول جرجي زيدان: «ويستنتج مما نقرؤه في أسفار العهد القديم أن تلك اللغات كانت كثيرة التشابه في الأزمنة الأولى إلى زمن من خروج الإسرائيليين من مصر وما بعده، فإنّ الإسرائيليين قضوا أربعين سنة في برّية سيناء وجزيرة العرب وكانت لغتهم العبرانية، ولكنهم عاشروا العرب، وخالطوهم، وكانوا يتفاهمون بلا ترجمان، وهناك حوادث كثيرة ذكرتها التوراة تدل على تفاهم العرب والعبرانيين، من جملتها زيارة ملكة سبأ - وهي من ملوك العرب - لسليمان بن داود في القرن العاشر قبل الميلاد.. وتفاهما بغير واسطة المترجمين. وكذلك نزوح إسماعيل وسكناه في بلاد العرب وقيامه بينهم.. وكلها أدلة على أن فروع اللغات السامية كانت إلى ذلك العهد متشابهة كل التشابه إذ لم يكن قد مرّ عليها الزمن الكافي لاستقلال إحداها عن الأخريات. الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية، دار الحداثة، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ص٥٣.

١٥- المعلقة العربية الأولى عند جذور التاريخ، نجيب البهبيتي، ١/١٤٠.

١٦- تاريخ آداب اللغة العربية، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٩٢م، ١/٢٧.

متى ينشأ علم الاستغراب ؟

مازن مطبقاني

إن قيام جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بإنشاء وحدة الاستشراق والتنصير بمركز البحوث التابع لعمادة البحث العلمي في الرياض قبل أكثر من عشرين سنة، ثم إنشاء قسم الاستشراق بكلية الدعوة بالمدينة المنورة، وهو القسم الوحيد في الجامعات العربية والإسلامية، هيأ لهذه البلاد أن تكون رائدة في مجال دراسة الاستشراق، بالإضافة إلى الريادة في مجالات أخرى، وقد فكّرت جامعة الأزهر في إنشاء مركز للدراسات الاستشراقية، وأعلنت ذلك في الصحف، وإن لم يتم شيء من ذلك حتى الآن. وينبغي أن نلاحظ أن الدراسات الاستشراقية ليست مقتصرة على هذا القسم والمركز، ولكن تخصيص مؤسسات وهيئات علمية إسلامية لهذا الغرض أمر مطلوب. وإنني أتطلع إلى اليوم الذي يكون لدينا في العالم الإسلامي عشرات الأقسام التي تهتم بالاستشراق.

وفي هذه المقالة سأتناول الجانب المقابل لعلم الاستشراق وهو الاستغراب الذي يمكن تعريفه باختصار بأنه العلم الذي يهتم بدراسة الغرب (أوروبا وأمريكا) من جميع النواحي العقدية، والتشريعية، والتاريخية، والجغرافية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية..إلخ. وهذا المجال لم يصبح بعد علماً مستقلاً، ولكن من المتوقع في ضوء النهضة العلمية التي تشهدها البلاد العربية والإسلامية أن تقوم مراكز البحث العلمي، ووزارات التعليم العالي في العالم الإسلامي بشحذ الهمم، وتسريع الخطا وإغذاء السير لإنشاء أقسام علمية تدرس الغرب دراسة علمية ميدانية تخصصية في المجالات العقدية والتاريخية والاقتصادية والسياسية.

ولعل سائلاً يسأل لماذا ندرس الغرب؟ وكيف لنا أن ندرس هذا العالم الذي سبقنا بعدة مراحل أو بعدة قرون؟ الأمر ليس صعباً أو مستحيلاً، فإننا إذا رجعنا إلى بداية الدعوة الإسلامية وجدنا أن المسلمين الأوائل حينما

خرجوا لنشر الدعوة الإسلامية في العالم كانوا متسلحين بسلاح العلم بعقائد الأمم الأخرى وعاداتها وتقاليدها. كانوا يعرفون أرض الدعوة سياسياً واقتصادياً وجغرافيًا. ولعلك تسأل من أين حصلوا على هذه المعرفة؟ لقد كان رجال قريش تجاراً، وكانت لهم رحلة الشتاء والصيف. لم يكونوا يحملون معهم التجارة، ويذهبون للبيع والشراء فحسب، بل كانوا على اطلاع على أنظمة الدول الأخرى، وأوضاعها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. أما الناحية العقدية فقد عرفوا منها شيئًا من اتصالهم بهذه الشعوب، وجاء القرآن ليوضح لهم حقيقة اعتقادات اليهود والنصارى وغيرهم.

ولذلك فإن المسلمين الأوائل لم يجدوا صعوبة في تعرف الشعوب الأخرى والتفاعل معها وأخذ ما يفيدهم مما لدى الأمم الأخرى من وسائل المدنية. حيث أخذوا الديوان والبريد وبعض الصناعات المهمة، مثل صناعة الورق (الكاغد) التي طورّها المسلمون حتى أصبحت صناعات إسلامية.

ويرى بعضهم أننا نجد لمحات من دراسة الغرب في كتاب أسامة بن منقذ «الاعتبار» الذي تناول فيه جوانب من حياة الصليبيين، فوصف طباعهم وأخلاقهم، وتحدث عن مزاياهم وعيوبهم.

ومن أطرف ما ذكره في هذا الكتاب مسألة العلاقة بين الرجل والمرأة، وضعف الغَيْرة من الرجال على النساء، بل لعلها تكون معدومة أحيانًا. فلا يرى الرجل بأساً أن تتحدث زوجه مع رجل أجنبي، وقد تختليّ به، بل هو الذي يتركها مع الرجل الأجنبي، ويطلب إليها ألا تتأخر مثلاً.

ونحن اليوم في حاجة إلى معرفة الغرب. ولعل بداية دراسة الغرب كانت فيما نقله رفاعة رافع الطهطاوي، وخير الدين التونسي وغيرهما عن أوروبا، وكان من أبرز ما اهتم به الاثنان النظام السياسي الغربي القائم على الانتخاب والحريات السياسية، كما اهتم الاثنان بجوانب من الحياة الاجتماعية في الغرب، وعلاقة الرجل بالمرأة. وكانت تلك النظرة التي ظهرت في كتابات التونسي والطهطاوي في وقت كانت قوة الغرب في عنفوانها، وكان العالم الإسلامي يقاسي من ويلات التخلف، فلابد أن يصاب هؤلاء بالانبهار بالنموذج الغربي، وإن كانا قد حاولا أن يربطا المحاسن الغربية (في نظرهم) بما في الإسلام.

وقد تجددت الدعوة لدراسة الغرب في منتصف هذا القرن في أحد مؤتمرات المستشرقين الدولية، فقد أشار رودي بارت في كتابه المهم «الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية» (ص١٥) إلى أهمية أن يتوجه العالم الإسلامي لدراسة الغرب أسوة بما يفعله

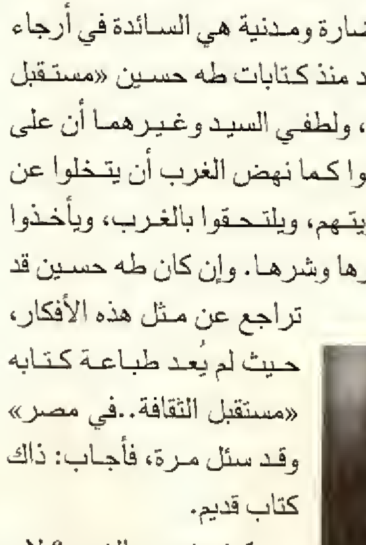

رفاعة الطهطاوي


طه حسين

الغرب في دراساته للعالم الإسلامي. وقد تناول هذا الموضوع الدكتور السيد محمد الشاهد في خطة علمية قدمها لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤١٤هـ، ونشر موجزاً لها في صحيفة «مرآة الجامعة»، ثم ظهر كتاب الدكتور حسن حنفي «مقدمة في علم الاستغراب»، وإنني أحب أن أقتطف منه عبارة عن أهداف دراسة الغرب جاء فيها أن من أهداف دراسة الغرب: «فك عقدة النقص التاريخية في علاقة الأنا بالآخر، والقضاء على مركب العظمة لدى الآخر بتحويله من ذات دارس إلى موضوع مدروس، والقضاء

على مركب النقص لدى الأنا بتحويله من موضوع مدروس إلى ذات دارس مهمته القضاء على الإحساس بالنقص أمام الغرب لغة وثقافة وعلمًا مذاهب ونظريات وآراء..».

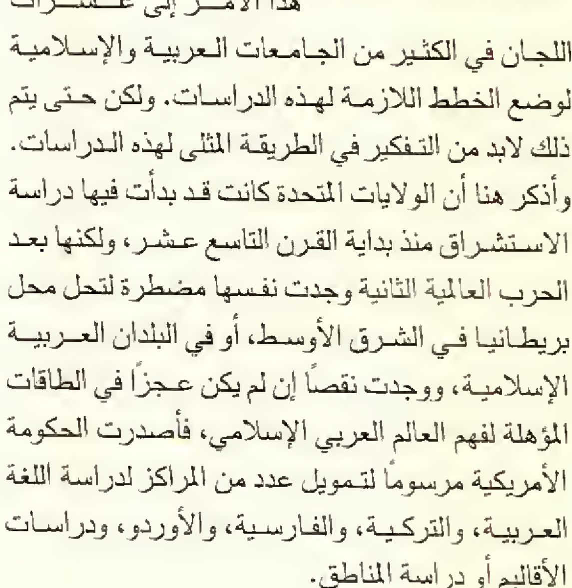
ومما يؤكد أهمية دراسة الغرب أن الغرب قد استطاع أن يبني حضارة ومدنية هي السائدة في أرجاء العالم اليوم، وقد تردد منذ كتابات طه حسين «مستقبل الثقافة في مصر»، ولطفي السيد وغيرهما أن على المسلمين لكي ينهضوا كما نهض الغرب أن يتخلوا عن خصوصياتهم وهويتهم، ويلتحقوا بالغرب، ويأخذوا بالحياة الغربية خيرها وشرها. وإن كان طه حسين قد تراجع عن مثل هذه الأفكار، حيث لم يُعد طباعة كتابه «مستقبل الثقافة..في مصر» وقد سئل مرة، فأجاب: ذاك كتاب قديم.





إدوارد سعيد

كيف ندرس الغرب؟ لابد من التخطيط الفعّال في هذه القضية إن أردنا أن ننجح حقًا في تعرف الغرب، والإفادة من المعطيات الإيجابية للحضارة الغربية. ويحتاج هذا الأمر إلى عشرات اللجان في الكثير من الجامعات العربية والإسلامية لوضع الخطط اللازمة لهذه الدراسات. ولكن حتى يتم ذلك لابد من التفكير في الطريقة المثلى لهذه الدراسات. وأذكر هنا أن الولايات المتحدة كانت قد بدأت فيها دراسة الاستشراق منذ بداية القرن التاسع عشر، ولكنها بعد الحرب العالمية الثانية وجدت نفسها مضطرة لتحل محل بريطانيا في الشرق الأوسط، أو في البلدان العربية الإسلامية، ووجدت نقصًا إن لم يكن عجزًا في الطاقات المؤهلة لفهم العالم العربي الإسلامي، فأصدرت الحكومة الأمريكية مرسومًا لتمويل عدد من المراكز لدراسة اللغة العربية، والتركية، والفارسية، والأوردو، ودراسات الأقاليم أو دراسة المناطق.



وبعد البدء في برامج اللغات العربية استعانت الجامعات الأمريكية بعدد من أساتذة الجامعات البريطانيين بخاصة، والأوربيين بعامة لتدريس الاستشراق في الجامعات الأمريكية، كما بدأت بالاستعانة ببعض أبناء المنطقة لإنشاء أقسام دراسات الشرق الأدنى، كما فعلت جامعة برنستون حينما كلّفت فيليب حتّي لإنشاء القسم في الجامعة. ثم بدأ التعاون بين أقسام دراسات الشرق الأوسط والمؤسسات العلمية مثل مؤسسة الدراسات الاجتماعية والإنسانية وغيرها من المؤسسات العلمية، والأكاديمية. وما زالت أكثر من عشرين جامعة أمريكية تحصل على دعم الحكومة الفيدرالية في مجال الدراسات العربية الإسلامية لتمسكها ببرنامج يلبي احتياجات الحكومة الأمريكية.

وفي العالم الإسلامي لا يكاد تنقصنا دراسة اللغات الأوربية، ولكننا بحاجة إلى من يتعلم هذه اللغات ليصل إلى مستوى رفيع في التمكن من هذه اللغات، ومن ثم الدراسة في الجامعات الغربية، والتركيز على قضايا الغرب، وليس لدراسة موضوعات تخص العالم الإسلامي. فنحن بحاجة إلى من يعرف الأدب الغربي كما يعرفه مثلاً البروفيسور إدوارد سعيد الذي استطاع التعمق في فهم العقلية الغربية من خلال دراسة آدابهم. كما أننا بحاجة إلى من يتعمق في علم الاجتماع الغربي ليعرّف مجتمعاتهم كأنه واحد منهم. ولم تعد هذه المسألة صعبة، فإن في الغرب اليوم كثيراً من المسلمين من أصول أوروبية وأمريكية، ويستطيعون تعرف بيئاتهم معرفة حقيقية، ولا يعوقهم شيء في التوصل إلى المعلومات التي يرغبون في الحصول عليها.

ولابد من التأكيد أن دراستنا للغرب يجب أن تستفيد من البلاد التي سبقتنا في هذا المجال، ومن ذلك أن عدداً من البلاد الأوربية قد أنشأت معاهد للدراسات الأمريكية، فهناك معهد للدراسات الأمريكية تابع لكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة لندن، كما أن جامعة مونتريال فيها معهد للدراسات الأمريكية، وكذلك في ألمانيا. وقد أنشأت باكستان معهداً للدراسات الأمريكية.

ودراستنا للغرب ـ لا شك ـ ستختلف عن دراسة

الغرب لنا؛ ذلك أن الغرب بدأ الاستشراق فيه منطلقًا من توجيهات وأوامر البابوات لمعرفة سر قوة المسلمين، وانتشار الإسلام في البلاد التي كانت خاضعة للنصرانية. وكان القصد ليس فقط معرفة الإسلام والمسلمين، ولكن كانت أيضًا لهدفين آخرين، أحدهما: تنفير النصارى من الإسلام، والثاني: إعداد بعض رجال الكنيسة للقيام بالتنصير في البلاد الإسلامية.

وبعد هذه البداية ظهرت أوروبا الاستعمارية، فكان لا بد أن يواكبها أو يسبقها معرفة بالبلاد التي يراد استعمارها، فتكوّن لدى الغربيين أعداد من الخبراء بالعالم الإسلامي ساهموا في تثبيت دعائم الاستعمار. وانحسرت الموجة الاستعمارية، ولكن الغرب مازال حريصًا على استمرار نفوذه في العالم الإسلامي ليسهّل عملية وصول المواد الخام إلى البلاد الغربية، وإعادتها بضائع مصنّعة لترويجها في العالم الإسلامي. فلابد من تغيير أنماط الحياة الاجتماعية في هذه البلاد والمحافظة على أنماط معينة من السلوك لتظل بلادنا أسواقًا مفتوحة لبضائعهم ومنتجاتهم إلى ما شاء الله.

أما نحن، فحين نريد دراسة الغرب ومؤسساته وهيئاته فإننا بحاجة أولاً إلى الأخذ بأسباب القوة المادية التي وصلوا إليها، أليس في كتابنا الكريم ما يؤكد هذا في قوله تعالى: *وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم*. **الأنفال: ٦٠**. فكما يسعى الأمريكيون مثلاً إلى تعرف الإدارة اليابانية، وسر قوة الإنتاج والتقدم السريع لليابان، فإننا أيضًا بحاجة إلى أن نعرف أسباب القوة لديهم، وكيف أنهم استطاعوا تطوير آليات تطبيق الأنظمة في حياتهم في مجال الإدارة والصناعة والاقتصاد، وفي التعليم، وفي الثقافة.

والأمر الثاني أننا حين ندرس الغرب فليس لدينا تطلعات استعمارية، فما كان المسلمون يومًا استعماريين، وكم يعجبني رأي محمد جلال كشك في كتابه «ودخلت الخيل الأزهر» في الدفاع عن الدولة العثمانية بأنها لم تكن، ولا يمكن أن توصف بأنها دولة استعمارية، وأتى بالأدلة والشواهد على ذلك. ولكننا نريد أن نحمي مصالحنا، ونفهم طريقة عمل الشركات المتعددة الجنسيات التي ابتدعها الغرب، وأصبحت أقوى نفوذًا من كثير من الحكومات.

والأمر الثالث - وله أهميته الخاصة - وهو أن هذه الأمة هي أمة الدعوة والشهادة، فإن كان الأنبياء قبل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يُكلّفون بدعوة أقوامهم، فإن الدعوة الإسلامية موجهة إلى العالم أجمع، وقد كلف المسلمون جميعًا بحمل هذه الأمانة: *قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني*. **يوسف: ١٠٨** وجاء في حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم: «نضّر الله أمرأ سمع مقالتي فوعاها فبلغها إلى من لم يسمعها فربّ مُبَلَّغ أوعى من سامع أو رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»،

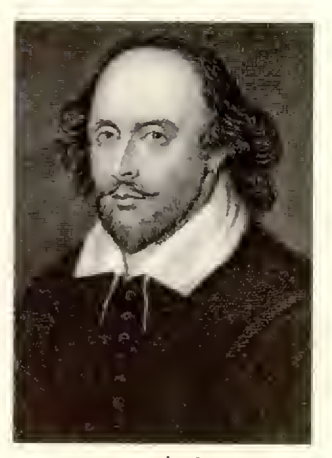

خير الدين باشا التونسي

وهذه الرسالة الخاتمة ليست نظامًا عقديًا فحسب بين العبد وربه، كما هو الأمر في النصرانية التي يزعم أتباعها أن عيسى عليه السلام قال: «دعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، ولكنها نظام اجتماعي وسياسي واقتصادي وفكري. ونحن أمة الشهادة، فكيف لنا أن نشهد على الناس دون أن نعرفهم المعرفة الحقيقية؟.

ولن يكون علم الاستغراب لتشويه صورة الغرب في نظر العالم؛ ذلك أننا ننطلق من قوله تعالى: *ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله*. **المائدة: ٨**. وقد جاء في الأمر بالعدل ولو كان ذا قربى أو الوالدين.. ولنا أسوة في ذلك ما ورد عن عمرو ابن العاص رضي الله عنه في وصف الروم بقوله: «إن فيهم لخصالاً أربعًا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرّة، وخيرهم لمسكين ويتيم، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك». فمتى ينشأ علم الاستغراب؟

مارلو أم شكسبير؟

ميسون عبدالرحمن النحلاوي


وليم شكسبير

كلنا سمع عن شكسبير وعظمة كتاباته المسرحية، وعبقريته في استخدام كلمات يجريها على ألسنة شخصيات أتقن رسمها ببراعة. لقد كتب عنه الكثيرون، ففصلوا وأسهبوا، وأصبحت سيرته الأدبية مادة لكتب لا تعد ولا تحصى، كتبت في شتى لغات العالم، وتناول النقاد مسرحياته واحدة واحدة بالنقد والتحليل والتمحيص والمديح والثناء، حتى تفاصيل حياته التي لا تكاد تذكر لقلتها، تمَّ فحصها تحت كثير من المجاهر.

حاكمه العالم وحكم عليه: إنه أعظم كاتب مسرحي أو أعظم كاتب عرفته الأزمنة. وفي كل جيل، أو في كل عقد من الزمن يمكن اكتشاف جوانب جديدة من حياة هذا الكاتب الكبير، وهذ أمر طبيعي في أمر كاتب مشهور، إذ لا يمكن لجيل واحد أو شخص واحد أن يحيط بكل ما يتعلق به.

فبعد مضي مئتي عام على وفاته ظهرت الشكوك حول مصداقية أعماله من خلال النظرية الباكونية BACONIAN THEORY، وقد تم الشروع في طباعتها في منتصف القرن التاسع عشر، وهذه النظرية، كما يعرف بعضهم، تقول: إن فرانسيس باكون هو الذي كتب المسرحيات التي تعزى إلى شكسبير، وهي تستند في فرضيتها إلى الشواهد الداخلية في مسرحيات شكسبير (المادة والمفردات المستخدمة) من جهة، وعلى الظروف الخارجية التي كانت تحيط بشكسبير، والغموض الذي يلف سيرته الذاتية من جهة أخرى، حتى إن بعض الناس ذهب إلى أن نشأته ابنًا لمزارع لا تؤهله للقيام بكل هذه الإنجازات المبدعة. وقد وجد بعض متبني هذه النظرية عن الكتابات المشفرة التي تحويها مسرحياته والتي تتطابق مع نتاج باكون F. BACON دعمًا لها.

في الحقيقة لا يعرف أحد شيئًا عن بدايات شكسبير الكاتب، ولا عن المقدرة التي خولته الدخول إلى المسرح الإليزابيثي، إلاّ أن بعضهم ممن درس حياته قال: إن الهدف الرئيس الذي رسمه شكسبير لحياته هو أن يصبح نبيلاً من طبقة النبلاء، لا أن يصبح فنانًا.

أراد شكسبير الثروة والمال، والأراضي والممتلكات، وقد اتخذ من كتابة المسرحيات وسيلة للوصول إلى هذا الهدف، وكان له ما أراده، فقد كان المسرح وسيلة جيدة فعلاً لأي شخص أراد الثراء.

شكسبير يطور أعمال غيره

اعتمد شكسبير في أغلب مسرحياته على أعمال جاهزة، فقد كان يتناول عملاً تمت كتابته مسبقًا - مثل مسرحية هاملت الأصلية التي كتبها كيد KYD، ويقوم بإعادة كتابته مع بعض التطوير، وكان هذا الأسلوب مناسبًا لشكسبير أكثر من إبداع حبكات مسرحية جديدة. لقد فضَّل دائمًا أن يأخذ حبكة الآخرين، أو أن ينقب عن قصة من التاريخ ليبني عليها مسرحياته، فقد اهتم بطريقة سرد القصة بالدرجة الأولى، وليس بالقصة نفسها.

ولقد استفاد شكسبير من مبدأ الاشتراك الذي كان سائداً في المسرح الإليزابيثي عندما اشترك مع بويمنت BEAU-MONT، وفلتشر FLETCHER، وكتاب آخرين في كتابة بعض مسرحياته. ويرى دريدن DRYDEN أن مسرحيات شكسبير لا تدخل في النموذج الكلاسيكي، وأنه ليس مستغرباً أن أعماله كانت تراجع من قبل كتاب عصر النهضة.

بدأ شكسبير بكتابة المسرحية في السنوات الأخيرة من العقد الثامن من القرن السادس عشر، ومن بين أعماله الأولى مسرحية HENRY IV هنري الرابع بأجزائها الثلاثة، وقد استفاد كثيراً في رسم النموذج المتبجح لشخصية هنري الرابع من الشخصية التي رسمها NICHOLAS UDALL نيكولاس أودال في مسرحيته RALPH ROISTER DOISTER، وهي شخصية RALPH البطل، وأردفها بمسرحيته ريتشارد الثالث RICHARD III.

ومما لا شك فيه أن شكسبير في معظم مسرحياته التاريخية قد تعلم الكثير من مسرحية مارلو EDWARD II إدوارد الثاني في كيفية وضع المسرحية التاريخية حيث يجب أن تكون أكثر من عرض لمهرجان من العنف.

إن تأثر شكسبير بمارلو له أهمية خاصة، ومارلو لم يسبق شكسبير في الزمن، فقد كان يكبره ببضعة أسابيع فقط.

رحيل مبكر

ولد كريستوفر مارلو CHRISTOPHER MARLOWE في السنة التي ولد فيها شكسبير نفسها ١٥٦٤ - ١٥٩٣م، إلا أنه قُدر له أن يمضي في هذه الحياة كالبرق في كبد سماء ملبدة بالغيوم. لم يعش مارلو أكثر من ٢٩ عاماً، ولكن إنجازاته كانت مذهلة بالنسبة إلى عمره القصير؛ وبقيت أسباب موته، وملابسات الحادثة التي أودت بحياته في مشرب عام غامضة على الرغم من المحاولات الطويلة والمتكررة لأصدقائه من المتنورين في استجلاء ملابساتها. اكتسب مارلو شهرة واسعة، فقد تلقى تعليمه في مدرسة الملك في كانتربري وفي كلية CORPUS CHRISTI في كامبردج. وقد واجه بعض الصعوبات في الحصول على درجة MA التي حصل عليها في عام ١٥٨٧م. أما سيرته التي تتناول معاشرته اللصوص والخارجين عن القانون، فقد قيل: إنها كانت قناعاً مفتعلاً لرجل لم يكن في جوهره الحقيقي متوحشاً أو متهوراً، إذ يُظن أنه كان عميلاً لحكومة الملكة، وأن الأعداء الذين قتلوه هم أعداء البلد قبل أن يكونوا أعداءه شخصياً، ومع ذلك فقد بقي الغموض الذي يلف حياته القصيرة قائماً.

مسرحيات خمس

تستند سمعة مارلو بوصفه كاتباً مسرحياً إلى خمس مسرحيات وهي:

تيمورلنك TAMBURLAIN، ودكتور فاوستس DOCTOR FAUSTUS، ويهودي مالطة JEUF OF MALTA، وإدوارد الثاني - EDWARD II، وديدو ملكة قرطاج DIDO, QUEEN OF CARTHAGE، ويمكن إضافة الميلودراما: مجزرة في باريس MASSACRE OF PARIS إلى هذه المسرحيات الخمس.

من خلال هذه الإنجازات القليلة ظهر الصوت الحقيقي الأول لعصر النهضة، عصر التعليم والحرية، والمغامرة. لقد لخص لنا مارلو العصر الجديد بما حمله من تحطيم لقيود الكنيسة القديمة، وللحدود التي كانت تحكم المعرفة، والانفتاح على العالم الخارجي من خلال إبحار السفن الكبيرة إلى الأراضي الجديدة، وما رافق ذلك من تكدس الثروات.

وبالإضافة إلى كل ما نقلته مسرحيات مارلو عن هذا العصر، كانت تحمل روح الحرية الإنسانية، روح القوة والمغامرة البشرية غير المحدودة.

اعتمد شكسبير في أغلب مسرحياته على حبكات مسرحية جاهزة

لم يكرر مارلو نفسه في أعماله، فبينما يمثل تيمورلنك الفاتح العظيم، القوة الاستبدادية، يمثل باراباس، BARA-BAS، يهودي مالطا القوة المرتبطة بالمال، أما فاوستس فيمثل النهم المفرط في كل شيء، للقوة التي يمكن أن يهبها العالم العلوي.

وإذا تناولنا مسرحية تيمورلنك، نجد أنها سلسلة من المشاهد المهيبة يمثل كل منها مرحلة من مراحل انتقال تيمورلنك من راعٍ حقير إلى قاهر للعالم، وفيها يبدو كل شيء أكبر من الحياة. فتيمورلنك لا يكتفي بالغزو فحسب، بل يستمر في محاولاته تأكيد عظمته من خلال الأفعال الشنيعة التي يرتكبها مثل ذبح بنات دمشق، واستخدام السلطان التركي كمسند لقدميه، وحرق المدينة التي ماتت فيها محبوبته ZENOCRATE. وعلى الرغم من أن سيرة تيمورلنك تعود إلى العصور القديمة تاريخياً، إلا أن عرض مارلو يُجسد لنا نزعة الانتقام في العصر الحديث. إنه يقدم صورة مجسمة (كاريكاتيراً) للوحشية النازية، وفظائع الشيوعية في عصرنا الحاضر، وتبرز روعة هذا (الكاريكاتير) أكثر ما تبدو من خلال شعر مارلو المرسل.

ويتناول «إليوت» في مقالته عن مارلو استخدامه (للكاريكاتير) في كتاباته بشكل مختلف عن المفهوم السائد،

فهو لا يرسمه (كاريكاتيراً) مثيراً للفكاهة، بل يريده مضخماً للجانب المخيف والمرعب. ففي مسرحيته ديدو، ملكة قرطاج DIDO, QUEEN OF CARTHAGE نجد المبالغة في نقل عنف الكابوس عند وصف احتلال طروادة:

I ROSE
AND LOOKING FROM A TURRET, MIGHT BEHOLD
YOUNG INF ANTS SWIMMING IN THEIR PARENTS' BLOOD.
HEADLESS CARCASES PILED UP IN HEAPS.

وترجمتها كالآتي:

«لقد نهض ليرى أطفالاً يسبحون في دماء آبائهم، وأكواماً من جثث بلا رؤوس.. وتابع في وصف عذارى يسحبن من شعورهن الذهبية بين الموت والحياة، وهكذا يمضي في جو مشبع بالرعب القاتل».

نهاية مروعة

ومع أن مارلو لم يتجه نحو الرسم (الكاريكاتير)، للشخصيات أو المشاهد، في مسرحية فاوستس FAUSTUS، فهي تعد من أعظم مسرحياته. تحكي هذه المسرحية قصة رجل متعلم أتقن العلوم والفنون الدنيوية كافة، ولم يعد يرى في العالم من حوله ما يشبع نهمه إلى المعرفة، فقرر أن يستكشف ما وراء الطبيعة. قام بتحضير روح الشيطان مفيستوفيلس MEPHISTOPHELES (وهو أحد الشياطين السبعة الرئيسة في أساطير القرون الوسطى) خادم إبليس العظيم، وعقد معه صفقة يحصل فاوستس بموجبها على ٢٤ سنة من القوة المطلقة، والسعادة الدائمة مقابل أن يتنازل عن روحه للشيطان.

استغل فاوستس وقته في كل ما أراد، حتى إنه قام بإحضار الماضي العظيم للإغريق إلى الحياة، وتزوج هيلين طروادة. إلاّ أن النهاية كانت مروعة! يختم مارلو بحديث طويل نتلمس فيه روعة الوصف لحالة العالم، وهو ينتظر الشيطان كي يحمله إلى جهنم، وصرخاته اليائسة وسط الرعد، بينما تقوم الشياطين بسحبه نحو ألسنة اللّهب.

ويبدو تأثر الأديب الألماني «غوتة» أكيداً بهذه المسرحية عند كتابته مسرحيته المشهورة (فاوست).

تاجر البندقية ويهودي مالطا

وفي مسرحية يهودي مالطا JEW OF MALTA يعرض لنا مارلو الحقد اليهودي الذي لا يعرف حداً، والذي يرغب في إفناء كل ما حوله في سبيل الثأر. إلاّ أن مارلو يسخر منه في النهاية التي يضعها له.. والمسرحية باختصار، تحكي قصة باراباس اليهودي الواسع الثراء الذي جرّده حاكم مالطا من ثروته ليدفع الجزية للأتراك. أخذ باراباس عهداً على نفسه بالثأر لثروته الضائعة، ليس من الحاكم فحسب، بل من جميع المسلمين والنصارى على حد سواء، فقام بدس السم في ديرٍ للراهبات، واحتال على عشيقي ابنته ليقتل كل منهما الآخر، وبيّت النية لتدبير مذبحة للقادة الأتراك الذين قاموا بغزو الجزيرة، وقتل الجنود الأتراك في أحد الأديرة، ولكن ما حصل هو أن باراباس نفسه هو الذي مات عند سقوطه - من خلال حيلة دبرها الحاكم - في مرجل من الزيت المغلي قام بتحضيره لأعدائه.

لقد تأثر شكسبير إلى درجة كبيرة بهذه المسرحية في كتابته مسرحيته «تاجر البندقية»، إلاّ أن فكرة الحقد اليهودي غير المتناهي، وأساليبه الملتوية، وتظاهره الخادع تبدو أشمل عند مارلو.

وقبل أن نأتي على الختام يجدر بنا أن نذكر شخصية غويس AGUISE أبرز شخصيات مسرحية «مجزرة في باريس» التي اختار مارلو أن يرسمها شخصية ماكيافيلية تتبنى مبدأ الغاية تسوّغ الوسيلة، مع الفقدان التام لأي نوع من أنواع الفضيلة.

الغموض يكتنف حياة مارلو القصيرة، وروح الحرية الإنسانية أهم ما يميز أعماله

لقد كان للّغة القوية التي أجراها مارلو على لسان الدوق أثر ملحوظ في مسرحيات شكسبير التاريخية الأولى.

وعلى الرغم من أخطاء المبنى وبعض العيوب الفنية المصاحبة لعنصر الشباب عادة يبقى إنجاز مارلو جباراً... لقد كتب النقاد عن مارلو، فوصفوه بأنه شاعر، ومسرحي عظيم، وقال بعضهم فيه: إنه لو لم يقدّر له أن يموت بوقت مبكر لأصبح أعظم من شكسبير نفسه، بل ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فقالوا: إنه حتى شكسبير نفسه، لم يكن ليقوم بكل ما قام به مارلو من نشاط فردي جبار في كتاباته، في تسخيره للكاريكاتير، لرسم المشاهد والشخصيات، وفي الحشد العظيم من التعابير اللغوية. لقد كانت إنجازات مارلو فردية عظيمة! وكما يقول توني بيرجس AN THONY BURGESS: لا يوجد أحد يشبه كريستوفر مارلو.

وإذا لو أردنا أن نسمي عصر هذين الأديبين باسم أحدهما فهل سيكون عصر كريستوفر مارلو، أم عصر وليام شكسبير؟ وهل تبقى الغلبة للكثرة والاستمرارية في الإنتاج ولو لم يكن ذاتياً محضاً؟

المراجع

2- THE OXFORD COMPANION TO ENGLISH LITERATURE.
2- ENGLISH LITERATURE BY ANTONY BURGESS.

الفضة
هذا المعدن الساحر

خاص: الفيصل



قارس من الفضة الخالصة، من التحف المعروضة في صالة «جولد سميث» في لندن

الفضة SILVER معدن، رمزه الكيماوي (Ag)، يتميز بروعة لمعانه وثباته، وناقليته للحرارة والكهرباء، وقابليته للتشكيل، والطرق (صنع الصفائح الرقيقة منه)، والسحب (صنع الأسلاك الرقيقة منه)، وقدرته على قتل الجراثيم والبكتريات، وبعاكسيته الممتازة للأشعة الشمسية؛ لذا فهو يستعمل في صناعة الأدوات المنزلية الوثيرة، والحلي، والصناعات الكهربائية والكيماوية، والدوائية، وصناعة المرايا، والخلايا الشمسية، والحواسيب، وبعض أجهزة الأقمار الصناعية، ومكوكات الفضاء.

وهو يستخرج من باطن الأرض التي تعد فيها الفضة أكثر ندرة من الألمونيوم، بمليون مرة، ولكنها أكثر وفرة من الذهب بأربعين مرة. وينتج العالم سنويًا من مناجم الفضة التي تشتهر بها المكسيك والبيرو والولايات المتحدة وكندا نحو ٤٠٠ مليون أوقية (أو الأوقية الأمريكية OUNCE التي تساوي ٣١,١ غراما). ومع التزايد المستمر لاستعمالات الفضة في الصناعة الحديثة أصبح الاستهلاك العالمي منها يفوق حجم الإنتاج، ويعوض الفرق بإعادة



إبريق ماء ضخم من الفضة يبلغ ارتفاعه ١٨٠سم يعود تاريخه إلى أيام الإمبراطورية البريطانية، حيث نقل به مهراجا من ولاية جايبور الهندية الماء إلى إنجلترا عندما ذهب لحضور حفل تتويج الملك إدوارد السابع عام ١٩٠٢م

الاستفادة من الفضة القديمة. وبسبب هذه الاستخدامات المتنوعة، أصبحت الفضة تعد سلعة إستراتيجية تحرص الدول المتقدمة على الاحتفاظ باحتياطي كاف منها لأيام الحروب والأزمات، كما أصبح استهلاكها أحد مقاييس التطور الصناعي للبلدان.

وبسبب ندرتها وثباتها أمام عوامل التأكل، وجودة خصائصها عدّت من المعادن النبيلة التي تباع في أسواق المال (البورصات) العالمية، شأنها في ذلك شأن الذهب والبلاتين. ولقد شهد سعرها ارتفاعاً جنونياً عام ١٩٨٠م عندما سادت أسواقها العالمية حمّى المضاربة حتى وصل سعر الأونصة منها إلى رقم قياسي بلغ ٣٥ر٥٠ دولاراً في شهر كانون الثاني/يناير بعد أن بلغ أدنى قيمة له وهو (٣٠ر٢ دولاران وثلاثون بالمئة من الدولار) للأونصة قبل ذلك بوقت قصير.

الفضة في القرآن الكريم

ذكرت كلمة فضة في القرآن الكريم أربع مرات. في قوله تعالى: *ولولا أنْ يكونَ الناسُ أمّةً واحدةً لجعلنا لمَنْ يكفرُ بالرحمن لبيوتهمْ سُقُفاً من فضّةٍ ومعارجَ عليها يَظْهرون*. **الزخرف**:٣٣، *ويُطافُ عليهم بآنيةٍ من فضةٍ وأكوابٍ كانت قواريراً، قواريرَ من فضةٍ قدَّروها تقديراً*. **الإنسان**:١٥ـ١٦، *عاليَهُمْ ثيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وإستبرقٌ وحُلُّوا أساورَ من فضةٍ وسقاهم ربُّهُمْ شراباً طهوراً*. **الإنسان**:٢١. أما كلمة الفضة فذكرت مرتين: الأولى في قوله تعالى: *زُيِّنَ للناس حُبُّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المُسوَّمة والأنعام والحرث ذلك متاعُ الحياة الدنيا واللهُ عنده حسنُ المآب*. **آل عمران**:١٤، والثانية في قوله تعالى: *يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموالَ الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله والذين يَكْنِزون الذهبَ والفضةَ ولا يُنفقونها في سبيل الله فبشّرْهُمْ بعذابٍ أليم*. **التوبة**:٣٤.

خصائص الفضة واستعمالاتها

ولعل ذكرها في القرآن الكريم خير دليل على أن الإنسان عرفها منذ ما قبل التاريخ. وكان المصريون القدماء يطلقون على الفضة اسم «الذهب الأبيض». وفي الماضي كانت تصنع المسكوكات الأكثر قدماً من سبيكة طبيعية من الفضة والذهب تدعى ELECTRUM. وهذان العنصران متجاوران في جدول التصنيف الدوري للعناصر، كما أن مقاومة عنصر الفضة لمعظم الحموض، وعوامل التأكل الكيماوي تجعله يصنف مع الذهب كفلزّ نبيل. ولا يضارع الذهب في القابلية للثني والسحب سوى الفضة. ويمكن للصائغ أن يصنع من



قطعة فضة لا يتعدى وزنها غراماً واحداً سلكًا يصل طوله إلى أكثر من عشرة أمتار، أو أن يرقّها حتى تصبح ورقة أقل سمكًا من هذه الصفحة بنحو ١٥٠ مرة. وهي معدن كالذهب، يعبر عن الثروة والأمان عندما يوضع في المعصم. كما أنه لا يصدأ؛ لذا يلجأ بعض الناس إلى شرائه لادخار ثرواتهم.

وللفضة مزايا متعددة أخرى. فهي تتميز بعاكسيتها الممتازة للأشعة الشمسية بحيث لا تضاهيها في ذلك مادة أخرى على الإطلاق. ويتميز الضوء المنعكس عن سطحها بوحدة خصائصه مما يعطي الفضة بريقها الأبيض الباهت والمريح. وحتى أدق صفيحة من الفضة تكون لها القدرة على عكس الضوء الساقط عليها بنسبة تصل إلى ٩٥٪ حتى أصبحت تستخدم على نطاق واسع في مجمّعات الطاقة الشمسية، وفي طلاء أحد سطحي الزجاج لصناعة المرايا الزجاجية.

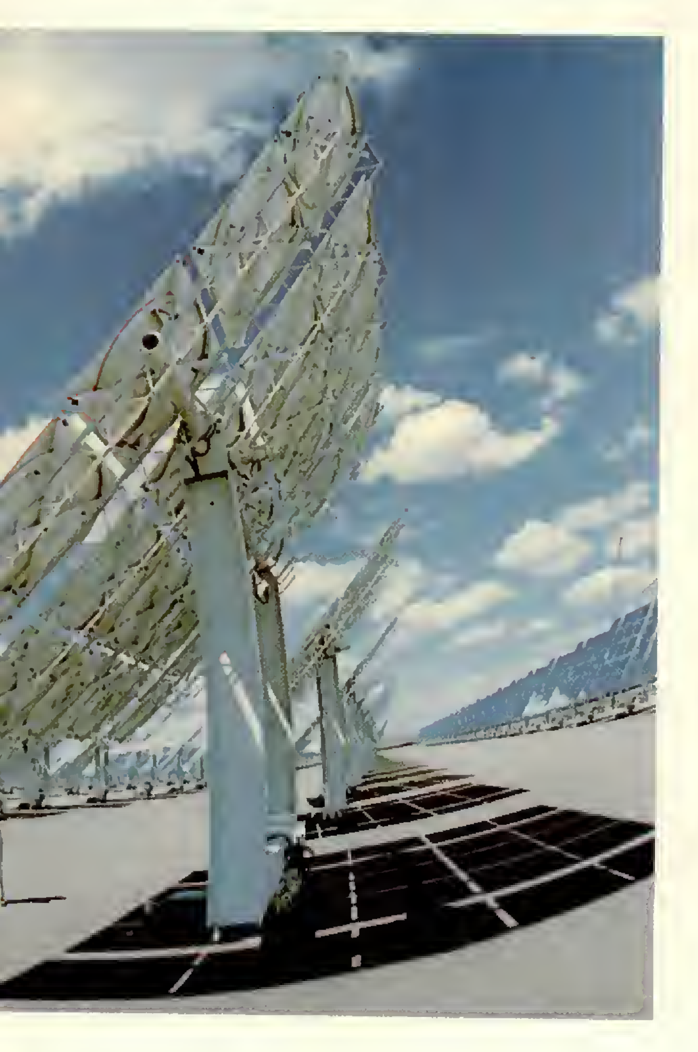
ومن جهة أخرى، فإن الفضة تحفز الأوكسجين على قتل البكتيريا؛ لذا فهي تضاف إلى مياه برك السباحة لتعقيمها بدلاً من الكلور. ويلجأ الجراحون إلى استعمال مرهم يحتوي على أحد مركبات الفضة يدعى «ديازين كبريت الفضة» SILVER SULFADIAZINE لدرء التهابات الحروق الجلدية، كما تدخل الفضة أيضًا في تجبير العظام المكسورة باستعمال مادة إسمنتية تحتوي على أحد أملاح الفضة المقاومة للبكتيريا، وتستخدم كميات كبيرة من الفضة في مصانع المواد العضوية لما يعرف عنها من أنها تعدّ من أهم الحوافز الكيماوية لبعض التفاعلات الكيماوية فهي تزيد مردود بعض التفاعلات لدرجة عالية.

ولا يوجد معدن آخر، ولا حتى النحاس، ينقل الحرارة والكهرباء مثل كفاءة الفضة؛ لذا فإنها تستعمل كناقل ممتاز للكهرباء في الآلات الحاسبة والحواسيب، والغواصات، والأقمار الصناعية، وفي صناعة موصلات الخلايا الشمسية السليكونية. وتؤدي تقسية الفضة بصهرها مع معدن التنغستين، أو الموليبدن إلى تشكيل سبيكة ذات استعمالات مهمة في التوصيل الكهربائي. وبما أن الفضة تعدّ مادة زالقة بحالتها الطبيعية، فإن صفائحها تستخدم في صناعة بعض أجزاء محركات الطائرات النفاثة، وسيارات الديزل. وفي المحركات الرئيسة للمكوكات الفضائية، تستخدم رقائق الفضة لإنقاص الاحتكاك، ومنع الشرارات التي من شأنها أن تفجّر مزيج الهيدروجين والأوكسجين السائل الذي يستعمل وقوداً دافعاً للمكوك.

وفي صناعة أفلام التصوير الفوتوغرافي، تستخدم بعض أملاح الفضة المتبلورة لكشف الإشعاعات الضوئية الساقطة عليها، وتسجيلها على الفور.

وبتحميض الفيلم، تتحول أملاح الفضة إلى حبيبات من الفضة البراقة التي تتشكل منها الصورة. وأونصة واحدة من الفضة تكفي لصناعة عدد من الأفلام يحتوي على نحو ٥٠٠٠ صورة ملونة.

وتتجمع كميات قليلة من الفضة في الطحالب، والفطور، والأشجار، وعظام الإنسان، ومياه البحر، وهي توجد أحياناً في الطبقات الصخرية السطحية المكشوفة من الخوانق، أو الوديان الضيقة الصخرية المنتشرة فوق الجبال الجرداء. إلا أن الرواسب السطحية سرعان ما تنفد عادة. ويعتقد الخبراء أنه خلال الخمسة آلاف سنة الماضية استخرجت دول العالم بأجمعها ٩٣٣٠٠٠ طن من الفضة، ثلاثة أرباع هذه الكمية أتت من دول النصف الغربي من الكرة الأرضية، وخاصة من المكسيك ، وكندا، والبيرو، والولايات المتحدة، ويقدرون أن أكثر



من نصفها استخرج خلال القرن الماضي وحده. وإذا قسمنا كل الفضة التي استخرجت من باطن الأرض منذ وجد الإنسان فوقها على عدد سكانها بشكل متساوٍ لكان نصيب كل واحد ٦٫٧ أونصات فقط (نحو ٢٠٨ غرام). وفي الحقيقة فإن نصيب الفرد الواحد أقل من ذلك بكثير؛ لأن الإنسان أضاع الكثير من الفضة التي عادت مرة أخرى إلى الأرض. فتصور مثلاً السفن الإسبانية التي غرقت وهي تنقل عشرات الأطنان من الفضة، والتحف الفضية من مستعمراتها في أمريكا الجنوبية خلال العصور الوسطى، وكذلك القطع والمسكوكات النقدية الفضية التي ضاعت خلال التاريخ، ودفنت مع بقايا الحضارات البائدة. ويقدر الخبراء أنه خلال السنوات الخمسين الأولى من هذا القرن فقد العالم نحو مئة ألف طن من المسكوكات الفضية.

ويستهلك التصوير بالأشعة السينية للأغراض الطبية كميات كبيرة من الفضة التي لا يمكن إعادة استخدامها من



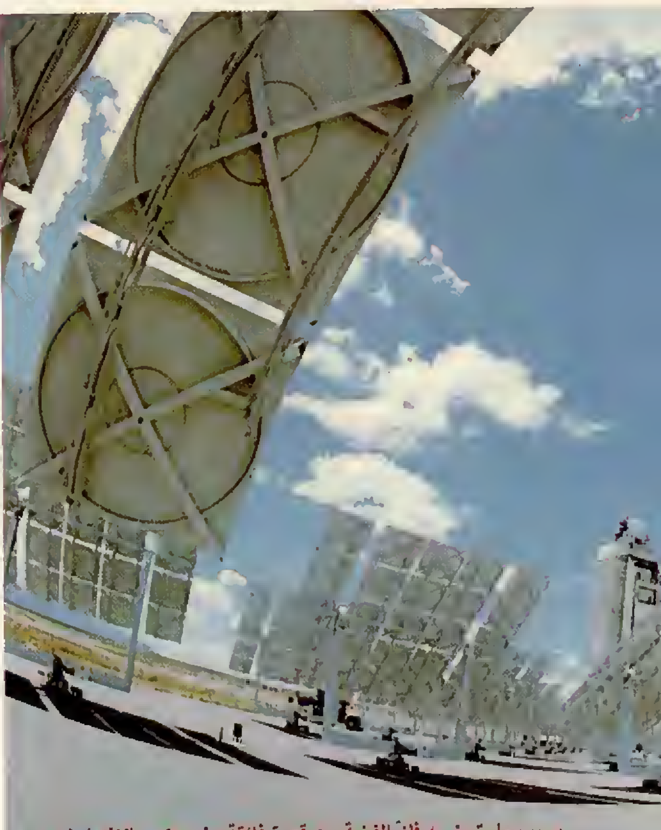
صهر قطعة الفضة لإعادة تشكيلها

جديد أبداً، كما أن كميات كبيرة من سبائك الفضة تحفظ في أقبية البنوك في نيويورك، وشيكاغو، ولندن، وهي التي يبيعها ويشتريها المضاربون في هذه الأسواق الثلاثة التي تعدّ أكبر أسواق تبادل المعادن في العالم.

ومما يدل على أهمية الفضة في الاقتصاد هو أن حكومة الولايات المتحدة فرضت رقابتها على تجارتها، ومنعت الاتّجار بها مقابل الأوراق المالية منذ عام ١٩٦٨م، وكانت قد توقفت عن سك العملات الفضية منذ عام ١٩٧٦م، ويتضمن المخزون الاستراتيجي الاحتياطي الموجود في الخزينة الفيدرالية أكثر من ٤٠٠٠ طن من الفضة.

وسرعان ما تذهب معظم كمية الفضة المنتجة حديثاً من مناجمها إلى الأقبية، أو إلى أيدي الصائغين؛ ولهذا، فإن كل المناجم المتوزعة في العالم لا تتمكن من تغطية حاجة السوق. وقدّر مكتب الولايات المتحدة للمناجم إنتاج العالم منها بمقدار ١٦٠٠٠ طن في عام ١٩٧٩م، ثلثا هذه الكمية استخرج من باطن الأرض.

وتعوض الولايات المتحدة الفرق بين ما تحتاج إليه وما



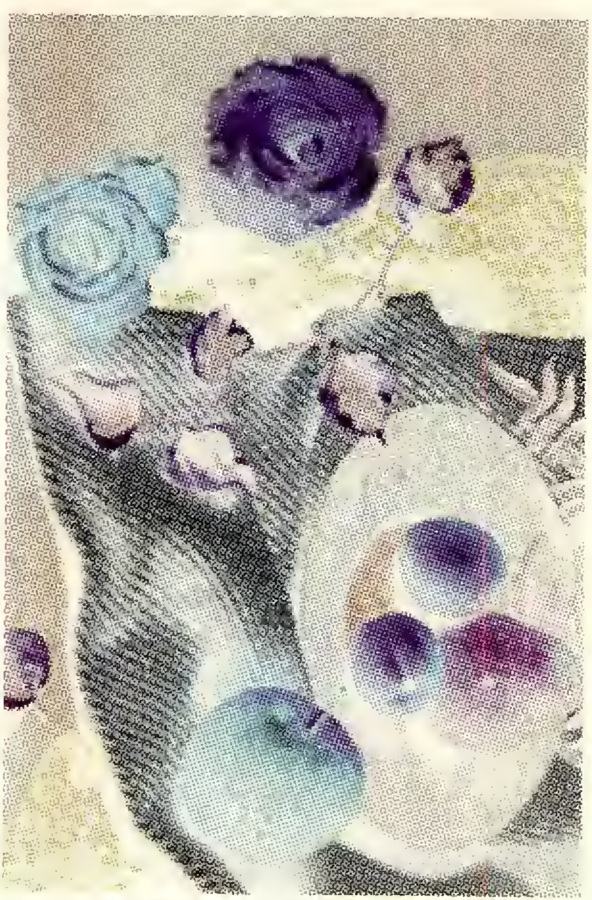
بسبب ما يتميز به فلزّ الفضة من قدرة فائقة على عكس الإشعاعات، فإنه يستخدم في حقل تجميع الطاقة الشمسية، حيث ترتب آلاف المرايا الفضية لتعكس الأشعة نحو بروج التسخين. والصورة لمحطة الطاقة الشمسية في ولاية نيومكسيكو الأمريكية



تنتجه من الفضة من صهر المسكوكات والأواني الفضية القديمة، كما تستعاد بعض الفضة بعد استخدامها في الأفلام من محاليل الاستظهار. ولحسن الحظ فإن بالإمكان صهر القطع الفضية، وإعادة صبها وتشكيلها من جديد مرات لا تنتهي، لأن القليل فقط من المعدن يُفقد في أثناء عملية التحويل. وعلى أن افتتاح منجم جديد للفضة ينطوي على الكثير من الصعوبات والتكاليف حتى قال أحد المكسيكيين: «إن فتح منجم للفضة يكلفك منجماً من الذهب».

أسعار الفضة

حتى عام ١٩٨٠م ظلت أسعار الفضة ترتفع ببطء على الرغم من أن المناجم لم تنقطع عن دفع كميات جديدة من الفضة إلى الأسواق العالمية حتى بلغ سعر الأونصة خمسة دولارات، ويعود ذلك إلى أن حاجة الصناعة إلى الفضة كانت تأخذ بالتزايد عامًا بعد عام. وبعد ذلك أخذ سعر الفضة بالارتفاع تدريجيًا بسبب التخوف الذي ساد تلك الفترة من



يعتمد مبدأ التصوير الفوتوغرافي على الحساسية الفائقة لبعض مركبات الفضة للضوء لذا فإن كميات كبيرة من هذا العنصر تستهلك عالمياً في صناعة الأفلام

الحرب العراقية - الإيرانية والتضخم العالمي حتى بلغ ستة دولارات، ثم سبعة فثمانية فتسعة إلى أن بلغ عشرة دولارات وأكثر للأونصة. وفي شهر كانون أول/ ديسمبر من عام ١٩٨٠م بلغ سعر الأونصة ٣٥ر٥٠ دولاراً مقارنة مع ٥٦ر٢ (دولارين وستة وخمسين بالمئة من الدولار) عام ١٩٧٣م، وأصبح سعر ملعقة من الفضة ١٠٠ دولار. وظهرت على صفحات الجرائد والمجلات الاقتصادية عناوين بارزة مثل: «ارتفاع حاد في أسعار الفضة»، «أسعار الفضة تصل إلى مستويات عالية»، «أسعار الفضة تبلغ أرقامًا قياسية». وصدرت عقب ذلك توقعات تشير إلى أن أسعار الفضة ستواصل ارتفاعها على المدى الطويل إلا أن هذه التوقعات خابت بسبب عدة عوامل؛ منها التغيير الذي طرأ على مواقف الأطراف التي كان يهمها التأثير في الأسواق لغايات تجارية، كأصحاب البنوك، وبعض كبار المضاربين في هونج كونج، مما أدى إلى تراجع أسعارها إلى حدودها الطبيعية التي تتناسب تمامًا مع قانون العرض والطلب.



الفضة فلز يتوارثه الأبناء عن الآباء لرونقه، وثباته. وارتفاع أسعاره. ويمكن إعادة تشكيله وفقًا لتطور الرغبات، وتغير الأذواق، حيث تضغط قطعه، وتصهر لتشكل من جديد

جدول بأكثر دول العالم إنتاجًا واستهلاكًا للفضة لعام ١٩٧٩م
صادر عن المكتب الأمريكي للمناجم
(الكميات مقدرة بملايين الأونصات).

الدولة	الإنتاج	الاستهلاك
الولايات المتحدة	٣٨١	١٥٧٢
المكسيك	٤٩٣	٥٥
كندا	٣٦٩	٨١
ألمانيا الغربية	لا شيء	٣٧١
المملكة المتحدة	لا شيء	٢٦٥
فرنسا	لا شيء	٢١٥
بولونيا	٢٢٦	غير معروف
إيطاليا	لا شيء	٣٣٠
البيرو	٤٣٤	غير معروف
الشيلي	٨٧	غير معروف
الاتحاد السوفييتي	٤٦٠	غير معروف
الهند	لا شيء	١٩٠
أستراليا	٢٦٨	غير معروف
اليابان	٨٧	٦٨٧

ولأن الفضة الخالصة تكون طرية بحيث لا تتحمل الإجهادات المؤثرة فيها، فإن صانعي الفضة يصنعون أفضل الحليّ، وأدوات المائدة من سبيكة منها تتألف من ٩٢٥ جزءاً بالألف من الفضة مقابل ٧٥ جزءاً من الألف من معدن آخر يكون عادة النحاس، وذلك لتقسية الفضة حتى يمكن لأصابع شوكة الأكل أن تتحمل الضغط الواقع عليها.

الفضة وصناعة الأفلام الحساسة

كان للارتفاع الاستثنائي للفضة عام ١٩٨٠م تأثير كبير في صناعة الأفلام الحساسة ومواد التصوير، وتضررت من جراء هذا الارتفاع قطاعات مختلفة، كالطب والصحافة، وكل الصناعات الأخرى التي تعتمد على الفضة في صناعتها، وأصيب الملايين من هواة التصوير عبر العالم بالإحباط بسبب ارتفاع أسعار الأفلام.

وللفضة خاصة متفردة في صناعة التصوير الفوتوغرافي. فبإضافة حمض الآزوت (النيتريك) HNO3 مع بعض الأملاح المناسبة إلى الفضة تتحول إلى بلورات مجهرية ماصّة للضوء. وإذا ثبتت هذه البلورات على سطح شريط بلاستيكي عُولج معالجة خاصة، ووضع في آلة التصوير (الكاميرا)، وعُرّض بعد ذلك تعريضاً مناسبًا للضوء المنعكس على شجرة مثلاً فسوف تتشكل دقيقة من ملح الفضة في كل نقطة يصل إليها شعاع ضوئي. وبتحميض الفيلم في محلول الاستظهار الكيماوي تتحول كل دقيقة من ملح الفضة إلى حبيبة من الفضة البرّاقة. وتشكل هذه الحبيبات مجتمعة صورة الشجرة بما فيها من جذوع وسوق وأوراق.

وهذه التقنية التي تجعل من الفضة «مرآة الذكريات» هي تقنية أمينة ودائمة وسريعة كما يقول الدكتور جاك توماس مدير مختبرات البحوث في شركة كوداك لصناعة الأفلام الحساسة في نيويورك. وهو يضيف إلى ذلك قوله إن مجرد بلورة واحدة صغيرة من أحد أملاح الفضة يمكنها أن تكشف الضوء الساقط على الأرض من شمعة موضوعة على سطح القمر.

وما من صناعة تستهلك من الفضة مثل صناعة الأفلام الحساسة. ففي الولايات المتحدة يبلغ استهلاك هذه الصناعة وحدها نسبة ٤٢٪ من مجموع الاستهلاك العام من الفضة، وتأتي الصناعات الكهربائية في المرتبة الثانية بنسبة ٢٤٪، ثم صناعة الأواني الفضية بنسبة ٨٫٣٪.

إنتاج الفضة من المناجم

إن الإنسان الذي يبحث عن الفضة المخزونة في الأرض يتوجب عليه أن يبلغ بعض الحدود القصوى للأشياء؛ فأحد مناجم مدينة كازابالكا CASAPALACA في جبال الأنديز

البيروفية يبلغ عمقه ١٨٠٠ متر تحت سطح الأرض، وهو محفور قريبا من قمة جبل ارتفاعه نحو ٤٥٠٠ متر. فهذا المنجم، والحال هكذا، من أعمق حفر الأرض الموجودة على أعلى قممها.

ومعظم الفضة العالمية تستخرج من السلاسل الجبلية لأمريكا الشمالية والجنوبية، وخاصة جبال الروكي، والسييرا المكسيكية، والأنديز. وهناك كميات منها في شرقي كندا، وأستراليا، والاتحاد السوفييتي. وعادة تكون الفضة حبيسة ضمن الطبقات الصخرية الحاوية على خامات النحاس، والرصاص، والتوتياء (الزنك). وتتجمع بعض الفضة في جيوب طويلة متعرجة تدعى العروق VEINS يراوح عرض الواحد منها بين عدة سنتيمترات ومتر واحد. وفي كازابالكا يعمل نحو ٨٠٠ عامل في عشرة عروق سمك الواحد منها ٣٠ سنتيمتراً. وكلما استخرجوا طناً من الصخور وغربلوها يحصلون منها على خمس أونصات من الفضة.

وبعد أن تستخرج الفضة الخام من باطن الأرض تطحن حتى تصبح كالغبار ثم تفصل عن البقايا الصخرية العالقة بها ضمن أحواض من الماء الساخن الحاوي على بعض المواد الكيماوية حتى تصبح على شكل طين رمادي يشبه في لونه الصفوة. وتتولى المصافي تحويل الطين إلى حبيبات من الفضة المنصهرة الخالصة تصب على شكل قوالب براقة، لكل منها حجم رغيف الخبز الطويل. وعلى أن للفضة المنصهرة سلوكها الشاذ عندما تتبرّد في قوالبها. ففي البداية يشع القالب ضوءاً برتقاليًا وكأنه نار سائلة تغلي بقوة ضمن المصهر الحديدي، وعندما تبدأ بالتبرد تتحول إلى اللون الأحمر، وتزداد قساوة، ثم تسقط على أرضية المصفاة على شكل قضيب متوهّج مبقبق تشوّه سطحه بقع تشبه البثور أو القروح بسبب وجود وفرة من الأوكسجين. وبغمرها في بوتقة تحتوي على الفحم النشيط يتم تخليصها من الأوكسجين لتصب بعد ذلك في قالب آخر فيظهر بريقها، وتتجلى نعومتها ورونقها. ويبلغ وزن قالب الفضة نحو ٣٢ كيلو غراماً.



يدخل عنصر الفضة في صناعة مرهم «ديازين كبريت الفضة» SILVER SULFADIAZINE الذي يستخدم في علاج الحروق الجلدية



اشتهر الهنود الحمر بصناعة تشكيل الحلي الفضية المطعمة بالعقيق والعاج

وليريق الفضة قوة تثير الخيال، وتأسر النفس. ولقد سبق أن أثارت طمع الغزاة الإسبان أيام الفتوحات الاستعمارية عندما راحوا يستكشفون، وينبشون قصور مملكة البيرو القديمة بحثًا عن الفضة، وصادروا من ملك الإينكيين الذين كانوا يستوطنونها ما يملأ غرفة كاملة منها. وفيما بعد بدأ الإسبان بحفر المناجم للبحث عنها مستخدمين الآلاف من الهنود. وأخذوا يسرقونها من كل مكان ليصنعوا منها السكاكين، والأقراط، والأقنعة، والتماثيل، والتحف.

ولم ينج من سطو الإسبان إلا بعض القطع الفضية التي لم تكن تكفي لإنشاء متحف خاص بها؛ لذا ضُمّت إلى القطع الذهبية النادرة في متحف البيرو للذهب في ليما.

ويذهب مؤرخو الحضارة الإينكية إلى أن الإسبان قضوا على الكثير من القطع الفضية التي كانت تجسد التراث الحضاري للإينكيين عندما صهروها، وضموها إلى ثروات (الملك وإسبانيا والرب...!).

المسكوكات الفضية

كان لملك إسبانيا، كغيره من ملوك الغزاة، حصة خاصة من الأسلاب الفضية التي يرجع بها جنوده من العالم الجديد تدعى «الخُمس الملكي» ROY-AL FIFTH، وكان جزء آخر منها يوظف في تمويل الحروب لفتح مناطق جديدة تضمن زيادة حجم الأسلاب، وجزء ثالث ضرب في عدد هائل من المسكوكات المتشابهة من فئة «ريال». وأول ريال إسباني فضي سُكّ في ليما عام ١٥٦٨م، وكان رقيقًا وصغيرًا. وسُكّت في ليما أيضًا «دولارات إسبانية» ثقيلة من الفضة بقيت متداولة في الولايات المتحدة حتى عام ١٨٥٧م.

وأما الفرنسيون والألمان، الذين تعودوا أن يبقوا دائمًا قليلي الثقة بالنقد الورقي بسبب الحروب الكثيرة التي خاضوها، وعصفت بقيمة عملتهم الورقية، فإنهم ما فتئوا يسكّون ملايين الأونصات من العملات الفضية. وفي المكسيك تستأثر مسكوكتان فضيتان، إحداهما من فئة ١٠٠ بيزو، والأخرى على شكل ميدالية تزن أونصة واحدة، وتدعى «أونزاس» ONZAS ومعناها «أونصة» بثقة كبيرة من الأثرياء المحافظين.



مجموعة رائعة من القطع الفضية من مقتنيات أحد المتاحف الإسبانية

وللفضة حكاياتها في الهند..

ربما تكون أضخم قطعة فضية أبدعتها يد الإنسان هي تلك التي لم تزل موجودة في قصر «كسانادو» XANADU الوثير الذي كان يقطنه «مهراجا» ولاية جايبور الهندية. وهي إبريق ضخم لحفظ الماء استهلك صنعه أكثر من ١٠٠٠٠ أونصة من الفضة الخالصة (نحو ٣١٠ كيلو غرام)، ويبلغ ارتفاعه نحو ١٨٠ سم ومحيطه كمحيط فيل هندي صغير. وعندما هم المهراجا (الأمير) بالسفر إلى إنجلترا عام ١٩٠٢م لحضور حفل تتويج الملك إدوارد السابع ملأه بنحو ٦٨٠٠ لتر من مياه نهر الغانج (المقدس!)، واصطحبه معه ليشرب منه في أثناء رحلته.

ومخزون الهند من الفضة هو من بقايا الإمبراطوريات التي كانت تستأثر بثروات العالم كالإمبراطورية البرتغالية، والفرنسية، والإنجليزية، وخلّفت هناك أطنانًا من السبائك والمسكوكات والتحف الفضية التي كانت تدفعها ثمنًا للتوابل، والحرير، والشاي، وحتى الآن يمكن للهنود أن يشتروا الفضة من مخزونهم بسعر يقل عن السعر العالمي بمقدار الثلث؛ لذا فإن الدولة فرضت حظرًا على تصديرها أو إخراجها من البلاد. ووجد المهربون فرصتهم بتجارة تهريب الفضة بالزوارق إلى دول الخليج العربي وخاصة الإمارات العربية المتحدة حيث يبيعونها هناك للتجار الذين ينقلونها بدورهم إلى سويسرا وإنجلترا وألمانيا لبيعها هناك بأسعار مرتفعة. وتقدر الإحصاءات أنه تم تهريب نحو ٢٥ مليون أونصة من الفضة في عام ١٩٨٠م وحده بهذه الطريقة.



الإشعاع في تعقيم المواد الغذائية ضرورة أم ضرر؟

علي صالح الناصر

يصاب كثير من الناس بالذعر عند سماع كلمة إشعاع، وذلك بسبب التكثيف الإعلامي لحوادث الإشعاع، وخصوصاً حادثة المفاعل النووي في تشرنوبيل. فكيف إذا استخدم الإشعاع في تعقيم المواد الغذائية؟ وماذا ستكون ردة فعل الغالبية العظمى من الناس؟

قد حدث جدل كبير في الندوة السعودية الثالثة للغذاء والتغذية التي عقدت في جامعة الملك سعود في المدة من ٦ ـ ٩ شوال ١٤١٩هـ حول التوصية الخاصة بتشجيع استخدام الإشعاع أو التشعيع في تعقيم التمور، والقضاء على الحشرات والديدان التي تصيبها. وللاعتراض الشديد من كثير من الحضور على هذه التوصية فقد تم تحويل صيغتها إلى تشجيع الدراسات حول هذا الموضوع. وفيما يلي سوف نتطرق إلى نوع الأشعة المستخدمة في تشعيع الغذاء، ومدى تأثيرها في التركيبات الكيماوية والفيزيائية للمواد الغذائية، وفي البيئة.

Irradiation Labeling



"Treated with radiation"

"Treated by irradiation"

العلامة التي تشير إلى أن المادة الغذائية معاملة بالاشعاع

تتكون الإشعاعات المستخدمة في تعقيم المواد الغذائية ومعالجتها من أشعة جاما، والأشعة السينية (أشعة إكس)، والإلكترونات المسرعة، ويطلق على هذه الإشعاعات اسم الإشعاعات المؤيّنة. وتعد أشعة جاما، والأشعة السينية من مكونات الطيف الكهرومغناطيسي في جزء الطاقة العالية، وهي ذات موجات قصيرة. ويتم تولد الأشعة السينية بواسطة جهاز خاص نتيجة الاختلاف في طاقات معينة. أما أشعة جاما فتنشأ من عناصر مشعة، أو نظائر مشعة نتيجة لتفككها تلقائيًا. وتكون العناصر المشعة الطبيعية أو الصناعية غير مستقرة وتنطلق مع تفككها التلقائي إشعاعات، ثم تتحول إلى حالة عناصر ثابتة، ولكل عنصر مشع نوعية معينة من

الإشعاع يمكن معرفتها وقياسها. والبكريل هي وحدة قياس أشعة جاما وتساوي تفككًا واحدًا في الثانية الواحدة. والعناصر المشعة المسموح باستخدامها في تشعيع الغذاء هي الكوبالت - ٦٠، والسيزيوم - ١٣٧ (نادرًا ما يستخدم الآن)، كما يمكن استخدام آلات الأشعة السينية، وآلات قذف الإلكترونات المسرعة.

اعتقاد غير صحيح

الطاقات الناتجة من هذه المصادر منخفضة جدًا إلى حد أنها لا تسبب تحريض الفعالية الإشعاعية في أي مادة بما في ذلك المواد الغذائية. وأشعة جاما والأشعة السينية أكثر اختراقًا للغذاء من الإلكترونات المسرعة.

وتعرف وحدة قياس التشعيع بالجري GRAY (GY)، وهي كمية الطاقة الإشعاعية التي يمتصها الغذاء. وقد اتفقت سلطات الصحة والسلامة الدولية على تشعيع الغذاء حتى جرعة تشعيعية تبلغ ١٠٠٠٠ (١٠ كيلو جري K GRAY) كحد أقصى.

تشعيع الغذاء لا يجعله ذا فعالية إشعاعية

قد يعتقد كثير من الناس أن تشعيع الغذاء يجعله ذا فعالية إشعاعية (أي يصبح مادة مشعة). وهذا الاعتقاد غير صحيح تحت الظروف المسموح بها في تشعيع الغذاء، إذ يتم في البلدان التي يسمح بها تشعيع الغذاء تنظيم مصادر الإشعاع، ومستويات طاقاتها، والتحكم فيها.

وتتضمن عملية تشعيع الغذاء مروره في حقل إشعاعي عند سرعة محددة، ووقت معين، بينما يتم التحكم بمقدار الطاقة أو الجرعة التي يمتصها من دون أي تماس مع المصدر الإشعاعي. وتجب الإشارة هنا إلى أن كل ما هو موجود حولنا، بما في ذلك الغذاء، يحتوي على آثار من الفعالية الإشعاعية (المواد المشعة) الطبيعية من عناصر مثل البوتاسيوم، ولا يمكن التخلص منها في وجباتنا الغذائية. أما الأغذية ذات الفعالية الإشعاعية (التي تحتوي على عناصر مشعة أعلى من المعدل الطبيعي) فهي تلك التي أصبحت ملوثة بمواد وعناصر مشعة وصلت إليها عن طريق التلوث من اختبارات الأسلحة النووية، أو نتيجة لحوادث المفاعلات النووية. وهذا النوع من التلوث ليس له صلة البتة بالأغذية المشعة

استخدام التشعيع في الغذاء لا ينطوي على مخاطر صحية، بل يقضي على كثير من الكائنات الدقيقة غير المرغوب فيها

التي عولجت عن قصد لحفظها ولأغراض أخرى. من الطبيعي أن تحدث تغيرات كيماوية في الغذاء المعرض للإشعاع. وينتج من بعض التغيرات مواد تعرف بمنتجات التحلل الإشعاعي. وهذه المنتجات منتشرة وشائعة مثل الجلوكوز وحمض الفورميك والأسيتالدهيد وثنائي أوكسيد الكربون، وهي موجودة في الأغذية بصورة طبيعية أو تتشكل فيها بفعل تداول الغذاء أو الحرارة (التسخين). ولقد تم إجراء عدد من الاختبارات العلمية استخدمت فيها تقنيات وأجهزة تحليل دقيقة جدا وشديدة الحساسية بغية تعرف منتجات التحلل الإشعاعي، فاتضح أنها موجودة دائما، وبكميات متفاوتة في الفواكه واللحوم والأسماك. وتصنف إدارة الأغذية والعقاقير FDA الأمريكية تشعيع الأغذية كمواد مضافة، حيث ينص نظام المواد المضافة إلى



طرائق الحفظ تؤثر في القيمة الغذائية أكثر من التشعيع



منتجات التحلل الإشعاعي موجودة بكميات متفاوتة في المواد الغذائية

الغذاء ضرورة التأكد من أنها غير ضارة بالصحة ومأمونة SAFE، وكذلك تقوم إدارة الأغذية والعقاقير FDA بدراسة كل الأبحاث العلمية المتعلقة بهذا الشأن وتقويمها. ولقد قدرت هذه الإدارة الكمية الإجمالية لمنتجات التحلل الإشعاعي التي لا يمكن تحريها، والتي يمكن أن تكون قد تشكلت عند تشعيع الغذاء بجرعة واحد كيلو جراي GRAY أنها أقل من ٣ مللي غرام لكل كيلو غرام واحد من الغذاء (أي أقل من ٣ أجزاء في المليون).

الفيتامينات حساسة

قد يتساءل بعض الناس عن تأثير التشعيع في القيمة الغذائية للغذاء. ولقد أوضحت البحوث العلمية المكثفة أن عناصر التغذية الرئيسة كالبروتينات، والمواد الدهنية والمواد الكربوهيدراتية ثابتة نسبياً في الجرعات التشعيعية حتى مستوى ١٠ كيلو جراي. أما عناصر التغذية الأخرى، مثل الفيتامينات فهي حساسة لأي طريقة لمعالجة الأغذية، بما في ذلك التشعيع.

ومثال ذلك أن فيتامين ب ـ ١ (الثيامين B - 1) و ج C حساسان للتشعيع والحرارة. وقد أصدرت لجنة الخبرة المشتركة (بين منظمة الأغذية والزراعة FAO، ومنظمة الصحة العالمية WHO، والوكالة الدولية للطاقة الذرية IAEA) في عام ١٩٨٠م تقريراً يفيد أنه لا ينتج من التشعيع مشكلات غذائية معينة. بل إن طرائق حفظ الأغذية التقليدية تؤثر في القيمة الغذائية للأغذية.

تنص الأنظمة والقوانين الأمريكية الخاصة على ضرورة إضافة «معامل بالإشعاع» لجميع المواد الغذائية المعاملة بالتشعيع



عناصر التغذية الرئيسة كالبروتينات والمواد الدهنية والكربوهيدراتية لا تتأثر بالتشعيع

مثال ذلك أن قياس تركيز فيتامين ج C في ثلاثة أصناف من تفاح محفوظ بالتبريد مدة سنة أوضحت انخفاضًا في التركيز راوحت بين ٤٠٪ و ٧٠٪ حسب الصنف. ولم يذكر مع ذلك أبدًا أن تخزين التفاح بالتبريد غير ملائم، ولا ينبغي استخدامه.

لا مخاطر صحية

وقد قامت إدارة الأغذية والعقاقير FDA الأمريكية بتقديم عدد كبير من الدراسات التي تناولت استخدام التشعيع في الغذاء من نواحٍ كثيرة، منها اعتبارات علوم السموم Toxicological considerations، والاعتبارات الغذائية Nutritional considerations، ونواحي تأثير تشعيع الغذاء في الكائنات الدقيقة MICROBIOLOGY CONSIDERATIONS. وقد تمت دراسة عدد من البحوث والدراسات العلمية المتعلقة بتغذية مئات من الحيوانات الحية بمواد غذائية معاملة بالإشعاع، وأوضحت هذه الدراسات أن استخدام التشعيع في الغذاء لا ينطوي على مخاطر صحية، كما أنه لا يؤثر بدرجة كبيرة في الناحية الغذائية، بل يحدّ، ويقضي على كثير من الكائنات الدقيقة غير المرغوب فيها في المواد الغذائية. ويبين الجدول (الصفحة المقابلة) أسماء بعض المواد الغذائية المسموح بتشعيعها، وسبب التشعيع، ومقدار أقصى جرعة إشعاع مسموح تعريض الغذاء لها.

كما تنص الأنظمة والقوانين الأمريكية الخاصة ببطاقة المواد الغذائية على ضرورة إضافة عبارة «معامل بالإشعاع» TREATED WITH RADIATION OR TREATED BY RADIATION لجميع المواد الغذائية المعاملة بالتشعيع. كما تتضمن البطاقة الشعار الموضح بالشكل رقم(١).

عند تشعيع المواد الغذائية تتخذ إجراءات وقائية لضمان عدم تسرب الأشعة إلى الخارج، ولضمان سلامة العاملين



توجد اختبارات علمية لتحديد مدى تعرض اللحوم والدواجن والأسماك للتشعيع

نوع الغذاء	سبب التشعيع	الجرعة K GAY MAX
الأغذية الطازجة	وقف النمو والتبرعم	١
الأنزيمات	تعقيم	١٠
البهارات	تعقيم وتطهير	٣٠
الدواجن	السيطرة على البكتيريا الممرضة (بكتيريا السالمونيلا)	٣
الأغذية واللحوم المبردة	السيطرة على البكتيريا الممرضة	٥ر٤
الأغذية واللحوم المجمدة	السيطرة على البكتيريا الممرضة	٧

إجراءات وقائية

يتم نقل المنتجات الغذائية المعبأة أو المغلفة، أو المنتجات السائبة إلى داخل غرفة التشعيع، ثم إلى خارجها آليًا بواسطة نظام نقل ثابت، وتمر المنتجات في حقل الأشعة داخل الغرفة بمعدل وسرعة محددين، ومراقبة دقيقة، ثم تدار حول نفسها، حيث تتعرض للإشعاع بشكل صحيح ومتساوٍ. ويمكن نقل المنتجات وتفريغها وشحنها مباشرة بعد التشعيع. تتم معالجة وتعريض المواد المراد تشعيعها داخل غرفة مركزية ذات جدران سميكة من الخرسانة وأبواب صممت خصوصًا لمنع تسرب الأشعة إلى الخارج. وتوجد أنظمة تحسس وإنذار لا تسمح بوجود مصدر الإشعاع إلا بعد التأكد من أن جميع الأبواب موصدة بإحكام. يحفظ مصدر الإشعاع في حفرة (بئر) عميقة لمنع تعرض العاملين للإشعاع إذا كان لابد من دخولهم الغرفة، ويتم صعود مصدر الإشعاع آليا إلى غرفة التشعيع عند الحاجة.

ولا تتراكم في منشآت تشعيع المواد الغذائية مشكلات تتعلق بطرح نفايات نووية، وبخاصة عند استخدام أشعة جاما، إذ يستخدم عنصر الكوبالت - ٦٠، أو في حالات نادرة عنصر السيزيوم - ١٣٧ كمولدات لأشعة جاما، ويتحلل هذان العنصران مع مرور الزمن، فيتحولان إلى عنصرين آخرين هما النيكل والباريوم في حالة مستقرة (غير مشعة). وتستبعد



عملية التشعيع لا تغير مظهر المنتج أو درجة حرارته

مصادر الإشعاع عندما ينخفض النشاط الإشعاعي إلى مستوى منخفض يراوح بين ٦٪ إلى ١٢٪ من مستوياتها الأصلية. وقد يستغرق مدة تراوح بين ١٦ إلى ٢١سنة بالنسبة إلى الكوبالت ـ ٦٠. ثم توضع العناصر في حاويات خاصة، وترسل إلى المصنع الأصلي ليتم تخزينها أو إعادة تنشيط قدرتها الإشعاعية. أما بالنسبة إلى المباني فلا يوجد أية مخاطر إشعاعية بعد إغلاق منشأة التشعيع، وتفكيك المعدات.

ووقعت بعض الحوادث المحزنة في منشآت التشعيع على المستوى الصناعي، مما ترتب على ذلك تضرر العاملين، أو موتهم بسبب تعرضهم المفاجئ لجرعة مميتة من الأشعة. قد وقعت الحوادث جميعها بسبب إهمال أنظمة السلامة، أو لعدم اتباع إجراءات المراقبة الصحيحة. ولكن لم ينتج من أي من هذه الحوادث الإضرار بالصحة العامة، أو بسلامة البيئة.

وتوجد عدة اختبارات علمية لتحديد هل كانت اللحوم والدواجن والأسماك قد سبق تشعيعها؟ ولكن لم يتم حتى الآن تحديد طريقة وحيدة يعول عليها تمكن من تحري التشعيع في جميع المواد الغذائية، أو معرفة مستوى الجرعة التشعيعية؛ ويرجع ذلك إلى أن العملية التشعيعية لا تغير من الناحية الفيزيائية مظهر المنتج، أو شكله، أو درجة حرارته، كما أن التغيرات الكيماوية التي تحدث لا تكاد تذكر.

وتجدر الإشارة هنا إلى جهود المجموعة الاستشارية الدولية لتشعيع الأغذية ICGFI تحت رعاية منظمة الأغذية والزراعة FAO التابعة للأمم المتحدة، ومنظمة الصحة العالمية WHO، والوكالة الدولية للطاقة IAEA لتزويد الحكومات حول هذا الموضوع بالإرشادات وإصدار سلسلة «نشرات حقائق».

المراجع

١. حقائق حول تشعيع الأغذية
FACTS ABOUT FOOD IRRADIATION
ترجمة الدكتور نزار أحمد، دمشق، هيئة الطاقة الذرية، مطبوعات هيئة الطاقة الذرية، دمشق ـ سورية ١٩٩٤م.

الذيول الفلسفية لميكانيكا الكم

انهيار الحتمية والموضوعية وولادة فكرة القانون

خالص جلبي

في عام ٤٥٠ قبل الميلاد عاش الفيلسوف زينون ZENON في مدينة إيليا الواقعة في جنوب إيطاليا(١) وأثار تناقضاً عقلياً لم تفارق مخيلة الفلاسفة وتفكيرهم عبر العصور، حتى أدركت مغزاه العميق الرياضيات الحديثة المتمثلة في ميكانيكا الكم.



أرسطو

ولادة ميكانيكا الكم

ما الشيء المثير في قصة هذا الفيلسوف الذي مات ولم يدع الفكر الإنساني يرتاح حتى القرن العشرين؟! ما هو المصطلح: ميكانيكا الكم؟ أين ولد؟ وعلى يد من؟ ما ظروف ولادته؟ ما أثره في الفكر الإنساني؟ ما الآثار الفلسفية التي انبثقت من رحمه؟

لنبدأ بالقصة المسلية، قصة السهم الذي لايطير، والعدّاء الذي يريد السباق فتتسمر قدماه في الأرض، وإذا أراد بطل طروادة (أخيل) أن يلحق بالسلحفاة، عجز عن ذلك مهما حاول وبذل!!

مفارقة زينون الإيلي(٢)

PARADOX OF ZENON

إن السهم الذي ينطلق لا يطير، والقذيفة التي تندفع تبقى مسمّرة في مكانها، والعدّاء الذي يركض في الملعب واقف في مكانه؟!! هذه الكلمات قد يتوقف القارئ عندها ليعيد قراءتها والتأكد منها هل هناك خطأ مطبعي؟ لا إن العبارة قد أُنتقيت على وجه الدقة.

فالفيلسوف كان يعني ما يقول، وهو يرى الكون يضج

بالحركة من حوله!! فكيف وصل إلى هذه النتيجة العجيبة؟

إن السهم حتى يطير، والعدَّاء حتى يركض، أو أخيل حتى يلحق بالسلحفاة فإن النتيجة واحدة، فلا السهم يطير، ولا العداء يتحرك قيد أنملة في الركض، فهو مسمر في مكانه، ولن يلحق أخيل بالسلحفاة مهما حاول وبذل من جهد!! ولكن كيف؟؟

طرح زينون الموضوع على الصورة التالية: حتى ينطلق العدَّاء مسافةً ما، فإنه لابد له من قطع نصف المسافة، ولكن نصف المسافة بذاته حتى يُقطع لابد من قطع نصفه أيضًا، أي ربع المسافة سابقًا، وهكذا فنحن من دون توقف مع حركة (نصف النصف) إلى ما لا نهاية؟! بكلمة ثانية فإن العدَّاء حتى يبدأ في الانطلاق، وفي كل مرة، مازال أمامه من دون توقف نصف نصف المسافة، فيبقى مسمرًا في مكانه؛ لأن رحلة (اللانهاية) ليس لها توقف!!

ينطبق هذا أيضًا على حركة السهم فهو في اللحظة الواحدة يشغل مكانًا واحدًا، فلا يستطيع أن يشغل مكانين في الوقت نفسه، أي هو ساكن فيه، إذ لو كان متحركًا لا نتقل في الحيز، ونظرًا لأن مجموع حركات السهم هي مجموع (هذا السكون) كان معناه أن السهم لا يتحرك؟! كما أن أخيل الذي يريد أن يلحق بالسلحفاة البطيئة لن يصل إليها مهما حاول؛ لان أمامه أن يقطع دوما نصف (نصف) المسافة التي بينهما، ولكن السلحفاة هي دوماً أمامه مهما تكن المسافة تافهة، لأنه سينحبس في نصف النصف الذي يفصله عن السلحفاة من دون نهاية!!

فك معضلة زينون

ولكن مهلاً يا سيد زينون إن ما نراه أن السهم يتحرك فيجرح ويقتل، وقذائف الصرب قطعت أجسام المسلمين في سراييفو وتوزلا وسواهما من المدن، كان (زينون) يجيب بكل هدوء: نعم وأنا معكم في أن ما نراه أمامنا من حركة السهم وأثره واقع، ولكنني أحسبه بحكم الوهم؛ لأنني لا أجد سنده العقلي مبرهنًا كما أن الحجج التي أتقدم بها لا تدحض!!

فالتحليل العقلي البارد مبرهنًا كما ترون يقودني إلى أن السهم لا يتحرك والعداء مسمَّرٌ في مكانه وأخيل لن يلحق بالسلحفاة(٣) فالمكان كما ترون مكون من نقط لا تنتهي، والزمان مكون من آنات لا تخلص، ولما كان الجسم المتحرك بين نقطتين يكون في أثناء حركته بينهما خارج المكان؛ فإن الحركة تصبح ممتنعة لانعدام المكان الذي تحدث فيه(٤).

لفك هذا الإرباك العقلي لفهم الكون والحركة فيه تعددت الإجابات بدءًا من أرسطو إلى أيامنا الحالية مرورًا بفلاسفة المسلمين الأشاعرة الذين قالوا بالجزء الذي لا يتجزأ، فتقسيم زينون يجب أن يتوقف عند حافة ما من أجل تمرير الحركة من نقطة إلى أخرى، وانتهاءً بالفيلسوف البريطاني برتراند راسل الذي طرح فكرة «الكانتور في اتصال الكم الرياضي» لفك معضلة زينون. عندما نتصور وجود عدد لا نهائي من النقط بين نقطتين، فإن هذا يفضي إلى اجتماع النقاط فتتصل الحركة. فمشكلة الحركة التي أثارها زينون قديمًا ليست بهذه السهولة أو السخف، بل تقوم على جدل عميق، وهي في الواقع محاولة لفهم الحركة وكيف تحدث من خلال التأسيس العقلي لها، فزينون أراد أن يثبت لمن حوله أن الحركة تحدث ليس على الطريقة التي يظنون، بل لها منطق خاص، وهذا هو الذي جاءت به ميكانيكا الكم حديثًا، فالعالم الفيزيائي هايزنبرغ الذي جاء بمبدأ الارتياب أو عدم التحديد: UNCERTAINTY - PRINCIPLE أو اللاحتمية (INDETERMINISM) أدرك أن زينون كان على حق واختصر المشكلة على النحو التالي في الفيزياء الذرية: لا نستطيع أن نعين - وعلى وجه الدقة - مكان الإلكترون وسرعته، فعندما نريد تعيين مكانه نُخفق في معرفة سرعته، وإذا عرفنا سرعته غاب عن أعيننا وكأنه الشبح فتبخر فلا نعرف أين اختبأ؟! أو بكلمات زينون القديمة: لا يمكن للجسم أن يشغل حيزا، ويكون متحركًا في الوقت نفسه، أي بكلمة ثالثة: إذا عرفنا مكان السهم، لم نعرف حركته (سرعته)، وإذا عرفنا سرعته لم نعرف مكانه؟! هذا هو لب مفهوم ميكانيكية الكم الحديثة.

ولكن من أين انقدحت هذه الفكرة الثورية في ذهن

إسحق نيوتن



الفيزيائي الألماني هايزنبرغ؟ للجواب عن هذا لابد من الرجوع إلى شتاء عام ١٩٠٠م مع بدء تدشين القرن العشرين، عندما تقدم ماكس بلانك بمعادلة رياضية بسيطة مكونة من ثلاثة أحرف تدمج بين طاقة المادة وتواترها بثابت رياضي (E = H.F) عرف فيما بعد بثابت بلانك، وقيمته بسيطة جداً هي ٦ر٦ مضروبة في عشرة قوة ٢٧ سالب (٦،٦) ارج ١ ثانية، وتذكرنا بمعادلة آينشتاين المكونة أيضاً من ثلاثة أحرف التي دمجت بين الطاقة والمادة بومضة عبقرية (E=M.SS) حينما اعتبرت أن الطاقة تعادل الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء، والآن ما الرائع في معادلة ماكس بلانك؟

يروي الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين» عن «ابن النَّظَّام» أنه حضر مجلس (أبو شمرة) الذي كان يقول إن البيان يجب أن يعبر عن نفسه بنفسه، من دون أي إضافات عليه، وهكذا فالمتحدث يجب أن لاَ يحرك رأسه، ولا يشير بيديه، ولا يضحك ولا يبكي، ولا يرفع صوته، ولا تبوح قسمات وجهه بأي شيء، فكان أبو شمرة إذا تكلم خرج الكلام منه وكأنه يخرج من صدع صخرة؟! والتلامذة من حوله منهمكون في نقل الأمالي، يُطَوِّقهم سكون يذكر بالمقابر!! فلما حضر ابن النظّام اعترض عليه فأكثر؛ فقفز في النهاية أبو شمرة من كرسيه - عفواً من صدع صخرته - ليجلس على الأرض مع ابن النظّام وهو يخبط على فخذيه، وانفجرت قسمات وجهه عن بعض تعبيرات الحياة!! فكان الجاحظ يعلق على ذلك بأن التلاميذ الذين لم يكونوا يعترضون، هم الذين أعطوه الهيمنة والاستمرارية بهذا الأسلوب، وكان دور ابن النظّام هو تفجير هذا الجو الراكد وتحريكه ودفع الحياة في مفاصله.

أوردنا هذه القصة الظريفة عن (ابن النظّام) ذي العقل الجبار، الذي لم يُعَمَّر أكثر من ٣٦ عاماً، وخلّف وراءه مدرسة فكرية مازال التاريخ يذكرها حتى اليوم، وهذا هو شأن المبدعين، فهايزنبرغ أيضاً وصل إلى الفتح العبقري في مبدأ الارتياب، وطور ميكانيكا الكم وهو دون الثلاثين من العمر.

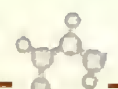
برتراند رسل

ابن النظّام درس أيضاً مشكلة الحركة وإشكالية زينون السابقة، وخرج بحل يقترب من فكرة ميكانيكا الكم الحديثة على ما ذكره محمد إقبال في كتابه «تجديد التفكير الديني»، فاقترح فكرة غريبة مضمونها «الطفرة أو الوثبة»، وهي تذكر بمبدأ ميكانيكا الكم، وهو أن الطاقة تنبعث على شكل رزم و حزم أو (كميّات) «فتخيل الجسم المتحرك لأعلى أنه يمر بجميع النقط المنفصلة في الفراغ بل على أنه يثب من موضع إلى آخر» فيعلق إقبال على هذا: «ولكني أذكر أن دراسة الذرة في الطبيعيات الحديثة صادفت معضلة شبيهة بهذه، وأن الفرض الذي قيل لحلها كان شبيهاً بقول النظّام بالطفرة، وإذا أخذنا بالتجارب القائمة على نظرية بلانك الخاصة بمقدار الطاقة المشحونة في الذرة فإنا نستطيع تصور حركة الذرة متصلة في مجالها».

ما الجديد في فكرة أو قانون ماكس بلانك؟

الفيزياء القديمة كانت ترى أن الوصول إلى قوانين يتم بحياد كامل، وبموضوعية نقية!! فالراصد يتأمل الكون من حوله فـ (يراقب)، وبعد ذلك يقوم بالتجربة للتأكد من الملاحظات التي جمعها. وهكذا تمتاز القوانين التي يتم استخراجها من هذا النظم بـ (الحتمية)، والحتمية تولدت من الموضوعية OBJECTIVITY الباردة، من ثم يبقى تحصيل حاصل أن التنبؤ العلمي SCEINTIFIC PREDICTION هو في أيدينا، مادام قد تحول العالم إلى آلة ميقاتية ضخمة، واتصل المستقبل بالماضي من خلال لحظة الحاضر، يكفي أن نُحَلّل الحدث لنعرف ما حدث في الماضي، ثم نتوقع ما سيحدث في المستقبل، من خلال إدراك القوانين الكونية.

قامت فيزياء نيوتن باختراق فلسفي مهم، وهو إدراك فكرة القانون الشمولي، وهكذا أمكن لنيوتن تطبيق قانون الجاذبية بصفة كونية، وفكرة القانون عنده تتولد منها أربع نتائج فلسفية أساسية كان لها الأثر البعيد في الفكر الإنساني: فالقانون يقوم بعملية مسح رادارية رائعة لكل مستويات الوجود، وهكذا فالقانون يسري من عالم الفيزياء إلى البيولوجيا، من خلجات



النفس إلى حركات المجتمع ونبض التاريخ، والسنة تمتاز بالحتمية كما ذكرنا، فتوافر شروطها الأولى يعطي نتائجها قضاء لا يرد، ومن هنا نفهم ولادة (الأيديولوجيا) والحتمية التاريخية للماركسية من خلال المادية الجدلية، والقانون ثالثاً: كائن موضوعي، ومن هنا نسمع بين الحين والآخر: فهم موضوعي، وتفسير موضوعي، وما شابه ذلك، والقانون أخيرا يتسم بالصفة العلمية عندما يمنح التسخير والقدرة على التنبؤ، وهذا ينطبق على كل شرائح الوجود، من الطبيعة، والبيولوجيا، وكيان النفس الداخلي. فالمدرسة السلوكية مثلاً أرادت أن تبرمج الإنسان إلى نموذج الآلة، كما أن قوانين المجتمع لا تخرج عن حتمية غليان الماء عند الدرجة ١٠٠ سنتغراد مثلا، ولكن التفسخ الفعلي لمجموعة هذه الأفكار جاء من داخلها، وكانت بداية الانهيار مع معادلة ماكس بلانك، الذي فسر إصدار المعدن لألوان مختلفة مع ارتفاع درجة حرارته، وما تلا ذلك من الاستفادة من معادلته في تفسير البناء الذري على يد نيلز بور، ثم تفسير حركة الإلكترون وتطوير مبدأ الارتياب على يد هايزنبرغ.

كانت الحتمية، والموضوعية، وحياد الراصد، والقدرة على التنبؤ المطلق هي روح العصر في القرن التاسع عشر الذي ولد الفلسفة الميكانيكية العقلية، ولكن مع نهاية القرن انفجر بركانان: الأول كان في الأرض في جزيرة كراكاتو في أندونيسيا، وأما الآخر فكان في الكشوفات العلمية المتلاحقة التي قادت إلى الثورة العلمية الجديدة التي لم تنته بعد فهي تغير وجه العالم حتى هذه اللحظة.

بركان كراكاتو وبركان الثورة العلمية الجديدة

في صيف ١٨٨٣م انفجر بركان في جزيرة كراكاتو بين سومطرة وجاوة، لعله الأعنف في تاريخ الجنس البشري، أودى بحياة ٣٦٠٠٠ إنسان، وغطست الجزيرة إلى عمق ٢٥٠ متراً تحت الماء، وانقذفت الحمم إلى ارتفاع ٨٠كم، وفرشت مساحة ٨٠٠ ألف كم مربع، كما غطّى سماء الأرض اسوداد رهيب شعر به أهل الأرض جميعا، وبقيت أتربة البركان تعمل عملها ثلاث سنوات لاحقة. أما في عام ١٨٩٥م فقد كشف رونتجن مصادفة عن أشعة من شكل غريب تخترق العظام سماها الأشعة المجهولة (فأخذت اسم الأشعة السينية)، وفي عام ١٨٩٦م كشف بيكريل ظاهرة الإشعاع الذاتي، وفي عام ١٨٩٧م كشف طومسون الإلكترون، وفي عام ١٨٩٨م عزلت عائلة كوري الراديوم المشع، وعرف أن في الطبيعة عناصر نادرة عجيبة تقوم ببث الإشعاع تلقائياً مما هدم النظرية القديمة في زاويتين: تحول العناصر بعضها إلى بعض، وإشعاعها من دون مؤثر خارجي، ومن عام ١٩٠٠م تقدم ماكس بلانك في ١٧ ديسمبر/كانون الأول ليطرح معادلة كان لها أثر هائل في نمو ميكانيكا الكم كفهم جديد لـ: كيف تعمل الطبيعة؟ وكان مفتاح معادلة (ماكس بلانك) في ميكانيكا الكم هو تفسير العلاقة بين تسخين القضيب المعدني الأسود وتغير لونه (ظاهرة إشعاع الجسم الأسود) فما الذي يغير لونه مع استمرار التسخين، من الأحمر القرمزي إلى الأصفر ثم الأزرق وأخيراً عندما تتجاوز درجة الحرارة الألف تختفي الألوان وتتحول إلى اللون الأبيض؟! كيف تعمل الطاقة الممتصة بالتسخين؟ وما علاقة ذلك بإطلاق الضوء وكأنه اللحن المتموج النغمات؟ كيف تصدر الذرة الطاقة؟ وكيف ينطلق الضوء من الذرة؟ وما طبيعة الضوء عموماً؟ يقول ماكس بلانك عن نفسه: إنه وقع في حرج رهيب، أدخله في النهاية في يأس من الفيزياء

أينشتاين

كانت الحتمية، والموضوعية، وحياد الراصد، والقدرة على التنبؤ المطلق هي روح العصر في القرن التاسع عشر

القديمة، والتفكير باتجاه جديد لوضع قواعد جديدة لفهم الوجود، ولم يكن الأمر بهذه السهولة أمام قدسية أفكار نيوتن، ولكنه قفز أخيراً القفزة الكمومية: إن الطاقة التي يأخذها الجسم لا يصدرها كما أخذها، وفي مثلنا هذا الحرارة والضوء، فهو يصدر الطاقة على شكل رزم أو حزم أو كميات، وهذا الذي أعطى فيزياء الكميات أو الكم اسمه (ميكانيكا الكم) فالطاقة التي تصدر من الجسم المسخن تخرج على شكل رزم من الطاقة وبشكل (غير مستمر ومتواصل)، بل تنبعث وكأنها النفثات الروحية والكلمات المقطعة في الأغنية؟! وهذا يعني انقلاباً فلسفياً في فهم حركة الكون، الذي يقوم على الانفصال، وليس الاتصال، فإعلان ماكس بلانك كان معناه أن الكون سواء في تركيب المادة أو الطاقة يقوم على وحدات مجزأة منفصلة، فكما تقوم المادة على الوحدة الأولية (الذرة) كذلك تقوم الطاقة على وحدة (ثابت بلانك)، وهي كمية الطاقة (جزء من مليون مليون مليون مليار = عشرة مرفوعة إلى قوة ٢٧).

المجهر العادي والإلكتروني والسكلوترون

ولكن كيف وصل هينزبرغ إلى مبدأ الارتياب الذي تنبني عليه نتائج فلسفية في غاية الخطورة؟ إن هايزنبرغ ينطلق من شرح في غاية البساطة، فهو يقول: حتى نرى حركة الإلكترون لابد لنا من إنارته، وحتى نراه نحتاج إلى نورِ ذي موجة أقصر من حجم الإلكترون، ولكنا في اللحظة التي نصل إلى إنارة من هذا النوع ونقتحم فضاء الذرة الداخلي للرؤية؛ فإننا ندخل الفوضى، وننسف النظام الداخلي لها فهذه هي قاعدة مبدأ الارتياب، ولكن كيف يمكن الوصول إلى إنارة من هذا النوع؟

هل يمكن رؤية البناء الداخلي للذرة أم رؤية الإلكترون السابح؟

إن هذا يرجع إلى فكرة قديمة، وهي كيف نرى في العادة الأشياء تحت المجهر المكبر؟

فالضوء العادي الذي نرى به البكتيريا مثلاً تحت المجهر هو ذو طول موجة تراوح بين (٤.٠ - ٨.٠ ميكرون)، وهو شق بسيط في هذا الكون الذي نرى من خلاله بعض الموجات، ويبقى طيف الموجات ما قبل وما بعد موجات الضوء العادي شيئاً لا يقع تحت الحصر، وبواسطة المجهر العادي قد نرى الأشياء مكبرة حتى عشرة آلاف مرة في الحدود العليا، أما المجهر الإلكتروني فهو يكبر عشرات الآلاف من المرات، والسر في هذا طول موجة الإلكترون، فموجة الإلكترون أقصر من الضوء العادي بخمسة آلاف مرة، وبناء الذرة في غاية الصغر، بحيث لو أردنا تكبير كرة المضرب إلى حجم الكرة الأرضية لأصبح حجم الذرة مرئياً بحجم كرة المضرب، وإذا كبرنا الذرة الواحدة فأصبحت في حجم ملعب كرة القدم، فسنرى البروتون في نواة الذرة بحجم حبة الرز، وسيدور الالكترون في الغلاف الخارجي بسرعة تصل إلى عُشر سرعة الضوء، والمجهر الإلكتروني يقوم على استخدام موجة الإلكترون الموجهة بالعدسات المغناطيسية، وبذلك يمكن رؤية الأشياء مكبرة عشرات الآلاف من المرات، ولكن كيف سنرى الإلكترون؟

محمد إقبال

كيف تعمل ميكروسكوبات المادة؟

هذا ما مضى به العلماء حينما انهارت فيزياء نيوتن القديمة بتقدم الفيزياء الجديدة بقرني النسبية وميكانيكا الكم، فـ (طومسون) عندما أراد تسريع الإلكترون وصل إلى انهيار القانون الثاني لنيوتن الذي ينص على أن القوة التي تسارع

زينون: لا يمكن للجسم أن يشغل حيزاً، ويكون في الوقت نفسه متحركاً!!



المادة تبقى على ذلك في اتجاه الزيادة، بمعنى أن المزيد من تطبيق قوة التسارع تدعو إلى زيادة سرعة الالكترون. الذي حدث كان العكس فقد تباطأت سرعة الإلكترون، فكيف يمكن تفسير هذا الخرق لأهم مبادئ الفيزياء التقليدية؟ كان التفسير بشكل لاحق من النسبية التي تنص على أن زيادة السرعة تزيد من كتلة المادة ومن ثم تبطؤ السرعة، وحتى نرى الإلكترون بإنارته لابد من جزيء ذي طول موجة أقصر من الإلكترون فكيف يمكن تحصيل ذلك؟ جاءت الفكرة من (السكلوترون) أو لنقل هذا المرة (المجهر البروتوني)، ومرة أخرى من تطبيقات النسبية، فكما تولد من النظرية النسبية أن الكتلة تزداد مع السرعة، فإن الطول ينضغط مع زيادة السرعة أيضًا، فنحن إذا استطعنا أن ندفع بجزيء من المادة بحقل كهرطيسي، يزيد من تسارعه من دون حدود، أو لنقل - بكل دقة - بسرعات تقترب من سرعة الضوء، كون سرعة الضوء ثابتة حسب المعلومات التي رسا عليها العلم الحديث، وبنيت عليها النسبية (٣٠٠ ألف كم/ثانية)، فإن بالإمكان الوصول إلى موجات ذات قصر لم نحلم به من قبل، وقامت تصورات هايزنبرغ من هذه الأوساط، فسأل نفسه ما الذي يحصل عندما نصل من خلال هذه التقنية إلى رؤية الإلكترون؟

يئس ماكس بلانك من الفيزياء القديمة، ولكن لم يكن سهلاً عليه القفز على أفكار نيوتن المقدسة!!

انهيار الموضوعية وتحول المراقب إلى مشارك

يرى (هايزنبرغ) أن الدخول إلى العالم الذري يفسده، ويدخل عليه التشويش. وهو مفهوم جديد ومزلزل لطبيعة القوانين التي تحكم عالم المادة نزولاً وصعوداً. فهو يرى أن الدخول إلى أحشاء الذرة وإنارتها بأي وسيلة سوف تربك الإلكترون لكونها سوف - أي وسيلة الإنارة - تصطدم به بشكل أو بآخر ومن ثم فإنها سوف تفسد نظامه الداخلي، كما شبهها صاحب كتاب «القفزة الكمومية»، مثل العملاق الذي يدخل بيت الأقزام، فالعالم الذري وأدوات الوصول إليه لكشفه هو بين متحارجة: دقة الكشف وإفساده في الوقت نفسه، أو عدم الدقة والمحافظة عليه من دون فهمه؟! أو كما يقول المثل أمران أحلاهما مر!!

في مستوى الذرة إذًا لا توجد (موضوعية)، وحياد في الرصد، فالمراقب قد أصبح بهذا الشكل مشاركًا في الأحداث، كما أن طبيعة سلوك الذرات كما في الإشعاع الذاتي، أو قفزات الإلكترون خلعت من الذرة أي صفة حتمية، ومن ثم توقفت كل عمليات التنبؤ، وتحولت القوانين بكلمة ثانية إلى قوانين إحصائية، فيها طابع الاحتمالية، وليس قوانين فيها صلابة الحتمية.

يقول فيرنر هايزنبرغ في كتابه «الطبيعة في الفيزياء المعاصرة»: «إن المعرفة الناقصة عن المادة تمثل ولابد جزءاً جوهرياً من محتوى نظرية الكم، فقوانين هذه النظرية يجب أن تكون من روح إحصائية»(٥).

إذا كانت قوانين الذرة تقوم على الاحتمالية، وإذا توقفت القوانين الفيزيائية التقليدية عن العمل في مستوى الذرة، وتم تطوير علم جديد في فهم عالم الذرة ودونها من عالم الجزيئات الجسيمية، فهل غابت السننية وفكرة القانون عن العالم المرئي الذي نعيش فيه؟ وكيف يمكن فهمه؟ وهل أصبحت المعرفة مستحيلة؟

للإجابة عن هذا السؤال نحتاج إلى شوط جديد للغوص في فكرة القانون أو السنة، فالعالم يقوم على قوانين وسنن تنتظمه، ولكن السؤال الفلسفي يبقى: كيف يعمل القانون؟ ما نظامه الخاص؟ فنحن مع زينون في أن الحركة موجودة، ولكن لها منطقها الخاص الذي ينتظمها فكيف تحدث فعلاً؟ أشكرك أيها القارئ لصبرك معي حتى النهاية!!

هوامش ومراجع

١- يعدّ هو وبارمنيدس الذي سبقه من المؤسسين التاريخيين لمدرسة الجدل التي مرت بعد ذلك بكانت وهيجل، وفكرة مدرستهم تعتمد على نفي الكثرة (التعدد) والتغير ولذا فما نراه من مظاهر التغيير في الحياة وهم (راجع الموسوعة الفلسفية).

٢- زينون الإيلي هو غير زينون الإكتيومي (٣٣٣ - ٢٦٢ق.م) ،والأخير هو مؤسس المدرسة الرواقية STOICISM نسبة إلى الرواق (البهو ذو الأعمدة. حيث كان زينون يلقي دروسه وهو يمشي في الهواء الطلق). (نقلا عن الموسوعة الفلسفية الانجليزية. ترجمة فؤاد كامل. دار القلم ص ٢٣٧).

٣- تراجع الفكرة بالتفصيل في كتاب «القفزة الكمومية»، فريد آلان وولف، ترجمة أدهم السمان، دار طلاس - ص٢٧.

٤- تجديد التفكير الديني، محمد إقبال، ترجمة عباس محمود، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. ص٤٦، فصل البرهان الفلسفي على ظهور التجربة الدينية.

٥- الطبيعة في الفيزياء المعاصرة. ترجمة أدهم السمان، دار طلاس، ص٥٨.

الذباب
والحَوْم حول الحِمى

سعيد أحمد بيومي

إذا نقّت ضفادع بطنك، وأمضتك شدة الجوع، وشعرت بخواء معدتك على ضلوعها، ونفسك مفتوحة للأكل - أي أكل - وأنت مؤهل للالتهام، أولاً عن آخر؛ لتمسك عليك رمقك، ووضع الطعام بين يديك، وفيه ما لذ وطاب، كما يبدو في ناظريك، وشمرت عن الساعدين، وقلت: بسم الله.. وفجأة وقعت ذبابة في الطعام.. فماذا تفعل؟ هل تتركها وتلقي بالطعام الذي وقعت فيه؟ أم تغمسها، وتطرحها مصحوبة باللعنات والشتائم؟ أم إن التوقيت هو الذي سيملي عليك تصرفك؟ فإن كنت في أول الشهر - يعنى في أيام العز - فستلقي بالطعام، وتأتي بغيره، وإن كنت في آخره - يعني في أيام البؤس - فستأكل وأمرك لله!

عالم مذبوب!!

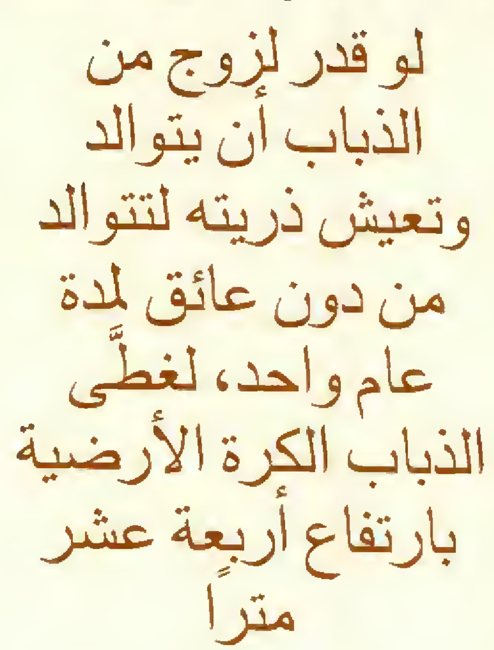
مهما كان تصرفك مخالفا ما سبق، فستضع رأسك بين يديك، وتطرق ساعة، وتفكر في أمر هذا الذباب الذي يصيب الناس بالاشمئزاز، والقرف، وصدة النفس.

فالعالم مذبوب منذ القدم؛ فقد تعامل المصريون القدماء مع الذباب، واستخدموا صورته بتوسع في صنع التمائم والتعاويذ السحرية، كما وجدت محفورة في رؤوس عصا السحرة المصريين، وفي المتحف المصري سلسلة ذهبية مزينة بثلاث ذبابات ذهبية كبيرة وجدت في تابوت الملكة آه - حوتب من الأسرة السابعة، وكانت الأوسمة الذهبية تصنع على شكل الذبابة، وتقلد للجنود المصريين الذين يظهرون بسالة في ميادين القتال.. وقد عوقب المصريون في «سفر الخروج» بتسليط الذبان عليهم: «ثم قال الرب لموسى: بكّر في الصباح، وقف أمام فرعون، إنه يخرج إلى الماء، وقل له: هكذا يقول الرب: أطلق شعبي ليعبدوني؛ فإنه إن كنت لا تطلق شعبي فها أنا ذا أرسل عليك وعلى عبيدك وعلى شعبك وعلى بيوتك الذبان؛ فتمتلئ بيوت المصريين ذبانا.. وأيضا الأرض التي هم عليها.. غداً تكون هذه الآية.. ففعل الرب هكذا.. فدخلت ذبان كثيرة إلى بيت فرعون، وبيوت عبيده، وفي كل أرض مصر خربت الأرض من الذبان» (خروج ٨ - ٢٠:٢٠-٢٥).

وثمة معركة مطمورة في غضون كتب اللغة حول الذبابة؛ حيث انقسم اللغويون فريقين: أحدهما يتزعمه أبو هلال العسكري الذي يخطئ العامة حين تقول ذبابة، ويرى أن الذباب واحد والجمع ذبان، والآخر بقيادة الجوهري - أبي نصر إسماعيل بن حماد - الذي يجيز ما زعم العسكري أنه خطأ، ويرى أن الذباب جمع واحده: ذبابة. وقد سُمي ذبابا لكثرة حركته واضطرابه، من التذبذب، وهو التحرك، وفي الحديث: «من وُقي شر ذبذبه وقبقبه دخل الجنة»، ذكره ابن منظور في لسان العرب، وقال: القبقب: البطن، والذبذب: ذكر الرجل، سمي به لتذبذبه أي: حركته، والذباب: الطاعون، والجنون، والشؤم. ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً طويل الشعر فقال: ذباب: أي: هذا شؤم. والعرب تكنو الأبخر (ذا الفم النتن الريح) أبا ذباب، وبعضهم يكنيه أبا ذبان. وقد غلب ذلك على عبدالملك بن

مروان؛ لفساد كان في فمه. وقد أخرج أبو يعلى عن ابن عمر مرفوعا: «الذباب كله في النار إلا النحل»، قال الجاحظ: كونه في النار ليس تعذيبًا له، بل ليعذب أهل النار به! وحكى أن الخليفة المنصور كان جالسا فألح عليه الذباب حتى أضجره، فقال لمقاتل بن سليمان: هل تعلم لأي حكمة خلق الله الذباب؟ فقال: ليذل به الجبابرة!.. وقد استخدمه القرآن في أقوى حجة، وأوضح برهان مثلاً لما يعبده الجاهلون بالله، المشركون به، فقال تعالى في سورة الحج: *يا أيها الناس ضُرب مثلٌ فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب*. **الحج**:٧٣. يقول الطبري: وخص الذباب لأربعة أمور: لمهانته، وضعفه، واستقذاره، وكثرته.. وقد شاع في كثير من كتب القدماء أن الذباب يتولد من العفونة، وهو ما يسمى بنظرية التولد الذاتي، غير أن العلم حديثًا قد أثبت خطأ هذه النظرية؛ حيث وضع الطبيب الإيطالي فرانشيسكو ردي (أوائل القرن التاسع عشر) غطاء من القماش الرقيق على قطعة من اللحم الميت المتعفن الذي كان القدماء يظنون أن الذباب يتولد منه ذاتيًا؛ فلم يظهر ذباب ولا حشرات، ثم جاء العالم الفرنسي لويس باستير (ت ١٨٩٥م) وقضى على خرافة نظرية التولد الذاتي قضاء تاما، وأثبت علميًا أنه لا توجد ديدان إلا من بويضات سابقة لها قد يعجز الإنسان عن تبينها، إلا أن الميكروسكوبات والتحاليل المعملية أثبتت وجودها.

والذباب أكثر الحشرات سفادًا؛ حيث تضع الأنثى بيضها الذي يعد بالمئات على اللحوم الفاسدة، أو المخلفات المتحللة، ويخرج منه دود صغير، وخلال فترة قصيرة تبلغ من عشرة أيام إلى أسبوعين يصير ذبابًا كامل النمو، وهو يتكاثر بدرجة مذهلة، ولو قدر أنه إذا تمكن زوج واحد من الذباب أن يتوالد، وتعيش ذريته لتتوالد من دون عائق فقد ينتج منه في عام واحد ما يكفي لتغطية الكرة الأرضية كلها بارتفاع أربعة عشر مترًا تقريبًا(!)



منافع الذباب

ويحكى عن أفلاطون أنه قال: الذباب أحرص الأشياء، حتى إنه يلقي نفسه في كل شيء، ولو كان فيه هلاكه! ومن عجيب أمر الذباب ما نقله الأبشيهي المتوفى سنة ٨٥٠هـ في مستظرفه من أنه يلقي رجيعه (برازه) على الأبيض يسود، وعلى الأسود يبيض! ويقول ابن قيم الجوزية (ت: سنة ٧٥١هـ) ـ والعهدة عليه ـ: ذكر غير واحد من الأطباء أن لسع الزنبور والعقرب إذا دلك موضعه بالذباب، نفع منه نفعًا بينا، وسكنه، وما ذاك إلا للمادة التي فيه من الشفاء.. ويبدو أن المأمون قبله قد تشكك في هذا، فقال: زعموا أن الذباب إذا دلك به موضع لسعة الزنبور سكن ألمه،، فلسعني زنبور، فحككت على موضعه أكثر من عشرين ذبابة فما سكن له ألم! فقالوا: هذا كان حتفًا قاضيًا، ولولا هذا العلاج لقتلك!! ويقول أبو محمد المالقي: إنْ أُخذ الذباب الكبير فقطعت رأسه، وحكّ بجسده الورم الذي يخرج في شعر العين المسمى: «شعرة» حكًا شديدًا، أبرأته.. أما الجاحظ، صاحب الموسوعات، وشهيد الكتب (ت: سنة ٢٥٥هـ) فيذكر لخبراء التجميل والسيدات نصيحة من ذهب لن تكلفهم شيئًا. يقول: من منافع الذباب أنه يحرق ويخلط بالكحل، فإذا اكتحلت به المرأة كانت عينها أحسن ما تكون، وقيل: إن المواشط يستعملنه ويأمرن به العرائس! وإن كان هذا الكلام قد خرج من فم الجاحظ ـ الذي سمي بذلك لجحوظ عينيه أي: بروز حدقتيهما ـ فالأولى بالرجال الأشاوس أن ينصحوا به زوجاتهم حماية لهن من المساحيق الضارة، وتوفيراً للمال، وحفاظًا على النظافة العامة بحرق الذباب، وتشبهًا بجداتهن بدلاً من التقليد الأعمى للأجنبيات!!

داء وشفاء يجتمعان

ومع التفكير في أمر الذباب الذي لا يملّ ولا يكلّ عن إضجارك حتى وأنت تفكر فيه، ثمة وقفة مع حديث رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه، فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء»، يقول ابن قيم الجوزية: «هذا الحديث فيه





أمران: أمر فقهي، وأمر طبي، فأما الفقهي فهو دليل ظاهر الدلالة جداً على أن الذباب إذا مات في ماء أو مائع فإنه لا ينجسه، وأما الطبي ففي قوله: «ليغمسه كله»؛ لأن في الذباب قوة سمية يدل عليها الورم والحكة العارضة عن لسعة، وهي بمنزلة السلاح، فإذا سقط فيما يؤذيه اتقاه بسلاحه، فأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن تقابل تلك السمية بما أودعه الله، سبحانه، في جناحه الآخر من شفاء، فيغمس كله في الطعام أو الماء، فتقابل المادة السمية المادة النافعة، فيزول ضررها.. ثم يعلق قائلاً: وهذا طب لا يهتدي إليه كبار الأطباء وأئمتهم، بل هو خارج من مشكاة النبوة. ويبدو أن هذا الحديث قد أثيرت حوله عجاجة ولجاجة قديماً كما أثيرت حديثاً، يقول الخطابي (ت: سنة ٣٨٨هـ): تكلم على هذا الحديث من لا خلاق له فقال: كيف يجتمع الشفاء والداء في جناحي الذباب؟ وكيف يعلم ذلك من نفسه حتى يقدم جناح الشفاء؟ وما ألجأه إلى ذلك؟ قال: وهذا سؤال جاهل أو متجاهل؛ فإن كثيراً من الحيوان قد جمع الصفات المتضادة، وقد ألّف الله بينها وقهرها على الاجتماع، وجعل منها قوى الحيوان، وإن الذي ألهم النحلة اتخاذ البيت العجيب الصنعة للتعسيل فيه، وألهم النملة أن تدخر قوتها أوان حاجتها، وأن تكسر الحبة نصفين لئلا تستنبت، لقادرٌ على إلهام الذبابة أن تقدم جناحاً وتؤخر آخر. ويقول ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ): ما نقل عن هذا القائل ليس بعجيب؛ فإن النحلة تعسل من أعلاها، وتلقي السم من أسفلها، والحية القاتل سمها تدخل لحومها في الترياق الذي يعالج به السم، والذبابة تسحق مع

قيل: إن من منافع الذباب أنه يحرق ويخلط، ليصبح كحلاً تكتحل به المرأة

الإثمد لجلاء البصر. ويقول ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) في «فتح الباري»: «لم يقع لي في شيء من الطرق تعيين الجناح الذي فيه الشفاء من غيره، لكن ذكر بعض العلماء أنه تأمله فوجده يتقي بجناحه الأيسر فعرف أن الأيمن هو الذي فيه الشفاء»، غير أن الثابت في المراجع البكتريولوجية أن الجراثيم التي ينقلها الذباب (الداء) مكانها على أطراف أرجل الذبابة أو في برازها، ومن معاني الجناح في لسان العرب، جناح الشيء: جانبه، والجناحان: الشقتان، وجناحا الطائر: يداه؛ فلا يقتصر معنى الجناح في الحديث على ما يخفق به الذباب في طيرانه، ويكون المقصود - في اعتقادي - أحد أجزاء جسم الذبابة بما فيها الجناحان.. وقد خرّج بعض الشرّاح الحديث على نحو آخر فقال: إن في اللفظ مجازًا وهو كون الداء في أحد الجناحين فهو إما من مجاز الحذف، والتقدير: فإن في جناحيه سبب داء، وإما مبالغة بأن يجعل كل الداء في أحد جناحيه لما كان سببًا له.. وقال آخر: يحتمل أن يكون الداء ما يعرض في نفس المرء من التكبر عن أكله حتى ربما كان سببًا لترك ذلك الطعام وإتلافه، والدواء ما يحصل من قمع النفس وحملها على التواضع.. والأمر في قوله: «فليغمسه كله ثم ليطرحه» إنما هو للإرشاد والتعليم وليس على سبيل الوجوب. والتعرض لهذا الحديث من ناحية صحته متروك لعلماء الحديث ونقاده الذين يفترض من استقراء معظم آرائهم أنه في درجة عالية من الصحة، حيث لم يطعن في سنده، ولروايته في أصح كتب السنة؛ فقد رواه ابن ماجه، والنسائي، وأبو داود.. والبخاري الذي وصفه الإمام مسلم بأنه طبيب الحديث في علله، وسيد المحدّثين.. لذا، لم يتردد نفر من العلماء المعاصرين في تصديقه، والرجوع إلى المراجع العلمية التي تؤيد صحته وتبين إعجازه، وقد نشرت مجلة التجارب الطبية الإنجليزية منذ سبعين عامًا في العدد رقم (١٣٠٧) أن في الذبابة مادة تسمى بكتريوفاج يمكنها إبادة بعض أنواع الجراثيم المولدة للأمراض، وفي تحقيق علمي قام به طبيبان هما د. محمود كمال، و د. محمد عبدالمنعم حسين ذكرا أن الأستاذ الألماني بريفيلد وجد في عام ١٨٧١م - كما نشر في المراجع العلمية - أن الذبابة المنزلية مصابة بطفيلي من جنس الفطريات يقضي حياته في الطبقة الدهنية داخل بطن الذبابة على شكل خلايا خميرة مستديرة ثم يستطيل ويخرج على نطاق البطن بواسطة الفتحات التنفسية، أو بين المفاصل البطنية، وفي هذه الحالة يصبح خارج جسم الذبابة، وفي عام ١٩٤٥م ذكر لانجيرون - أكبر أساتذة علم الفطريات - أن هذه الفطريات فرز لأنزيمات قوية تحلل وتذيب أجزاء الحشرة الحاملة للمرض، وقد استطاع موفتيش عام ١٩٤٧م أن يعزل مواد مضادة للحيوية من مزرعة الفطريات الموجودة على جسم الذبابة ووجد أنها ذات مفعول قوي في بعض الجراثيم التي توجد على أطراف أرجل الذبابة أو في برازها. ويستدل من ذلك على أنه إذا وقعت الذبابة على الغذاء فستلمسه بأرجلها الحاملة للميكروبات المرضية (التيفوئيد أو الكوليرا أو الدوسنتاريا أو غيرها) وإذا تبرّزت على الغذاء لوّث كذلك، أما الفطريات التي تفرز المواد المضادة للحيوية والتي تقتل الجراثيم المرضية الموجودة في براز الذبابة وأرجلها، فتوجد على بطن الذبابة ولا تنطلق مع سائل الخلية المستطيلة من الفطريات والمحتوي على المواد المضادة للحيوية إلا بعد أن يلمسها السائل الذي يزيد الضغط الداخلي لسائل الخلية، ويسبب انفجار الخلية المستطيلة واندفاع البذور والسائل، وهو ما يؤكد ضرورة غمس الذبابة كلها في السائل أو الغذاء إذا وقعت فيه لإفساد أثر الجراثيم المرضية التي تنقلها بأرجلها أو ببرازها، وكذلك يؤكد حقيقة أن في أحد جناحيها داء (أي في أحد أجزاء جسمها الأمراض المنقولة بالجراثيم المرضية التي حملتها) وفي الآخر شفاء (وهي المواد المضادة للحيوية التي تفرزها الفطريات الموجودة على بطنها والتي تخرج وتنطلق بوجود سائل حول الخلايا المستطيلة للفطريات).. ويقول الدكتور محمد أبو شهبة بعد أن أورد التحقيق المشار إليه سابقا في كتابه «دفاع عن السنة»: لعلّك أيها القارئ قد اطمأننت إلى أن الإذعان والقبول لما صح عن الرسول أحرى بالمؤمن المتثبت وأولى، وفي كل يوم تتقدم فيه العلوم والمعارف البشرية يظهر الله من الآيات ما يدل على صدق النبي، وصدق معجزته الكبرى».

أفلاطون: الذباب أحرص الأشياء، حتى إنه يلقي نفسه في كل شيء!!

فهل تغمس الذبابة في الطعام ثم تطرحها وتأكل أم تفعل كما قال الشاعر:

سأترك حبكم من غير بغض ... وذاك لكثرة الشركاء فيه

إذا وقع الذباب على طعام ... رفعت يدي ونفسي تشتهيه؟!!

البؤس بين إمامه وشاعره


عبدالحميد الديب


محمد ماجد الخطاب

ليس عبثًا أن يضحك الشعراء ويسخروا في أشعارهم. وتلك القصائد الجميلة الساخرة الزاهية بزينة غير محدودة من الصور والبلاغة لم تأت من فراغ، إنما كانت نتيجة معاناة وقهر وظلم من المجتمع والساسة؛ لذلك فالشعر الضاحك الساخر هو تنفيس، أو لنقل: هو سلاح برأي أصحابه ضد المجتمع الظالم لهم.

وقد يكون الشعر مدخلاً للبهجة والسرور لسامعيه في بادئ الأمر، لكن لا يلبث أن يغدو بعد هنيهة شيئًا محفزًا ومثيرًا للمشاعر، ومفتِّحًا العيون على نقاط الخطأ، وداعية إلى التمرد على الظلم والطغيان.

ولعل غالبية الأدباء والشعراء الذين اختصوا بهذا اللون من الأدب والشعر هم من الفقراء والبائسين الذين ظلمهم مجتمعهم فأصبحوا كالصعاليك بكل تصرفاتهم وطريقة عيشهم.

من أولئك الشعراء: عبدالحميد الديب الذي ولد منذ مئة عام في مصر.

هذا الرجل ظاهرة قد لا تتكرر، شخصية غنية للدارسين، لكن أحدًا لم يدرسها بالشكل الكافي باستثناء كتيب صدر عن دار الهلال بعنوان «مأساة شاعر البؤس عبدالحميد الديب»، كتبه الأستاذ محمد محمود رضوان، وصدر في شباط/ فبراير عام ١٩٧٦م.

وقبل عبدالحميد الديب الذي ولد عام ١٨٩٨م بقرية كمشيش في المنوفية بمصر، كان قد ولد في القاهرة عام ١٨٦٠م محمد إمام العبد صاحب الشاعرية التي شفها الألم والحرمان والبؤس، فظل منضويًا تحت سواده وسواد البؤس حتى مماته في عام ١٩١١م.

بؤس لا نظير له

وإذا كان محمد إمام العبد قد عرف بلقب «إمام البؤس» فإن

عبدالحميد الديب قد عرف أيضاً بلقب «شاعر البؤس».

على أنني وجدت معاناة البؤس والفقر عند الديب أشد منها عند إمام العبد على الرغم من أن إمام العبد لم تكن محنته في الفقر فقط، بل إن معاناته تكبر عندما نعرف أنه ولد لأب وأم جُلبا من «حلب» عبدين رقيقين، ثم تم بيعهما إلى أسرة قاهرية مرموقة، فتزوجا وأنجبا هذا الإمام.

وإذا كان إمام العبد مدللاً في طفولته لوجود أبويه في قصر منيف (بجاردن سيتي) يعملان فيه خادمين، واستطاعا أن يوفرا له كل متطلباته في طفولته، فإن عبدالحميد الديب ولد هو والفقر والبؤس معاً، فأبوه كان فلاحاً بسيطاً ألحقه بدكان جزار ليعمل «صبي جزار» لقاء قروش قليلة تساعد الوالد في إسكات جوع العائلة.

والملاحظ اعتزاز هؤلاء الشعراء بأنفسهم على الرغم من البؤس والفقر، وإذا لم يقدر المجتمع عبقرياتهم وشاعريتهم فإنهم بلاشك يعرفون أنفسهم حق المعرفة، ويباهون بذلك. فإمام العبد الذي أصبح أديباً وشاعراً وزجالاً وخطيباً راح يعتز بنفسه بكبرياء، شأنه في ذلك شأن كل المبدعين وأصحاب المواهب الذين يغارون على مواهبهم وفنهم وإبداعهم، حتى لو أبى المجتمع الذي يلمس ويدرك تلك العبقرية أن يعترف بوصفهم أصحاب مكانة بين الآخرين بسبب فقرهم وقلة حيلتهم. يقول إمام العبد صاحب الكبرياء والاعتزاز بالنفس:

تكاد عيوني تقرأ الغيب في الدجى
وتسمع أذني فيه ما تضمر النمل
وما هاجني سخط ولا كفَّني رضا
ولا ساءني ظلم ولا سرَّني عدل
وما قتلتني الحادثات وإنما
حياة الفتى في غير موضعه قتل



حافظ إبراهيم — محجوب ثابت

أما عبدالحميد الديب فيقول بهذا المعنى:

عظيم.. ولكن الحوادث أعظم
وشهم.. ولكني على الذل مرغم

ويقول في قصيدة طويلة:

يا أمة جهلتني وهي عالمة
أن الكواكب من نوري وإشراقي

ويقول :

لولا مناوأة الزمان لهمتي
أزرى بنور الشمس نور شروقي
ضاقت وجوه العيش دوني بعدما
هَضَمَتْ لئامُ الناس كل حقوقي
لو لم يكن نبل الحياء طبيعتي
أقسمت ما عرف الشقاء طريقي

من هنا نراهما يأسفان على شبابهما، وكيف ضيعهما المجتمع، ولم ينتبه لشاعريتهما؟ فعاشا في البؤس. وتزداد النقمة عندهما.

يقول إمام:

سئمت من الحياة بلا حياة
وضقت من الرشاد بلا رشاد
وكيف يهيم بالدنيا أديب
تزمّل بالسواد على السواد
إذا أكل الطعام فمن تراب
وإن شرب المياه فمن مداد
خلقنا للهموم بلا دليل
وهمنا بالحياة بلا اعتقاد
ولو علم الزمان بنا قديماً
لما مال الزمان إلى العناد
كأن الدهر يُغضبه صلاحي
فأفقرني ليرضيه فسادي

أما عبدالحميد الديب فيقول:

بكم يباع غباءُ الناس في بلد
لا نافعي فيه لا علمي ولا أدبي
القابضون على أسباب نعمته
من آكلي العرض أو من آكلي الذهب

ويقول:

نحن الملائك والملوك وحسبنا
بالشعر تزكيةٌ ونَيْلُ وشاح
يا محنة الأدب الرفيع بمعشر
جعلوا السفاهة آية الإفصاح

لا أهل ولا سكن!

وإذا حاولنا الدخول إلى عالم البؤس الذي عايش هؤلاء طوال حياتهم، وأردنا أن نأخذ صوراً عن مدى المعاناة الناتجة منه، لوجدناها عند عبدالحميد الديب مؤلمة إلى حد الشفقة التي لم تكن موجودة في مجتمعهم، فكان لهم حق التمرد على ذلك المجتمع الذي لم يقدر لهؤلاء المبدعين ما هم عليه من موهبة. ولنتصور مدى البؤس الذي يعانيه شاعر كعبد الحميد الديب. تعلم في المدارس الابتدائية بعد الشيخ والكتّاب، ثم بمعهد أزهري بالإسكندرية، ثم بعد نيله شهادة متوسطة تعلم بالأزهر الشريف عام ١٩٢٠م، ثم بمدرسة دار العلوم العليا، وحصل على شهادات دراسية، ولم يستطع الحصول على عمل أو وظيفة. حتى الحجرة المتواضعة التي عاش فيها في حي الحسين لم يستطع دفع أجرتها في تلك الحقبة من حياته قبل عام ١٩٢٣م.

يقول الديب في وصف تلك الغرفة:

أفي غرفتي يارب أم أنا في لحدي
ألا شدّ ما ألقى من الزمن الوغد

أرى النمل يخشى الناس إلا بأرضها
فأرجله أمضى من الصارم الهندي

تُساكنُني فيها الأفاعي جرينة
وفي جوها الأمراض تفتك أو تعدي

تعلمت فيها صبر أيوب في الضنى
وذقت هزال الجوع أكثر من «غاندي»

حتى تلك الحجرة لم تدم له وكأن الدهر رأى أنها كثيرة عليه، فقد تشرد عبدالحميد الديب بعد وفاة الفنان سيد درويش الذي عرفه قبل وفاته بقليل، وكانت هناك صحبة بينهما فقد كان الديب يكتب بعض الأغاني لسيد درويش، وكان يغدق عليه بسخاء. فبعد موت سيد درويش لم يجد مأوى ولا مصدراً للرزق، فكان ينام في المساجد، وفي ذلك يقول:

نهاريَ إمّا نومة بين مسجد
غِـراراً.. وإما بالطريق تَسَكُّعُ

إذا أذّنوا للفجر طرتُ مسرةً
إلى مسجد فيه أصلي وأضجع

وما أصعبها من كلمة حين ينطق بها إنسان.. إنها كلمة «الجوع» فكيف إذا كانت من شاعر مبدع مرهف الحس؟ وهل الموت أصعب منها؟ لا.. إن الموت أسهل من أن يكون هكذا إنسان جائع لا يجد ما يأكله. يقول:

جوعان.. يا محنةً أربتْ على جَلَدي
كأن ليلي بيوم البعث متصل



الملك فاروق في عرسه

وإن تطلبتُ عيشي متّ من كمدِ
وإن تطلبت موتي يبعد الأجل

ويستمر الحال هكذا، وتمضي حياة التشرد والصعلكة بهذا الشاعر البائس، فيمد يده يسأل أصحاب المقدرة يطلب منهم المنح والعطايا، كما حدث له مع أمير الشعراء أحمد شوقي حيث رآه في النادي الذي يجلس فيه، فكتب على ورقة بيت الشعر التالي، وأعطاه لأحدهم ليقدمه لأحمد شوقي طالباً منه المساعدة:

هل أنت منجد مَنْ ضاقت به الحال
وقد تغرّبَ لا أهل ولا مال

فأعطاه شوقي بعض المال الذي أسعده في تلك الليلة.

وقد عبر الديب عن حاله تلك في كثير من قصائده التي تعتصر الألم والحزن بكل حرف من حروفها:

أذله الدهر.. لا مال ولا سكن
فتى تزيد على أنفاسه المحن

إذا سعى فجميع الأرض قبلته
وإن أقام فلا أهل ولا وطن

ثيابه كأمانيه ممزقة
كأنها - وهو حيٌ - فوقه كفن

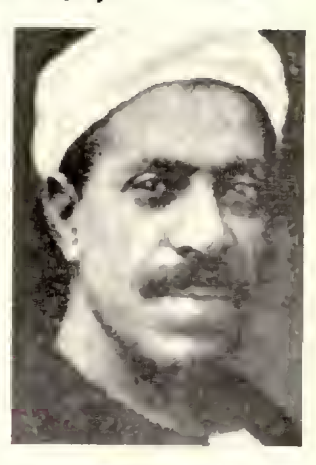
ويذكرني هذا بالشاعر القديم محمد بن مروان المعروف بأبي الشمقمق الذي يقول:

كانت هناك صحبة بين عبد الحميد الديب وسيد درويش، فقد كان يكتب له بعض الأغاني، وكان سيد يغدق عليه بسخاء

أنا في حال تعالى الله ربي أي حال
ليس لي شيء إذا قيل: لمن ذا؟ قلت: ذا لي
ولقد أهزلت حتى محت الشمس خيالي
ولقد أفلست حتى حلّ أكلي لعيالي

ويذكر بعضهم عن عبدالحميد الديب أنه عندما استأجر غرفة أجرتها في الشهر ثمانون قرشًا كان يعجز عن دفعها، ولم يكن في تلك الغرفة إلا لحاف يتدثر به، فجاء لص وسرقه. وتمنى لو أنه كان غنيًا ليستطيع اللص أن يسرق منه أكثر من ذلك. يقول في هذه الحادثة:

لحافي.. وهل غير الحباء لحافي
بقية نسج دارس ونداف
أطاف به لص فقير كعيشتي
فيا بؤسها من هجرة ومطاف
فليتك بالصبي الجريء وجدتني
غنيا.. وسعدي في الحياة موافي



عبد العزيز البشري

وهذا قريب من حال الشاعر المتسول أبي فرعون، فقد جاء في طبقات فحول الشعراء لابن المعتز قول الشاعر أبي فرعون يصف حاله:

ليس إغلاقي لبابي أن لي
فيه ما أخشى عليه السَّرَقا
إنما أغلقه كيلا يرى
سوء حالي مَنْ يمرّ الطُّرُقا
منزل أوطنه الفقر فلو
دخل السارق فيه سُرقا

وفي هذا الباب أيضاً أذكر قول الصافي النجفي:

ومقهى قد جلست بها وعقلي
من الإفلاس قد بلغ الجنونا
أرجي الرزق من ربي ولكن
أرى الشحاذ نحوي مقبلينا
أمد إلى الإله يدًا.. وأخرى
أرد بها جيوش السائلينا

تشرُّد وصعلكة

ولعل الخطأ الفادح الذي يقع فيه هؤلاء الشعراء هو اندفاعهم إلى الخمرة ظنًا منهم أن الشراب ينسيهم ما هم فيه من بؤس وحرمان، فتزيد بلواهم ومصائبهم، ويدمنون السكر حتى يقضي عليهم، إضافة لما في ذلك من إضاعة للمال الذي هم بحاجة ماسة إليه لإصلاح حالهم، كذلك ذل سؤال الأصحاب، والتسول من الأغنياء.

فإمام العبد كان يسرف في الشرب إلى أن أصبح في شبه غيبوبة دائمة؛ فلا تراه يصحو من سكره ليلاً ولا نهاراً. وكان يمد يده يطلب المال من زملائه الشعراء والأدباء الذين يألفهم ويألفونه، ويشفقون عليه في مأساته، أو يطلب من الأغنياء الذين يخافون من هجائه إذا لم يعطوه.

كذلك فعل عبدالحميد الديب الذي اندفع بشكل كبير إلى الخمرة ينشد فيها السلوان يقول:

دع الشكوى.. وهات الكأس نسكرْ
ودعك من الزمان إذا تنكّرْ
وهامَ بيَ الأسى والبؤسُ حتى
كأني عبلة.. والبؤس عنتر

ويقول في مكان آخر:

يقولون سكّير.. فهل شربوا كأسي
وهل شربوا البلوى كما شربت نفسي
لقد جهلوا يومي.. ولن يكرموا غدي
ويا حرَّ قلبي من شقائي في أمسي

ولم يقتصر الديب على شرب المسكرات، بل تعاطى الكوكايين بإسراف، فتعرض للسجن بتهم عديدة منها التشرد والصعلكة والسكر البيّن وعدم سداد ديونه وشم الكوكايين والعربدة. وله في حياة السجن قصائد كثيرة يرى فيها أن للسجن لذة بعيدة عن قسوة المجتمع..

له بفؤادي لذة ووجيب
ومنه لقلبي بلسم وطبيب
لقد شبعت فيّ الأعادي شماتة
وبتُّ ومالي في الوجود حبيب
أصبح مسجونًا وما كنت مذنبًا
ولا حزبتني في الحياة ذنوب
وإخوان سجن قبّحت من وجوههم
هموم توالى دائمًا وخطوب
لقد كنت فيهم يوسف السجن صالحًا
أفسر أحلامًا لهم وأطيب

وكثيرون أولئك الذين سجنوا بسبب السكر البيّن، ولاسيما الشعراء، ومنهم أبو دلامة الذي حبسه الخليفة المهدي في بيت الدجاج بعدما قبض عليه سكران

في الطريق، فكتب إلى المهدي من مكان سجنه هذه الأبيات:

أميرَ المؤمنين فدتْكَ نفسي
علام حبستني وخرقت ساجي
أقادُ إلى السجون بغير ذنب
كأني بعض عمال الخراج
ولو معهم حُبستُ لهان سجني
ولكني حُبست مع الدجاج

فضحك المهدي وأطلقه.

وقد دخل عبدالحميد الديب مشفى الأمراض العقلية ليعالج من الإدمان فقط، فهو لم يكن مجنونًا، لكنه وجد في عالم المجانين حياة أخرى.. وكان لهذه النقاهة في المشفى أثر حسن في صحته، وكاد ينسى المخدرات، وعاد له وعيه وصحته.



سيّد درويش

وقد صور بعض اللقطات في مشفى المجانين بالأبيات التالية:

رعاك الله مارستان مصر
فإنك دار عقل لا جنون
حويت الصابرين على البلايا
ومن نزلوا على حكم السنين
وكم في مصر من غِرٍّ غبيٍّ
تمتع بالجميل وبالثمين

وكما كان إمام العبد يقضي أوقاته وسهراته في النوادي التي كثرت في تلك الآونة، وكان يرتادها كل أصحاب الفن والأدب والظرف. فقد عاش في الفترة نفسها التي عاش فيها أحمد شوقي و حافظ إبراهيم وعبدالعزيز البشري ومحجوب ثابت وشفيق المصري ومحمد بكير، وكلهم من ألمع نجوم الشعر والفكاهة والظرف والنوادر. كذلك كان عبدالحميد الديب يقضي معظم أوقاته في مقهى الفيشاوي بحي الحسين التاريخي الذي كان ملتقى الأدباء والفنانين والساسة في تلك الحقبة من الثلاثينيات. وكان الديب يطلق على ذلك الحي: الحي اللاتيني، وله فيه طرائف كثيرة مع هؤلاء المبدعين. وعندما كان يضيق بدعابات أصدقائه القاسية يثور عليهم، ويبدأ هجاءهم بالشعر كقوله:

عزَّتكم الدنيا وهُنَا
فرقصتم طيرًا وغصنا
وملكتموها بالغنى
وملكتها شعرًا وفنًا
أنتم مشيب في الصبا
وأنا الشباب كبرت سنًا
كم من صديق شامني
أبكي من البلوى فغنّى
كم شامتٍ قد سرّه
قلقي بعيشي فاطمأنا

ويقول في قصيدة أخرى:

ومن شقوتي في محنة العيش أنني
فقدت نصيري صحبة وقبيلا
ونازلتُ أجناد الحوادث مفردًا
فأفنيت عزمي وارتددت قتيلا
ومات أبي أعشى وأمي سقيمة
لحزنهما مما لقيت طويلا

الديب والتمرّد

ولم يكن تمرد الديب على المجتمع فقط، بل تعداه إلى التمرد على الحكام والساسة، فهو يجاهر بأن للسلطة دورًا كبيرًا في مأساته؛ لأنها لم تمد له يد العون وكأنه غريب عن أبناء الشعب، أو كأنه ليس من رعية الملك:

وحكومتي إن رمتها
لظلامتي لم تقبل
ولو انني رُمْتُ الحجا
رَةَ فجَّرْتَ عن سلسل
أولستُ من شعب المليـ
ـك فأستظل وأجتلي

سرق لص لحافه، فتمنى لو كان غنيًا ليستطيع هذا اللص أن يسرق منه أكثر من ذلك

فلهم جميع حبائه

طول الحياة.. وليس لي

ويعلن تمرده بصراحة في قوله مخاطباً حاكم مصرفي ذلك الوقت:

لستم لنا الأكفاء.. أنتم عصبة

ما في جهادكمُ لمصرَ نصيب

حتماً سيأخذكم على أعناقكم

يومٌ يأخذ الظالمين قريب

ضياع الحب

ولو تساءلنا أين المرأة والحب من هؤلاء الشعراء؟ والحب بالنسبة إلى أمثالهم عزاء وسلوى. من الواضح أنهم لم يهتموا لذلك كثيراً ربما بسبب بؤسهم وفقرهم الشديد، أو بسبب قبح مناظرهم التي تجعل النساء لا تلتفت إليهم، آخذين بالحسبان طبيعة المجتمع في ذلك الوقت وعدم اختلاط المرأة بالرجال وأشياء من هذا القبيل.

فإمام العبد يصف لنا في قصيدة له حديث غرام مع معشوقة بيضاء يقول: إنه أحبها، فكان جوابها له هو الصد بسبب سواده:

همت بالوصل فقالت عجبًا

أيها الشاعر ما هذا الهيام

لم ينل منا الرضا حرٌ.. وما

رام منا سيّد هذا المرام

أنت عبد.. والهوى أنبأني

أن وَصْلَ العبد في الحب حرام

وقد سأله خليل نظير مرة: لماذا لم تتزوج يا إمام؟

فأجاب شعراً:

يا خليلي.. وأنت خير خليل

لا تلمْ راهبًا بغير دليل

أنا ليلٌ.. وكلُّ حسناءَ شمسٌ

فاجتماعي بها من المستحيل

أما عبدالحميد الديب فقد أحب أرملة شابة تعول طفلين وهي على شيء من الجمال تدعى «إحسان أحمد»، وظل يتغزل بها، ولا يستطيع طلب يدها للزواج لشدة إفلاسه، وساعده أحد الأصدقاء، فطلب يدها، وقبلت بالديب، لكن حفل الزفاف كان حفلاً عجيباً في غرفة الديب البائسة حيث ظل الضيوف وقوفاً، وكان الديب يرتدي بدلة رثة، والأصدقاء يذوبون حسرة عليه، حتى إنه لم يجد ما يقدمه لضيوفه. وحاول جاهداً أن يعمل لينفق على أسرته، لكنه لم يوفق. وبعد أشهر برمت به هذه الزوجة بسبب حظه العاثر، واندفاعه إلى السكر، ورغبت بالطلاق رحمة وشفقة به:

على الرغم مني أن أطلق زوجتي

ومالي بها في الكون أي بديل

وعلى الرغم من هذا الشقاء والبؤس كان إمام العبد وعبدالحميد الديب يضحكان في حياتهما، ويشربان حتى السكر. وإذا ظل إمام يشرب حتى هوى صريعاً تحت وطأة الشقاء، وهو في الخمسين من العمر، ولم يرثه شاعر، ولم يؤبنه كاتب، ولا حفل بذكره إنسان. حتى آثاره الفنية ضاعت فلم يجمعها أحد في كتاب إلا ما تناثر في الصحف والمجلات، بينما نرى عبدالحميد الديب قد تاب إلى ربه، وأعلن هجره للخمرة التي كانت تدفعه إلى المجون والعربدة والهجاء:

لا تقل لي كيف تحيا سادراً

أنا ميت بين أهلي لست حيا

سر هذا البؤس أني شاعر

قد أفاد الدهر منه عبقريا

تبت من ذنبي ومَنْ ترجعْ به

نفسُه لله يبعثْه تقيّا

وفي سنواته الخمس الأخيرة من عام ١٩٣٩م إلى ١٩٤٣م كان عبدالحميد الديب يسرع خطاه نحو النهاية حيث أصبح حطام إنسان، شقياً، تعساً، منهار الصحة، منهار النفس، تطلع إلى الموت وهو يذوب شيئاً فشيئاً، فكتب قصيدة حزينة يرثي بها نفسه، وجهها إلى شاعر مات، وكان صديقاً له بعنوان: «من شاعر يموت إلى شاعر مات» يقول فيها:

موشك ركبي إلى هذا الركاب

تنقضي الدنيا ولله المآب

في طريقي للردى إذ نلتقي

أنا والأحباب في يوم الحساب

خلّفوني في الحِمى أبكي الحمى

وأرجّي الموت في شرخ الشباب

كيف لا أرقب موتي وأنا

طول عمري كل يوم لي مصاب

وأخذ شاعر البؤس يُسرعُ نحو النهاية بعد أن أضناه البؤس، وأنهكه التسكع والجوع والحرمان. وسأله أحد معارفه ذات يوم عندما سمع أنه سيستلم وظيفة في وزارة الشؤون الاجتماعية في مطلع عام ١٩٤٣م، وهو العام الذي توفي فيه.

كيف أنت والدنيا اليوم ياديب؟

فأجابه بتهكم: يقولون: إنها ابتسمت لي.

فقال الرجل: إذا فُرض أن الحياة ابتسمت لك، وأقبلتْ عليك فما موقفك منها؟

فأجاب الديب في آه وحسرة:

بيني وبين الغنى خصام

وفرقة ما لها التئام

فلو تدانى إليّ يوماً

لردّه عنّي الجمام

وبعد أيام من استلامه الوظيفة فارق الحياة بعد انفجار في الشرايين، فتوفي في مشفى القصر العيني يوم ٣٠ نيسان/أبريل ١٩٤٣م.

وقال صديقه كامل الشناوي في كلمة له في رثائه:

اليوم مات شاعر.. تعرى.. واكتست الأضرحة.. وجاع.. وشبعت الكلاب.

مراجع

- فلاسفة وصعاليك، محمد فهمي عبداللطيف، صدر عن مؤسسة أخبار اليوم بالقاهرة ضمن سلسلة «كتاب اليوم».
- «مأساة شاعر البؤس»، تأليف محمد محمود رضوان، صدر عن دار الهلال في شهر شباط/فبراير عام ١٩٧٦م ضمن سلسلة كتاب «الهلال».

طيبة تصبحين على خير!!



أحمد عبدالرحمن العرفج

ثم استملتُ بتربتي،
فإذا الطريق مدينةٌ سكنتْ
على الوقتِ القديمْ..
وإذا المدينة «يثرب»
وإذا الصحاب تبادلوا
ضوء النجوم!!
تلك المدينة..
قل لهم: فهي الوطن..
لا تشبه الأشياءَ، والأوقاتَ،
لا تدنو من الجهةِ الكبيرة إنها
وشمُ الزمنْ!!
الآن..
تَرْحلُ من ربيع الصحبِ.. مهموماً بهمْ..
إلى الخريفِ.. إلى الشتاء.. إلى الغبارْ
ها أنت تسرق من ثنايا الوقت

أضواء المدارْ
أبدا.. تهاجر - خائفًا..،
وتعود من وجع المدائن
- والقوافل - والسواحل
بالقصائد والقرارْ
أصبحتَ في حشد من الضوضاء
تستجدي المسارْ..
تتوكأ الليلَ، العريضَ، لتسندَ
الظهرَ الضئيلَ على النهارْ
«قلقٌ على قلق»، كأنَّ الريحَ
أسفلَ أخمصيكَ
تحفُّ ناحيةَ الجدارْ
لِمَ تمتطي؟!
لِمَ تَنتهي.. فالدربُ متسعٌ
لخطو العابرينْ..

والبسمةُ الصفراءُ، قبل الليل
تشكو الإغترابْ!!
أتظلُّ تتلو من فصولِ العمرِ
ذاكرةَ السرابْ؟!
أتظلُّ تنبشُ في ارتباكات الحياة - مجعّدًا -
وتكون أول من يعود من
السؤال بلا جواب!!
تلك المدينةُ..،
من يشابهُ لونَها؟!
تلك المدينةُ
من يهاجرُ نحوَها؟!
تلك المدينةُ
من يطارحُ رملَها؟!
فالرملُ أظمأه السرابْ،،
والحرف أتعبه الخطابْ!!

مع الثمانين

إبراهيم السامرائي

لقد بلغت الثمانين من العمر فهل لي أن أقول: دخلت في «أرذل العمر»، فلو كان لي أن أقول لقلت: لا بلغتها.

وقيل: قد بلَّغتها في الدعاء — وكيف يدعو ذو سقامٍ عياءْ
لا طبْتَ نفسًا ذا زمانٍ عثا — وما لغير الشرِّ فيه البقاءْ
مضى بنا السوءُ يقودُ الورَى — فهل زمانٌ يُرتجى بالدعاءْ؟
إنّ الثمانين وقد جئتُها — برغم ما كابَدْتُه من شقاء
طوّفن من سربي فعاجلْنَه — بما تحمّلتُ به من عناءْ
كأنّني لحتُها حُوَّمًا — غمٌّ بمسراها وضيءُ السماءْ
وأنّني أحسستُ من جريها — شاهَتْ هجانًا تتحدّى الفَناءْ
كأنها جَرَتْ تحثُّ الخُطا — ويلي مما شمَّرتْ في مَضاءْ
قد عاجلتْني والنَّوى محنةٌ — قاسيْتُها ولليالي قضاءْ
ويحَ الثمانين جلَبْنَ البلَى — وهو سليل الشرِّ تِربُ البلاء
دعها وجاوزها لخيرِ مضى — لم يُبْتَذَل بزُخرفٍ أو طِلاء
غنّيتُ في أمسي على فقره — ونالني منه وفيرُ السخاءْ
غنّيتُ ما قد جاءني من غِناءْ — بعض قوافٍ غَنِيَتْ بالأداء
ما كنتُ أسعى لجميل الشفاء — بل رحتُ في وجدِيَ أبغي النقاء
فلم أكن بالفقر في وحشةٍ — بل كنتُ ألفي فيه بعضَ الثراء
وكانَ لي ما كانَ من سَمْحِه — مما تبيَّنتُ به من عطاء
يا رحمةَ الله على فائتٍ — من زُهْرِ أيّامٍ مِلاءٍ ظِماء
سالمْتُها وملتُ عن بعضها — وقد يشين الصفو بعضُ الغُثاء
ما ضرَّني من زَبَدٍ أو جُفاءْ — أنْ كنتُ في حصانة من فَتاء
وكان لي صفوة صحب بهم — أنّي عن وَعْث القَذَى في وِقاء
قد كنتُ أُغضي عن هَنَاتٍ بما — يضيع منها في ثنايا الصفاء
ويحَ الثمانين وقد جئتها — مُحاصراً وليس لي من نجاء
قد وهن العظم وبي كَبرةٌ — أقسو عليها بكريم الإباء
وافتْنيَ الأيام لا أدّري — سهامَها وهي تجيد الرِّماء
وكم يُطيق المرءُ ذو غربةٍ — يلقَى بما يصلاه بعضَ العزاء
طُوبَى لمقهورٍ خبا نوره — فعاث في جُرح به أي داء

فـأين مما فـيـه بعض الدواء ... فـهل له أن يَتَحرّى الشـفـاء
طُوبى لمن جُـرِّدَ عن أمسـه ... وذيد عنه كلُّ رحبٍ فـضـاء
ويا أسى المنزوع عن غرسه ... قـد ديسَ غـرسٌ وعَـداكَ انتمـاء
ويا أخا العُمر وُقيتَ النوى ... صنعت خيرًا، هل أصبت الجزاء؟
أمَسُكَ ضاحٍ بشميم الضحى ... رَفَّ الشذى في صبحه والمساء
أنلْنيَ النجوى تعيد الهوى ... وكيفَ داري ورحيب الفناء؟
يا صاحبي البعيد هل من حمى ... أصبْتَه مغتربًا في جُفاء
تغيّرت بعدَك أيّامنا ... فحالُنا من كل همسٍ خَواء
يا صاحبي الغريب هل من رجاء ... طالَ بنا الليلُ فأين الرجاء؟
إنا نسينا خادعات المُنى ... بما نسينا من نعيم الرخاء
أفي الثمانين يعاني الأسى ... من باتَ لا يعرف إلا العَفاء؟
كأن في الدار التي جئتُها ... ما يعتريني من نجيّ الخلاء
أجيل طَرْفي في بعيدِ دَجَا ... كأنني أرمي به في العَراء
فلا الرياضُ الحاليات الذُّرى ... تأخذني ولا المنيف البناء
إنّ الثمانين أمَا أخلَقَتْ ... لا بُورِكَتْ، فكيف تُجري الدعاء؟
إنيّ لأعنيها ببعض الرثاء ... إن لم يكن مني نشيجُ البكاء
دجا أمامي كلُّ ما يغتلي ... من ريبة لم تبدُ لي من وراء
يا صاحبي البعيد هل نبأةٌ ... نبيلةٌ أستفُّ منها الرُّواء؟
فما أرانا بعد طول الشقاء ... إلاّ الألى قد آمنوا بالوفاء
إنّا لننتمي لكِرام أبَوا ... من العراق السَّمْح إلاّ الولاء
يا صاحبي البعيد لي حاجة ... أطمح فيها أن تجيبَ النداء
إني لأرجو منك بعضَ الوفاء ... وقد دعاني منك طيفُ اللقاء
أُتسمع الموجع من صيحتي ... فيما اعتراني من وجيع الغناء
حَبَوتُها نفسي وصُنتُ الحِباءْ ... وكان فيها لِيَ بعض الغَناء
أخي البعيد الدار، لو صرتَ لي ... ممن يمدّ اليوم حبلَ الإخاء
لكنتَ أوفى بالذي جنّ بي ... في أضلع بالوجد منّي رِواء
لكنني أمسيتُ في عالمٍ ... سُودٌ فيه كلُّ نَخْبٍ هَواء
يا بؤسَ من يحمل زيفَ اللواء ... يسعى إلى الذروة يبغي العلاء
ساءلتُ نفسي كيف كيف الهدى ... وقد تحدّى العصر أهلُ الغباء
ولم يكن للعلم فينا هوى ... وقد طَوَى البساط أهل الذكاء
قد كان ما كان فإنّا إلى ... غدٍ ويبدو فيه دربُ الفَناء
قد كان من ذا بعض ما قال لي ... أخٌ قضى مع رفقة في الخفاء
تَخَلَّ عن ذا واستفدْ حكمةً ... يوشك أن يقضي عليها الهُراء
ويحَ الثمانين جَلَبْنَ الذي ... ضِقتَ به لو كان بعض «البداء»

متمرّدٌ ..أبداً..

محمد الزينو السلوم

صُبّي لظاكِ وأمطري غضبا … فالنائباتُ تصاعدتْ لهبا

وتزوبعي كالنار ألسِنَةً … ما عدْتُ بعد تمرّدي حَطَبا

لا تدّعي علمًا ومَعْرفةً … فلقدْ سئمتُ الزّيفَ والكذبا

كم مرّةً أسْررت مكْرمةً … والمكرماتُ تحوّلتْ خُطَبا

فالأمس ما أبقى الزمان به … والمجد، ما نفعي لما كتبا

(آثرت) هذا اليوم أبصره … وأحسُ في أوهاجه وصَبَا

سحّتْ مآقينا على ألم … ومرارتي قد جرّت الكُرَبا

أقْتاتُ من جمر اللظى سببًا … وأنا الغنيّ وأجهلُ السّببا

سمراء إن الحلم يرحل بي … فأروح أطوي السّهلَ والسُّهُبا

لكنني أصحو على عجلٍ … فأرى وألمسُ في الهوى العجبا

وأعود لا إسْمًا ولا نسَبًا … فلقد أضعْتُ الإسْمَ والنسَبا

عيناكِ ما عيناكِ رمْشهما … غابات حزن مسّت الهُدُبا

كم قد ولَجْت الحقل مبتهجًا … وجنيْت منكِ الزرْع والرُّطَبا

حُسْنٌ حباه الله صفوته … بالحب، سبحان الذي وهبا!!

طوبى لقلب قد حوى دُرَرًا … كرْمٌ حوى الزيتون والعنبا

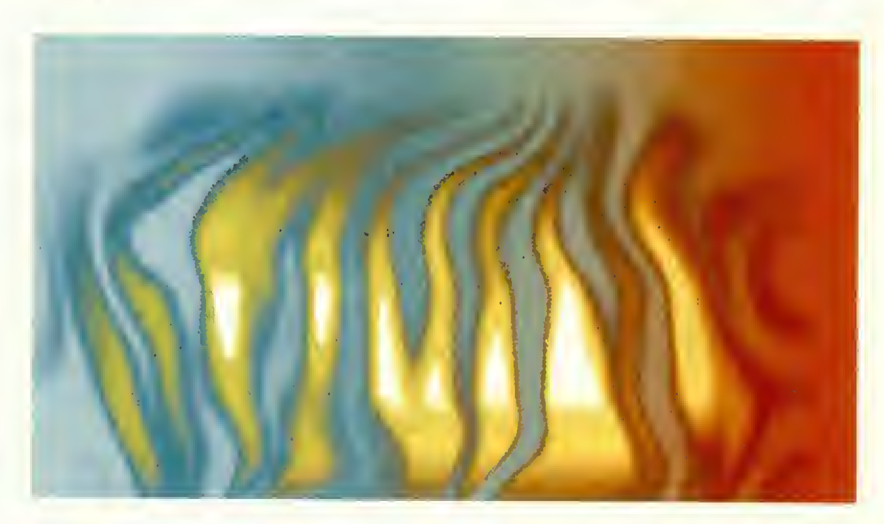
يا منيتي عشقي له سببٌ … لكنّ سيفي اليوم كيف نَبا؟!

أنا شاعر والشعر أدّبني … والحب للأوطان قد وَجَبا

وأنا المعذّب في الهوى أبدًا … إني القتيلُ وأحصد العتبا

صبّي لظاكِ وجَدّي اللهبا … وتجدّي لُقْيا ومرْتَقَبا

هذا أنا متمرّدٌ أبدًا … ما عدْتُ أخشى النار واللهبا



من الأدب الأردي المعاصر

الأم والنصيب

الأديب الباكستاني شمس نعمان(*)
ترجمة: سمير عبدالحميد إبراهيم

كان مدير (البنك) يود من كل قلبه أن يأخذ من الحارس بندقيته، فيطلق عليه جميع الطلقات التي وضعها في حزامه الذي تمنطق به، وكان هذا على الأقل هو العقاب الذي ود لو أنزله بالحارس جزاء له.. ففي الوقت المحدد تماماً لانتهاء الدوام، وبدلا من أن يغلق البوابة الرئيسة للبنك، أخرج علبة الدخان، واتجه حيث أريكة «كل خان».. بينما دخل ثلاثة من العملاء إلى مكتبه، وراحوا في نقاش حاد، وعراك بالكلمات.. وفقد صوابه، وكان قد فقده أصلاً منذ الصباح.. ففي الصباح مضت الأمور كالعادة على ما يرام وطبقًا لما يريد، وفجأة تذكر ساعة يده التي لم يجدها في معصمه، لقد وضعها في مكان ونسي، وهناك كانت زوجه صافيناز قد أعدت له طعام الإفطار، ووضعته على الطاولة، أعدت له وطبقا لرغبته. البيض المقلي والبليلة بالحليب..وقبل ذلك بقليل، وحين كان يعد العدة للذهاب إلى البنك كانت صافيناز تثبت له أزرار معطفه، وكانت قد اعتادت القيام بذلك كل صباح، أما هو فقد اعتاد بدوره أن يمزح معها ويقبض بشدة على أناملها الدقيقة الناعمة قائلاً:

«صافيناز! إنني جد سعيد داخل قيدك فلا تحرريني منه، لو حدث هذا فاجعليني أسيراً في قلاع عينيك..».

وتجيبه صافيناز بدلال، فيضمها إلى صدره في حب وحنان.. كانت صافيناز تعرف أن ما يقوله يخرج فعلاً من أعماق قلبه، فلم يمض على زواجهما إلا أشهر معدودات، ومع هذا فقد كانت تفكر وتحدث نفسها:

«.. تلك الحياة التي عشتها من دون جاويد..

آه! كم كانت خاوية لا طعم لها!! كانت كبيت في خرابة ليس فيه مصباح..».

بعد أن انتهت صافيناز من تثبيت أزرار المعطف تذكر جاويد ساعة يده التي لم يجدها في معصمه.. ثم ماذا حدث؟ قامت القيامة.. فقد قرب وقت الذهاب إلى البنك والساعة لم توجد بعد، والبيض المقلي على المائدة برد، فاستشاط غضبا، وراح وهو على هذا الحال من الهيجان يحرك عينيه هنا وهناك، ووقفت صافيناز المسكينة وقد أصابها الرعب، فقد كانت غارقة في سحر المحبة، تطير فرحاً فوق النجوم، وفجأة وجدت نفسها وكأنها ارتطمت بالأرض.. وأين يا ترى وُجدت الساعة؟! لقد أخرجتها من جيب معطفه!!

«ألم تستطيعي أن تبحثي عن هذه الساعة اللعينة في جيب معطفي؟».

في البداية امتلأت عيناها بالدموع، لكنها لم تدر لماذا انفجرت ضاحكة، واستمرت في الضحك، أما جاويد فقد شعر وكأنها تتهمه بالحمق، فصب جام غضبه عليها، ولكنه حين نظر إليها شعر كأن ربيع الأزهار قد حلّ على بستانها.. وكان الوقت يمر بسرعة والبيض المقلي، هذا البيض الذي برد بث في ربيعه الذي أضاء كالصباح سمًا فلم يدر ماذا حدث له.. حمل طبق البيض وألقاه بشدة على الأرض:

- «ألم تتعلمي كيف تعدين الفطور بطريقة طيبة؟».

- «عليك أن تأتي بمن تعد لك الفطور بطريقة طيبة!».

كان جهاز عرس صافيناز يتكون - ضمن محتوياته - من أطباق غالية جداً، بالإضافة إلى السجاد العجمي النادر، لهذا شدها الذهول، واحتواها الغضب فكان جوابها سريعا إذ شعرت أن الطبق الذي تحطم لم يتحطم على السجاد، بل تحطم على جسدها..

- «نعم سوف آتي..».

قال هذا واتجه من فوره دون تناول طعام الإفطار إلى (البنك)، وقد استمر في (البنك) طوال اليوم، لكنه كان ينظر إلى عقارب الساعة المعلقة على الحائط أمامه في مكتبه.. كان ينظر ويترقب: متى تشير العقارب إلى الساعة الواحدة؟ ومتى يصل إلى البيت.. ليصالح صافيناز، لقد خامره إحساس أن صافيناز ظلت قلقة مضطربة طوال اليوم بل ظلت تبكي، وكان هذا الإحساس يؤذيه فلا يشعر بالراحة.. كان يمكنه أن يعود إلى بيته مبكراً، لكن اليوم أول الشهر، ووجوده في البنك ضروري جداً، فوجود المدير لازم من أجل التعامل مع أصحاب الاعتمادات والحسابات، كما أن التعامل في صرف النقود يكون أول الشهر أكثر من الأيام العادية.. لكن هذه المسرحية المضحكة العجيبة حدثت فجأة، فحين كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية عشرة والدقيقة السابعة والخمسين، وحين بدأ جاويد يلملم أوراقه، ويعطي أوامره للصرافين بترتيب الأوراق المالية تمهيداً للتوقف عن العمل بعد ثلاث دقائق إذا بهؤلاء الثلاثة يدخلون عليه فجأة وكأنهم صاعقة حطت عليه من

السماء.. فكاد دماغ جاويد ينفجر، وتمنى من كل قلبه أن يفرغ في الحارس جميع رصاص البندقية التي يحملها، فلو كان هذا الحارس الجلف موجوداً في موقع خدمته لما تمكن هؤلاء من دخول مكتبه في هذا الوقت.. ولكن ماذا يمكنه أن يعمل الآن سوى إعداد نفسه لتمثيل دور الموظف النموذجي، فيستمع إلى حديثهم، ويصغي إليهم بكل أدب واحترام؟

كان من بين هؤلاء امرأة سمينة جدًا، شعرها مجعد بطريقة تدل على أنها زادت من استخدام أسطوانات الشعر في صالون تجميل، كانت هذه المرأة قصيرة القامة لكن صوتها كان ضخمًا، وكانت نبراته حادة ومخيفة، كانت تتكلم وهي تدير عينيها الصغيرتين هنا وهناك بطريقة كلها مكر ورياء، وكانت رقبتها قد التصقت بكتفيها وكأنها دكت فيهما دكا، وحول هذه الرقبة وضعت سلسلة من الذهب مع عقد من اللؤلؤ، كانت كفاها غليظتين، وفي أصابعها الصغيرة غاصت خواتم الذهب المطعمة بالأحجار الكريمة، وفي كل معصم وضعت ستة «أساور» من الذهب.

كان يرافقها رجل ضخم الجثة.. أخوها على ما يبدو؛ لأن هناك شبهاً كبيرًا في ملامحهما، لكن لون بشرة الأخ أفتح قليلاً من لون بشرة أخته، كما كان أطول منها قليلاً، إلا أنه أيضاً كان سميناً جدًا، وكانت الأخت وهي تتشاجر معه تناديه أحيانا تاج الدين، وأحيانا تقول له تاج، وأحياناً تاجو..

كان تاج أو تاج الدين أو تاجو قد استشاط غضبا، واحتدم النقاش والشجار بين الأخت وأخيها، بل أدخلا أيضًا بينهما مدير البنك في سفسطتهما ونقاشهما العقيم، وحين تدخل توقف النقاش للحظات، ثم عاد الأخ وأخته مرة ثانية للنقاش، وارتفع ضغط كل منهما، وبرزت العروق من تحت جلديهما، وظهرت في صوتيهما حشرجة تحولت إلى مواء كمواء القطط الجائعة... كان معهما سيدة عجوز تبلغ السبعين أو أكثر، نحيفة القوام، تبدو ذابلة، ضعيفة داخل ملابسها البيضاء وعباءتها التي لفّت بها رأسها، ونصف جسمها العلوي..

كانت سيدة هادئة صامتة، في يدها مسبحة وشفتاها تتحركان في حركات منتظمة مع تساقط حبات المسبحة الواحدة تلو الأخرى بين أصابعها.. كانت السيدة هي أم تاج وإقبال بيغم.. جلست في صمت شديد على الكرسي تنظر إلى ابنها وابنتها.. وكانا حين يصلان في جدالهما وعراكهما إلى أقصى حد، كانت تتدخل قائلة بصوت خافت:

- «يا ابنتي كل شيء زائل، لماذا تتصرفان هكذا.. كل شيء ملك تاج.. لماذا تتعاركان..؟»

- «لماذا أترك هذا يا أمي؟ إنني صامت من أجلك فقط!!».

- «وإلا.. فماذا يمكن أن تفعلي أكثر من هذا..؟ هل الظلم الذي وقع قليل؟ لماذا هذا معي؟ المبلغ الذي ظل يوضع في البنك منذ زمان.. أخبرنا يا سعادة المدير كم وصل الحساب حتى الآن؟».

أخرج جاويد دفتر البنك، ووضعه أمامه، ثم قال بصوت عال: ثلاثمئة وخمسون ألف روبية وخمس وسبعون بيسة».

- «لكن ما نصيبي منها؟».

- «لقد أخبرتك»، رد المدير بلهجة كلها نفور: «هذا الحساب مشترك بين إقبال بيغم ووالدتك السيدة حسن بي بي».

- اسمع سيادة المدير هذا ظلم!! هذا امتصاص للدماء!! هذا سطو!! يا إلهي!! هذا ظلم، هذا المبلغ كله أرسلته إلى أمي من الخارج، وقامت هي بفتح الحساب المشترك مع إقبال بيغم.. يا سعادة المدير! سوف أرفع قضية.. إقبال بيغم هذه ليست أختي إنها «حرباية»، إنها «أم أربعة وأربعين»!!!

سمعت إقبال بيغم كلام تاج الدين فاصفرّ وجهها، صار كالكركم وكادت أن تصرخ:

- «تاج! اخجل.. إنني أتفل على أموالك هذه، ها ها اليوم جاء صاحب الثروة..

اسأل أمك.. هل هي التي طلبت فتح هذا الحساب المشترك أم أنا التي طلبت؟ اسأل أمك لا تنظر إليّ، وإلا فتحت كل دفاترك، وكشفت كل ما خفي».

ورفعت إقبال بيغم صوتها وهي تنطق بالعبارة الأخيرة حتى شدت انتباه جميع العاملين في البنك.

سقط جاويد في دوامة من الارتباك، فهذا أمر يتعلق بسمعة البنك الذي يديره، ما يُدري هؤلاء الناس خارج مكتبه أن العراك الذي يدور إنما يدور بين أخ وأخته، ربما ظنوا أنه يدور بين أصحاب الحسابات والمدير نفسه...

- «انظري يا أماه! حاولي أن تفهميهما، فالأمر واضح.. المبلغ كان يرسله تاج الدين، والحساب مشترك بين إقبال بيغم وبينك، ولهذا فلا علاقة بين البنك وتاج الدين، والبنك من ناحية لا يجيز إعطاءه أية روبية من هذا الحساب.. يا أماه يمكنك بنفسك حل هذه المشكلة».

- «يا أخي هذا ما أقوله، الأموال أموالي، كنت أرسلها إلى أمي، فكيف حشرت الأخت نفسها بيننا وأصبحت شريكة في الحساب، هذا ظلم وإجحاف ولن أسمح بهذا الظلم أبدًا»، ثم أردف قائلاً:

- يا سعادة المدير إنك لا تدري.. إن الشركة التي عملت بها في قطر في مد أنابيب البترول تحرق مع الجسم الدم أيضًا، لو خلعت قميصي هذا، وأريتك فسوف ترى كم من الجراح والحروق فوق جسدي وعلى ساعدي وفوق ركبتي..» قال وهو ينظر إلى أمه:

«يا أماه لقد كدت أن أفقد حياتي مرتين وأنا أجمع هذه الثروة، لقد ضعت وسط هجير الصحراء» ثم صمت، وأخذ نفسا عميقًا، وقال مخاطباً المدير:

«يا سعادة المدير! أنا أجمع هذا المال من أجل أن يحقق إخوتي وأخواتي أحلامهم في الحياة الرغيدة.. هذه قطرات دم تريد إقبال بيغم أن «تشفطها» في حلقها.. لكني..».

- «كفى! أوقف هذه الخطبة.. أنت ليس أول أو آخر من اغترب عن بلده، اسمع أنا أختك الكبرى، من الخير لك أن تفكر أولاً.. لنتحاسب، لقد أعطيتك أربعين ألف روبية حتى تجهز أوراقك للسفر، وأنا متزوجة، وعندي أربعة أطفال.. وبقيت في الخارج سبع سنوات، كان طعام الأم



وما إلى ذلك على حسابي، مرضت وأصيبت العام الماضي باليرقان، وأنفقت على علاجها أربعين ألف روبية، شراء الملابس، وخلافه، بالإضافة إلى ذلك يموت كل ثلاثة أشهر تقريباً أحد الأقارب، فأذهب مع الوالدة، ونؤدي الواجب، وكله على حسابي.. لا تُخفِني هكذا أمام هذا الجمع من الناس».

- «لكن الحساب لابد أن يتم هنا حيث وضعت المال».

- «يا أماه لماذا أنت صامتة.. لماذا لا تتكلمين؟»

نظرت الأم إلى جاويد مدير البنك نظرات تحمل كل معاني الرجاء والتوسل، ثم راحت تنظر بحسرة ومرارة، مرة بعد الأخرى إلى إقبال بيغم وتاج الدين، وكانت بعض حبات من سبحتها، تتحرك مجتمعة بعضها مع بعض، بين أصابعها حين بدأت تقول:

«أنتما أولادي، كلاكما فلذة كبدي.. ابني وابنتي.. والله فوق كسب العمر كله.. ماذا عندي غير هذا؟».

وصمتت فجأة.. وبدأت حبات المسبحة تتساقط بسرعة بين أصابعها، وكان جاويد مدير البنك يريد أن يهرب بجلده، كان يعرف أن الأخ وأخته سوف يستمران على هذا المنوال في جدل عقيم، وكان يشعر أيضاً أنه إذا لم يصل إلى البيت لتناول طعام الغداء فسوف تموت صافيناز من الجوع والعطش، وسوف يضطر إلى إرسالها إلى بيت أهلها لاسترضائها، فما دامت لن تعود إلى طبيعتها فلن تعود إلى البيت، ولن يستطيع أن يتحمل عذاب هذين اليومين أو الثلاثة التي تغيب فيها عنه؛ لهذا عرض حلاً لهذا الخلاف كله.

«يا أختاه! يمكن أن تفعلوا هكذا.. أن تغلقوا الحساب، وتسحبوا كل المبلغ، وتعطونه للأم.. فتحسب الأم مالك، وتعطي الباقي لتاج الدين، فيقوم تاج الدين بفتح حساب خاص به، فهذا المبلغ كان تاج الدين يرسله من الخارج، وحسابه في البنك كله كان عن طريق الحوالات بالعملة الأجنبية، فهو لم يدخل أي مبلغ آخر غير ما أرسل عن طريق تلك الحوالات..»

«صحيح.. بالضبط.. ما قلته صحيح» أخرج تاج الدين علبة السجائر المستوردة مع قداحة مطلية بالذهب، وأشعل سيجارته وهو ينظر ناحية أخته.. فسكتت الأخت ربما تحت إلحاح المصلحة..

«هيا يا أماه أخرجي دفتر الشيكات حتى يمكن أن نسوي حساباتنا».

فأخرجت الأم دفتر الشيكات من حقيبتها الصغيرة، وأعطته إلى إقبال بيغم، فوضعته إقبال بيغم على طاولة المدير، وراحت تنظر بكل مرارة إلى الجدران الزجاجية للمكتب، وتتفحصها من خارجها وداخلها.. نظرت إقبال بيغم إلى المدير نظرات كلها رعب، ثم ألقت بنظرة كراهية تجاه تاج الدين، ووضعت دفتر الشيكات أمام الأم، وقالت:

«خذي أعط كل ذي حق حقه».

وتقدم تاج الدين يريد أن يضع القلم في يد أمه، فإذا بالمسبحة تسقط على الأرض، وينفرط عقدها.. ثم مال جسد الأم البارد، وهوى على الأرض، واسترد الله أمانته التي أودعها عبده.

الهوامش

(*) شمس نعمان من كتاب القصة القصيرة المعروفين، برع في فن القصة، واستخدم الرمز في كتاباته، وقصصه حول المجتمع المحيط بنا وخلفيتها هي أيضاً المجتمع نفسه، وهو يجعل من الحقيقة مدعاة للحيرة، وقصة الأم والنصيب، وعنوانها الأصلي (الابن والابنة والله)، توضح مأساة المغتربين في كل مكان في باكستان أو مصر أو في السودان أو في غيرها، وهي توضح أيضاً بعد قليل من التمعن عناصر محبة الثروة المتغلغلة في داخل الإنسان، تلك العناصر التي لو غلبت على صلات الدم، وصلات الرحم لأوجدت مأساة أخرى.



المرتب

محمد أحمد الشافعي

دخل فريد أفندي حجرة «الأرشيف» مهرولاً، ليزف إلى زملائه البشرى بأن وجيه السنديوني صراف المصلحة قد ذهب إلى البنك لاستلام «المرطّبات» - هكذا نطقها - فكف دولاب العمل في الحجرة عن الدوران بآلية تنم على كفاءة باهرة في مُحرك الوقف. صحيح أن هذا الدولاب يدور بغير فائدة معلومة. إلا أن توقفه الظاهر لابد أن يثير لغطًا لا تحمد عواقبه؛ من جهة مخالفته لإحدى اللوائح العتيقة في قوانين الدواوين التي يعبر عنها مَثَلٌ يحسن ألا نذكره.

وسرعان ما ذاع الخبر بين بقية الموظفين، فبدؤوا ينسلون من الحجرات التي خوت في دقائق معدودة.

ومن ساعتها وكل واحد منهم يدور ببطء حول نفسه كالخروف في دوراته الأخيرة قبيل وقوعه على الأرض، ليشكل مع الآخرين في أثناء الدوران دوامات متناثرة.. يتلكأ أصحابها بقلق في انتظار عودة الصرّاف الهمام.

كانت صورة الصراف مطبوعة في مخيلاتهم جميعا في الوقت نفسه، وكان ظهوره المعتاد آخر كل شهر وهو قادم من نهاية الردهة بقامته القصيرة، وكرشه المنتفخ، وفي يمناه حقيبة المرتبات. ثم منظرهم وهم يخفون إليه، ليعودوا به ومعه من آخر الردهة إلى حجرة الخزانة، متكأكئين عليه، حتى يختفي بقامته القزمية فيما بينهم - قد أصبح تراثا مجيدا في حيواتهم جميعا.

وفي مقابل دولاب العمل المتوقف، توثب عقلهم الجمعي الوظيفي ليوزع عليهم الخواطر والأفكار والمشاعر، هذا العقل الذي يوحدهم في رحلته من المنبع إلى المصب، عبر زمان ينقسم وحدات بعضها شهور، وبعضها سنوات، وبعضها مصاير، مرورا بتفاصيل مختلفة ومتشابهة - في آن واحد - يعايشها كل منهم في حياته الخاصة.

كان أحدهم يتنفس الصعداء التي تعودت رئتاه تنفسها مرة كل شهر، وخواطره تتداعب، وتتخيل بعض الأماني التافهة وقد قاربت على التحقق. كيلو برتقال في رحلة العودة إلى البيت. فلوس الدرس التي يلح الأبناء على طلبها منذ أيام، لحظة شموخ إزاء صاحب المنزل، ومُحصِّل الكهرباء والمياه. أو ومضة مباهاة حين يخرج من جيبه عشرة جنيهات «مُجمَدَة» ليشتري شيئًا بقروش معدودة، وهو يعرف مقدما أن البائع سيعيدها إليه طالبًا «الفكّة»، كأنه يدفعه إلى التلذذ باللعبة مع سواه عدة مرات.

شراء علبة سجائر مقفلة، بدلاً من تسكعه طوال الشهر حول «كشك» يبيع السجائر «الفَرْط» إلى أن يخلو الشارع من المارة، فلا يراه أحد في شيبه ووقاره وهو يلملم السجائر من يد البائع الذي يعدها عادة ببطء قاتل؛ إلى ما لا يعد من هذه الخواطر المرحة.



كان آخر من الموسوسين، الذين لا يكف طائر الوهم عن التحليق فوق رؤوسهم، ولا شبح المرض عن ترويعهم وملاحقتهم بعد أن أصبحت فكرة معالجته ترفًا وعبئًا يهون الموت إلى جانبه.

كان هذا الرجل يذكر كيف سخرت منه زوجه وأولاده، حين طالبهم بألا يمرض أحدهم إلا أول الشهر، يوم الرجاء في القدرة على دفع أجر الطبيب، بدلا من أن يتورطوا في دخول مستشفى عام يدخله الناس أحياء من باب، لتتلقفهم يد الحانوتي من الباب الآخر. أو يورطوه في دخول مستشفى خاص، لا يسمحون بالسعال على عتباته قبل دفع تأمين لا يملكه غير أولي الثراء الفاحش من الناس، كان هذا الرجل يعيش ـ في انتظار وجيه السنديوني ـ أول لحظات نصف يوم الطمأنينة الشهري.

بينما كان آخر يعدونه من بينهم من عتاة المغامرين ـ قد انسل من المصلحة إلى دكان مجاور، وطلب زجاجة مياه غازية، مؤجلاً الدفع إلى أن يعود الصراف.

انتهى الوقت في زحفه الممل، إلى أن دقت الساعة الثانية بعد الظهر مؤذنة بانتهاء يوم وظيفي ولمّا يَعُدِ الصراف. تجلت على وجوههم خيبة الأمل، وأخذوا يجرجرون أرجلهم سالكين طريق الخروج.

كان شارب المياه الغازية يبكّت نفسه على مغامرته الأخيرة.. وكان آخر يتحسس جيب بنطاله مخرجًا عدة شلنات معدنية. ليعيد عدَّها، وليتأكد من أنها صحيحة ليس فيها معضوض أو ممسوح، فيردها إليه سائق العربة. إلى آخر ذلك من الصور التي يصعب تسجيلها. بينما كان أكثرهم وجوما فريد أفندي، الذي انضم إلى الجميع منذ ساعتين بعد أن أنساه جدهم في التعامل مع الخبر أن الأمر لم يكن إلا دعابة منه. فقد كان اليوم سبتًا تتعطل فيه «البنوك» كل أسبوع، وكان وجيه السنديوني الذي سكن في نفس شارعه قد أخبره بالأمس أنه لن يحضر غدًا.

الرزق والعمر

أبو فروة الرجبي

توقف البغل عند خط السكة الحديدية، عبدالمقصود يحاول العبور به إلى الجانب الآخر دون جدوى، وما إن دق جرس القطار إيذانًا بمروره حتى حاول العربجي أن يجبر بغله على الإسراع بالمرور. فهي ساعات النهار الأولى ولا بدَ من الإلحاح في طلب الرزق قبل أن يصحو باقي مريديه.. يسحب البغل إلى الخلف هذه المرة ليتفادى الوقوع هو ودابته تحت عجلات المقطورة. ولكن النتيجة واحدة.. فالبغل متشبث بموقعه، ويرفض التحرك أكثر من أي يوم مضى.

صوت القطار يتقارب، ودقات قلب العربجي تتعالى.. فما لبث أن فقد اتزانه، وأخذ يشحذ قواه البدنية والنفسية ليضمن تحرك البغل في أي اتجاه... المهم أن يتحرك. ولكن البغل ظل على موقفه بثبات وعناد. وانطلقت عبارات السب والشتائم كالصواريخ تعكس غضب العربجي وثورته من غباء البغل وبلادته. ولكن البغل لا يفقه من قوله شيئًا. فلم يجد عبدالمقصود بداً من الاستدارة في مواجهة البغل، وظهره لطريق القطار في مشهد استعطاف... بل استجداء للدابّة مصدر رزقه وقوت أسرته وعياله. ولكن كل المحاولات باءت بالفشل. ووقف العربجي يتلفت مذعوراً ومستجيراً، ولا يجد من ينقذه من ورطته، بينما القطار يمرق كالصاروخ في طريقه المفتوح، وفجأة حرك البغل رأسه انزعاجًا من صفارة القطار المندفع فإذ به يطيح بصاحبه ملقيًا إياه فوق القضبان التي دهمها القطار ممزقًا إياه إربًا إربًا... فلا حيلة في الرزق، ولا شفاعة في الموت!



من عادات الشعوب

الاحتفالات والأعياد السنوية في اليابان

أحمد محمد عيسى

الفصول الأربعة في اليابان متميزة مناخياً، والاحتفالات والمناسبات السنوية مرتبطة بتغير هذه الفصول.

ويحتفل اليابانيون باهتمام كبير بمضي عام وقدوم عام جديد. وتسمى فترة الاحتفال «شوجاتسو SHOGATSU» التي تعني ـ عموماً ـ أول شهر في العام. وتجتمع الأسر في أول كانون الثاني/ يناير لتناول نوع خاص من المشروبات للظفر بحياة طويلة وعمر مديد، ثم يتناولون حساءً يشتمل على كعك الأرز الجيلاتيني، ويعتقدون أن ذلك يزيل الذكريات غير السارَّة في العام المنصرم.



الشوارع تشهد فرحة الاحتفالات

ويزين الناس مداخل منازلهم بأفرع من أشجار الصنوبر، وقش الزينة اعتقاداً منهم أن ذلك يمنع دخول الشر والفساد. ويرتادون الأضرحة والمزارات لاستجلاب الحظ السعيد في العام الجديد، ويزورون بيوت الأقارب والأصدقاء لتبادل تحيات العام الجديد.

وفي تلك الأيام يقضي الأطفال أوقات الإجازات في ألعاب الحاسوب (الكمبيوتر)، وهناك عدد غير قليل من الأطفال يتمتعون في تلك الإجازات بالألعاب الترفيهية التقليدية مثل طائرات الورق والنحلة الدوارة والسيوجوروكي SUGOROKU.







الأطفال والكبار يشاركون في الاحتفالات

إن احتفال أول العام هو أكبر حدث في التقويم الياباني، وفيه تغلق مكاتب الحكومة والشركات ثلاثة أيام كل عام.

احتفال الستسوبن SETSUBUN

وكلمة «ستسوبن» كانت تعني قديما تحولات الفصول في التقويم القديم، ولكنها تعني الآن اليوم الثالث أو الرابع من شباط/ فبراير بالتحديد.

وفي التقويم القديم كان أول الربيع هو أول العام الجديد، واليوم الذي يسبقه - أو الستسوبن - هو نهاية العام. والطريقة التقليدية للاحتفال بهذا اليوم تكون بنثر حبات الفول حول البيت لطرد الأرواح الشريرة.

احتفال الدمية DOLL FESTIVAL

يسمى احتفال الدمية هينا ماتسوري HINA MATSURI وموعده «٣ آذار /مارس» من كل عام، وتقوم فيه الأسر والفتيات باستعراض مجموعة من الدمى تمثل المجلس الإمبراطوري القديم، ويحتفلون بتناول مشروب أبيض حلو المذاق.

عيد الطفولة CHILDREN'S DAY

منذ أزمنة بعيدة يحتفل الصينيون واليابانيون باليوم الخامس من الشهر الخامس من كل عام. وجعلت اليابان يوم ٥ أيّار / مايو إجازة وطنية، اعتبارا من عام ١٩٤٨م، وسمي عيد الطفولة. ويقتصر الاحتفال به على الأطفال حيث تقوم الأسر بتعليق رسومات لأسماك "الشبوط" خارج المنازل كرموز للقوة، ويعرضون دُمى الساموراي داخل المنازل، ويتناولون كعك الأرز.

احتفال التاناباتا TANABATA FESTIVIAL

ويُحتفل به في ٧ تموز/يوليو في مناطق، وفي ٧ آب/أغسطس بمناطق أخرى، ولهذا العيد أصوله في أساطير الفن الشعبي الصيني، حيث يحكي لقاءً سنويًا يحدث في «طريق ميلكي» بين نجم يُسمى «كوهيرد» أو - التائر - ونجم آخر يسمى «ويفر» أو - فيجا - .

وفي هذا العيد يكتب الناس أمنياتهم على صحائف من الورق الملون، ويثبتونها في أفرع الخيزران - البامبو -.

احتفال البون BON FESTIVAL

ويُحتفل به سنويًا عدة أيام في ١٥ تموز/ يوليو حسب التقويم القمري، ويعتقد اليابانيون أن أرواح الموتى تزور بيوتهم خلاله.!!

وغالبا ما يحتفلون بهذا العيد عدة أيام قبل أو بعد ١٥ آب/ أغسطس، وفيه يزور كثير من الناس مدنهم الأصلية، ومسقط رؤوسهم لزيارة مقابر أقاربهم وذويهم، حيث يضعون قناديل لإرشاد الأرواح القادمة إلى منازلهم والخارجة منها، ويقدمون الأطعمة للمتوفين، ويستمتعون بأداء رقصة خاصة تسمى «بون أودوري»، ثم يلقون بالقناديل لتطفو على سطح النهر.

ومن التقاليد البوذية أيضا احتفاء الناس في اليابان بقبور

ذويهم خلال فترتي التحول الربيعي في ٢١ آذار/مارس، والتحول الخريفي في ٢٣ أيلول/ سبتمبر.

الاحتفالات المحلية

لليابان تقليد قديم في تنظيم الاحتفالات والأعياد لدعوة الآلهة والترحيب والاحتفال بها.

وفي كثير من هذه المناسبات - مثل احتفال جايون في كيوتو وأوكنشي في نجازاكي - يتم تنظيم (طوابير) عرض بالأطواق الملونة الجميلة الزاهية والزخارف، وغالبا تتعاون المراكز والمناطق التجارية بعضها مع بعض لإقامة مهرجان عرض كبير.

الاحتفالات والأعياد الزراعية

منذ عصر «اليايو» (٣٠٠ ق.م حتى ٣٠٠ بعد الميلاد) عرفت اليابان زراعة الأرض الرطبة وكانت البداية والأساس لإنتاج



لكل احتفال في اليابان زيّه وطقوسه

الطعام. وارتبط كثير من الأعياد بالإنتاج الزراعي، خاصة زراعة الأرز.

فطقوس «الشانتو» كانت أساساً احتفالات يصلي الناس خلالها من أجل محصول وافر في العام التالي. ولازال اليابانيون يحتفلون بزراعة الأرز وشتله في جميع أنحاء اليابان، ويُصَلُّون خلالها من أجل حصاد طيب.

وتقوم فتيات الكيمونو - اللاتي يربطن أكمامهن بشرائط حمراء - بزراعة الأرز، بينما يعزف الموسيقيون بالقرب منهن على آلة الفلوت، ويدقون الطبول، ويقرعون الأجراس. والرقص المرتبط تقليديًا بتلك الاحتفالات تطور تدريجيًا كجزء من المسرح الشعبي المسمى «نوه» NOH.

وفي الخريف تتم احتفالات الحصاد، وتُمنح بشائر إنتاج حقول



دق الطبول والرقص في الشوارع من طقوس الاحتفالات اليابانية

الأرز إلى الآلهة. وفي القرى يحتفل كل اليابانيين باحتفال الخريف، وتجوب الشوارع عربات تحمل نماذج ترمز للآلهة.

وفي القصر الإمبراطوري يقوم الإمبراطور بتقديم العطايا من الحبوب الجديدة للآلهة!!.

احتفالات الصيف

إذا كانت احتفالات الربيع التي ينظمها اليابانيون للدعاء للآلهة من أجل محصول طيب، وشكرهم على الحصاد، فإن كثيراً من احتفالات الصيف وأعياده تكون للوقاية من المرض، والشفاء منه.

وأهم احتفالات الصيف ثلاثة: احتفال جايون في كيوتو، واحتفال تنجن في أوساكا، واحتفال كاندا في طوكيو.

واحتفال الجايون في ١٧ تموز/ يوليو المشهور بـ (طابور) العربات المكون من (٣٢) عربة تطوف الشوارع، كان في الأصل احتفالا لجماعة روحية منتشرة منذ عصر هيان HEIAN (٩٧٤ - ١١٩٢م) عبر العصور الوسطى.

ويعتقد أفراد هذه الطائفة أن الكوارث والأوبئة سببها أرواح أناس أقوياء مات أصحابها، وخلفوا الكراهية والمقت. والأوبئة تحدث بصورة متكررة في الصيف، لذا فإن معظم احتفالات الصيف كانت تنظم لاتقاء غضب الأرواح المسببة للأوبئة.

وفي احتفال التنجن TENJIN - وله أصوله في طائفة روحية - فإن عددًا كبيرًا من القوارب التي تحمل الطبول والدمى تتبع قوارب تحمل أطواقًا ملونة في أنهار أوساكا OSAKA.

احتفالات أخرى مهمة

من أهم احتفالات الصيف في اليابان وأضخمها الذي يجذب كثيرًا من السيّاح كل عام احتفال نيبوتا NEBUTA في أوموراي AO-MORI وفي المناطق الشمالية الشرقية في أوائل شهر آب/أغسطس.

وفيه تنظم (طوابير) عربات ورقية ضخمة مضاءة من الداخل تصور شخصيات مشهورة قديمًا وحديثًا. ويقال: إن ذلك الاحتفال مستمد من طقس روحي لدفع النعاس، ولذلك فإنه من المعتقد أن كلمة نيبيوتا مشتقة من الاسم الياباني للنعاس.

أما احتفال ناجازاكي أوكنشي NAGASAKI OKANCHI في تشرين الأول/أكتوبر، فهو احتفال مشهور برقصة التنين، التي أصلها في الصين، وفيه تجوب شوارع المدينة عربات تصور نماذج السفن التجارية لعصر إيدو EDO، والحيتان بنافورات المياه المندفعة منها.. ورموز أخرى.

الإجازات الوطنية اليابانية

اليوم	المناسبة
١ كانون الثاني/ يناير	عيد رأس السنة.
١٥ كانون الثاني/ يناير	حلول عيد العمر.
١١ شباط / فبراير	ذكرى تأسيس الأمة.
٢١ آذار / مارس	عيد بداية فصل الربيع.
٢٩ نيسان/ أبريل	عيد الخضرة.
٣ أيار/ مايو	يوم الدستور.
٥ أيار / مايو	عيد الطفولة.
١٥ أيلول / سبتمبر	عيد المسنين.
٢٣ أيلول/ سبتمبر	عيد بداية فصل الخريف.
١٠ تشرين الأول/ أكتوبر	يوم الصحة والرياضة.
٣ تشرين الثاني/ نوفمبر	عيد الثقافة.
٢٣ تشرين الثاني/ نوفمبر	عيد العمل.
٢٣ كانون الأول / ديسمبر	عيد ميلاد الإمبراطور.

عندما يأتي يوم ٣ أيار/ مايو ويوم ٥ أيار/مايو في أسبوع واحد يكون ٤ أيار/ مايو أيضاً إجازة.

بسم الله الرحمن الرحيم

AGFUND - ARAB GULF PROGRAMME FOR UNITED NATIONS DEVELOPMENT ORGANIZATIONS



برنامج الخليج العربي لدعم منظمات الأمم المتحدة الإنمائية

إعلان

جائزة برنامج الخليج العربي الدولية السنوية

للمشروعات التنموية الرائدة

يعلن برنامج الخليج العربي لدعم منظمات الأمم المتحدة الإنمائية أنه سيبدأ، اعتباراً من هذا العام 1999م ، منح جائزته الدولية السنوية المشروعات التنموية الرائدة في الدول النامية ، وبذلك يدعو جميع الجهات المعنية العاملة في مجال التنمية البشرية المستدامة ، مشتملة على المنظمات الدولية والإقليمية والجمعيات الأهلية والجامعات ومراكز البحوث والمؤسسات العلمية ، لتقديم ترشيحاتها لهذه الجائزة .

تبلغ قيمة الجائزة (300.000) ثلاثمائة ألف دولار أمريكي، إضافة إلى شهادات وميداليات . ويوزع هذا المبلغ على المشروعات الفائزة في ثلاثة ميادين تنموية هي :

1 - جائزة المشروعات التنموية الريادية المنفّذة من قبل المنظمات الإقليمية أو الدولية . وموضوعها لهذا العام : " **محاربة الفقر والتخفيف من حدته في المجتمع** " عن طريق التدريب ومشروعات القروض صغيرة الحجم . والمشروعات التي يمكن ترشيحها لجائزة هذا الموضوع، هي فقط مشروعات المنظمات الدولية والإقليمية في الدول النامية .

2 - جائزة المشروعات التنموية الريادية المنفّذة من قبل الجمعيات الأهلية . وموضوعها لهذا العام : " **تدريب المرأة الريفية للاعتماد على الذات** " . والمشروعات التي يمكن ترشيحها لجائزة هذا الموضوع ، هي فقط مشروعات الجمعيات الأهلية التي تخدم مجتمعاتها المحلية في العالم النامي .

3 - جائزة المشروعات التنموية الريادية المنفّذة من قبل الأفراد . وموضوعها لهذا العام : "**تأهيل أطفال الشوارع والمشردين ودمجهم في المجتمع** " . والمشروعات التي يمكن ترشيحها لجائزة هذا الموضوع ، هي فقط المشروعات الفردية في مجتمعات العالم النامي .

تعاد استمارة الترشيح بعد تعبئتها إلى إدارة الإعلام والعلاقات العامة بالبرنامج في موعد لا يتجاوز **31 مايو 1999**م .

لمزيد من المعلومات يمكن الاتصال بـ :

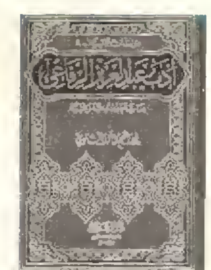
إدارة الإعلام والعلاقات العامة

برنامج الخليج العربي لدعم منظمات الأمم المتحدة الإنمائية

رقم الهاتف : 4418888 1 966 رقم الفاكس : 4412963 1 966

بريد إلكتروني : prmedia@agfund.org

ص.ب ١٨٣٧١ الرياض ١١٤١٥ - تلفون ٤٤١٣٢١٨ - ٤٤١٦٢٥٧ - ٤٤١٨٨٨٨ - فاكس ٤٤١٢٩٦٣ - e-mail: agfund@khaleej.net.bh - المملكة العربية السعودية
P.O. Box 18371 Riyadh 11415 - Tel. 4413218 - 4416257 - 4418888 - Fax 4412963 - e-mail: agfund@khaleej.net.bh - Kingdom of Saudi Arabia

الشتوي، إبراهيم بن محمد / أدب عبدالعزيز الرفاعي: دراسة موضوعية وفنية .. الرياض: دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ٥١٧ ص.

يتضمن هذا الكتاب دراسة أكاديمية موثقة عن أدب الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي - رحمه الله - بوصفه نموذجًا من الإنتاج الفكري لرواد الأدب العربي في المملكة العربية السعودية.

وقد بذل المؤلف جهدًا واضحًا في التوثيق لهذا الأديب (شعره ونثره)، عرضًا ودراسة وتقويمًا، وتحدث عن حياته وندوته الأدبية التي كان يعقدها وموضوعاته الشعرية التي تناولها: الإسلاميات، والوجدانيات، والإخوانيات، والوصف، والمناسبات، والاجتماعيات، والرثاء. قدّم المؤلف في هذا الكتاب دراسة تناول في مضمونها التجربة الشعرية والأفكار، وفي شكلها بناء القصيدة والأسلوب والصور الشعرية والموسيقى لهذا الأديب الشاعر الفذ.



المهنا، محمد بن عبدالله / سجل أعمال مجلس الشورى وإنجازاته خلال دورته الأولى (١٤١٤ - ١٤١٨هـ)، (١٩٩٣ - ١٩٩٧م) .. الرياض: مطابع هلا، صفر ١٤١٩هـ. ١٥٨ص.

صدر هذا الكتاب بعد إكمال مجلس الشورى لدورته الأولى راصدًا الإنجازات التي تحققت إبان تلك الدورة، ومبرزًا وقائع الأعمال والنشاطات التي شهدتها أروقة المجلس خلال أربع سنوات مدة دورة المجلس. تعرض الكتاب - في الجزء الأول منه - للتغيرات التي طرأت على تشكيلة المجلس، وخطاب خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز بمناسبة افتتاح أعمال الدورة الأولى للمجلس.

وفي الجزء الثاني عدّد الكتاب نتائج أعمال المجلس خلال دورته الأولى، وأعمال لجانه المتخصصة، ثم نتائج أعمال المجلس خلال السنوات الثانية والثالثة والرابعة.

وفي الجزء الثالث إنجازات المجلس خلال الدورة الأولى، وما اتسم به أداء المجلس من فاعلية وجدية وموضوعية، وإصدار وتعديل العديد من الأنظمة والاتفاقيات، وإرساء أسس وقواعد الشورى في المملكة، وإنجازات أجهزة المجلس. وجاء الجزء الرابع عن الزيارات التي قامت بها وفود من المجلس إلى الخارج، ووفود المجالس والبرلمانات التي زارت المجلس، وأيضًا زيارات كبار الشخصيات للمجلس.

وختم الكتاب بعدد من الملاحق الوثائقية.

اليوسف، سعود بن عبدالرحمن / شعراء من الوشم - الرياض: دار الصميعي، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، ٢مج.

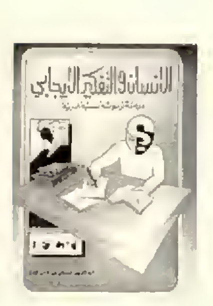
يقع هذا السفر في جزأين، وقد أرّخ فيه المؤلف لعدد كبير من فحول شعراء الوشم مستعرضًا حياتهم وأشعارهم، ذاكرًا المناسبات التي قيلت فيها هذه الأشعار، مع شرح ضاف لبعض الكلمات والجُمل التي يرى الكاتب أنها قد تُشكل على فهم القارئ. ولهذا الكتاب فوائد عدة، منها أن المطلع على ما فيه من أشعار وقصص وطُرف يستطيع أن يعرف طرق الحياة في تلك الأيام، كما أن القارئ يكسب منه النصائح والتجارب والحكم والأمثال.

وقد كتب في مقدمته الأستاذ أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري توطئةً جامعة عن بلاد الوشم بعنوان: «توطئة عن الوشم والوشوم» مصدّرًا بها هذه المجموعة الشعرية.

الحسيني، علي الرضا / زين.. الدار الحسينية للكتاب، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ٢٣٢ص.

يحتوي الديوان على أكثر من مئة وأربعين قصيدة شعرية كُتبت باللغة العربية الفصحى وجرت على الأوزان المعروفة في الشعر العربي.

عالج المؤلف في هذه القصائد كثيرًا من المواضيع المطروقة في الشعر العربي مع التركيز على القصائد الوعظية والإرشادية التي تدعو إلى القيم النبيلة وتحث على مكارم الأخلاق. يحث الشاعر - في بعض قصائده - شباب الأمة الإسلامية على التمسك بالقيم الإسلامية النبيلة وعدم مجاراة العادات الدخيلة على المجتمع المسلم، وقد صاغ كثيرًا من تجاربه في هذه القصائد.



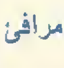
الملا، عيسى بن علي / الإنسان والتفكير الإيجابي.. الدمام: مطابع الابتكار، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ١٨١ص.

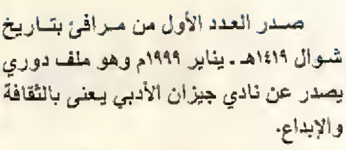
عالج المؤلف في هذا الكتاب مسألة النمو الشخصي والفهم من خلال اكتساب فضيلة التفكير الإيجابي وانعكاس ذلك التفكير عن حسن الفهم.

واستعرض الصورة الذاتية التي يضعها الإنسان لنفسه ومناطق الارتياح النفسي في التحرك حولها وعدم الخروج على إطارها.

كذلك تناول مسألة: «كيف تنعم بالراحة النفسية والهدوء؟» ليعالج بذلك عددًا من قضايا النفس .

طائر، خلدون /
ملحمة علي الكاشاني.. الكويت:
مطابع دار السياسة، أبريل ١٩٩٩م،
٢٠٥ص.

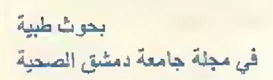




ضمن إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب بدولة الكويت، صدر العدد رقم ٣١٧ من إبداعات عالمية (مسرحية) بعنوان «ملحمة علي الكاشاني». جمعت المادة المسرحية لهذا النص من منطقة الأكواخ، وقد اعتاد المؤلف أن يقضي بها الأسبوع الأخير من كل شهر في عام ١٩٦٠م. المسرحية منقولة عن اللغة التركية، وقد اجتهد المترجم في ألاّ يبتعد كثيراً عن مستويات الحوار بقدر الإمكان.

وجدت هذه المسرحية رواجاً عظيماً، وقد أُعدت فيلماً سينمائياً، وقدمتها أكبر الفرق المسرحية الأوربية.

وقد تناولها كثير من النقاد المسرحيين في مختلف أرجاء العالم، بل إنها قدمت أطروحات دكتوراه في أسلوبها، وفي مقارنتها بالمسرح الملحمي البرشتي.



السخاوي،
محمد بن عبدالرحمن (ت ٩٠٢هـ) /
الجواهر والدُرر في ترجمة شيخ
الإسلام ابن حجر.
تحقيق إبراهيم باجس عبدالمجيد..
بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٩هـ.
١٩٩٩م، ٣ أجزاء، ١٤٠٤ص.

يتناول هذا الكتاب بالتفصيل حياة الحافظ ابن حجر العسقلاني، المتوفى سنة ٨٥٢هـ، وقد جعله مؤلفه السخاوي في مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة، بيّن فيها نسب شيخه ابن حجر وأسرته ونشأته العلمية، وذكر أسماء شيوخه الذين درس عليهم العلم والكتب التي قرأها عليهم، كما سرد أسماء تلاميذه، وفي غضون الكتاب أوضح الدور البارز الذي أداه ابن حجر في الحياة العلمية في القرن التاسع الهجري، من خلال اجتهاداته في علوم التفسير والحديث واللغة وغيرها. وختم المؤلف الكتاب بخاتمة ذكر فيها عنوانات أهم الكتب في التاريخ والسير والتراجم.

كما يؤرخ الكتاب لكثير من القضايا العلمية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التي سادت في القرن التاسع الهجري.

مرافئ

صدر العدد الأول من مرافئ بتاريخ شوال ١٤١٩هـ. يناير ١٩٩٩م وهو ملف دوري يصدر عن نادي جيزان الأدبي يعنى بالثقافة والإبداع.

وقد جاء العدد الأول من هذا الإصدار الجديد حاوياً لكثير من الموضوعات: صهيل الشعر، وتداعيات السرد، وفضاء النقد، وذاكرة المخلاف، ونافذة على الأدب العالمي، وأصوات قادمة، وأخيراً متابعات.





بحوث طبية
في مجلة جامعة دمشق الصحية

صدر المجلد ١٤ من العدد الأول لمجلة جامعة دمشق للعلوم الصحية بتاريخ ١٩٩٨م، وهي مجلة علمية محكَمة دورية.

وقد جاء هذا العدد حافلاً بكثير من البحوث الطبية التي تناقش كثيراً من الأمراض كتبها أطباء مختصون في هذه المجالات.

البحوث كتبت باللغة العربية مع عمل ملخصات (ABSTRACTS) مختصرة لها باللغتين العربية والإنجليزية.

وقد دُعِّمت هذه البحوث بالجداول والرسوم التوضيحية.



خمسة أعوام على صدور
مجلة الأدب الإسلامي

صدر العدد العشرون من مجلة الأدب الإسلامي، مشتملاً على كثير من الموضوعات المتنوعة في الأدب والشعر والمسرح والقصة؛ إضافة إلى الأبواب الثابتة في الشعر والنثر ومكتبة الأدب الإسلامي، وردود ومناقشات، والأقلام الواعدة، وأخبار الأدب الإسلامي. بهذا العدد تكون مجلة الأدب الإسلامي الفصلية قد أكملت عامها الخامس.



عدد خاص
من مجلة جامعة الإمام

صدر العدد الرابع والعشرون من مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بتاريخ شوال ١٤١٩هـ، وهي مجلة دورية علمية محكَمة تصدر عن عمادة البحث العلمي بالجامعة. وقد صدر هذا العدد احتفالاً بمرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، ولذا جاء محتوياً على بحوث قيمة وموثقة عن تاريخ الملك عبدالعزيز طيَّب الله ثراه.

لماذا احترقت النمور الآسيوية ؟

أكاديمية المملكة المغربية مراجعة: قسم التحرير

عقدت الأكاديمية المغربية في دورتها الربيعية في مدينة فاس في أيام ٧ و ٨ و ٩ من شهر محرم سنة ١٤١٩هـ، الموافق ٤ و ٥ و ٦ مايو/أيار ١٩٩٨م، ندوة تحت عنوان «لماذا احترقت النمور الآسيوية؟»، وقد اشتملت الندوة على عدة محاور: تناول المحور الأول مرحلة ازدهار النمور الآسيوية، وكان عنوان المحور الثاني: لماذا احترقت النمور الآسيوية؟ أما المحور الثالث والأخير: فقد كان عن آفاق المستقبل.

قدم الأستاذ عثمان العمير عضو الأكاديمية بحثًا بعنوان «التفاعلات المحتملة لأزمة شرق آسيا».

أشار الكاتب في بداية بحثه إلى اعتقاده أن الطبيعة الدقيقة لهذه الأزمة تتمثل في أن هذه البلدان تواجه أزمة التحديث بمعناها السياسي والإنساني، فقد تبنّت هذه الدول الخط الغربي، أو النمط الغربي في كل أوجه الحياة، بينما لم تستوعب مجتمعات هذه الدول بعد جوهر قيم الحضارة الصناعية الغربية.

يشير الكاتب إلى غياب الحرية في المجتمعات الآسيوية، ويقول: إن ذلك جعل وسائل الإعلام تضلل شعوب آسيا، وبقية شعوب العالم بالطبيعة الحقيقية للمعجزة الاقتصادية التي لم تكن موجودة أصلاً، وطالب الباحث بتبني تدابير لتشجيع التدفق الحر للمعلومات في المجتمعات الآسيوية وتسهيله.

أشار الكاتب إلى بحث البروفسور الأمريكي صامويل هنتينغتون حول «صراع الحضارة» ورد المفكر العربي الأمريكي إدوارد سعيد عليه ببحث تحت عنوان «صدام الحضارات.. أم صدام التعاريف؟». ثم تحدث الباحث عن الكم الهائل من التعاريف الذي صاحب ثورة الاتصالات، وأوضح أن هذه التعاريف والمصطلحات كالديمقراطية، والعولمة، والاقتصاد الحر وغيرها انتشرت بكثرة بعد بزوغ شمس النظام العالمي الجديد عام ١٩٨٩م وذكر أن هذه المصطلحات تختلف كمًا ونوعًا في دول الشمال عن دول الجنوب.

وتحدث بعد ذلك عن النموذج الاشتراكي، وبيّن التفاوت الواضح بين الأنظمة الاشتراكية نفسها.

ذكر الكاتب أن الديمقراطية بمفهومها الغربي قائمة على التقاليد المؤسساتية، وفصل السلطات، والحياة الحزبية الناشطة، وأن مثل هذا النظام لا يوجد في شرق آسيا، وأن الدول الآسيوية الموصوفة بالديمقراطية استفادت من الدعم الغربي لها إبان فترة الحرب الباردة لكونها درعًا إستراتيجيًا ضد المد الشيوعي.

وأورد التقرير الذي نشر في مجلة «الإيكونومست» بتاريخ ٧مارس/آذار ١٩٩٨م والذي يشير إلى أن هذه الدول عانت بطرق مختلفة للأسباب التالية:

- أدت المبالغة في توقعات النمو على امتداد المنطقة إلى جعل رؤوس الأموال رخيصة مما شجع على الإفراط في الاستدانة.
- إنفاق مبالغ طائلة في المضاربات الاستثمارية العقارية، وخلق طاقات ضخمة فائضة عن الحاجة في المشاريع الصناعية.
- أدّى مزيج خطير من تثبيت أسعار الصرف، وتسريع انفتاح الاقتصادات الإقليمية على رؤوس أموال أجنبية قصيرة

عثمان العمير: النمور الآسيوية تواجه أزمة التحديث بمعناها السياسي والإنساني

الأمد إلى ارتفاع حاد للمديونية للمصارف الأجنبية.

- تفاقم الحالة، مما عجل بتفجر الفقاعة، بسبب نقص الضوابط اللازمة في الأنظمة المصرفية الإقليمية، والصلات الوثيقة - وأحيانًا المجللة بالفساد والمحسوبية - بين الشركات والمصارف والحكومات، التي شجعت المدينين والدائنين على السواء على الاعتقاد بأن الحكومات ستمد لهم يد العون عند حدوث أي مشكلة.

ويشير الكاتب إلى أن هذه الأسباب لم تكن محصورة في دول شرق آسيا فقط، بل موجودة في أغلب دول العالم، وخصوصاً دول العالم الثالث.

ثم يسأل: هل هنالك لقاح وقائي، أو علاج شافٍ لهذه الهزات الاقتصادية، وما قد تدمره من استقرار سياسي واجتماعي؟

ويجيب الكاتب بالإيجاب، ولكن ذلك مرهون - على حسب رأيه - باعتماد مزيد من المكاشفة المسؤولة، والرقابة (اللاتسلطية)، وهذا يعني ممارسة الديمقراطية الحقيقية، كما تمارس في أوربا وأمريكا الشمالية.

ويذكر الكاتب أيضاً علاجًا مهمًا آخر وهو تمتع القطاع الخاص والحكومات على حد سواء بالوعي والواقعية، وإدراك الاتجاهات العامة لرياح الاقتصاد العالمي.

ثم يذكر أن العولمة أصبحت أمرًا واقعًا، وعلينا في هذه المرحلة الاعتراف بالحقائق التالية المرتبطة بما سبق:

- أن الهوة بين الدول المتقدمة والدول الفقيرة تتسع ولا تضيق.

- أن استهلاك التقانة (التكنولوجيا) شيء وتطويرها شيء آخر. والدول النامية مستهلكة للتكنولوجيا.

- أن تحدي أنشطة (ديناميكيات) الاقتصاد العالمي عن طريق المواجهة هو أشبه ما يكون بمحاولة صبيانية موسومة بالإخفاق.

ثم يسأل الكاتب في ختام بحثه عن: ماذا أعددنا لهذا التحدي كدول صغيرة في العالم الثالث خاصة، وفي إفريقية وآسيا بصفة عامة؟

ويجيب بأننا لم نأخذ هذا الأمر بجدية حتى الآن، ويأمل أن يكون العمل المشترك من بين اللبنات الأولى لهذا العمل.

وقدم الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد عضو الأكاديمية بحثًا بعنوان: «الأزمة الاقتصادية الآسيوية تعليقات وهوامش».

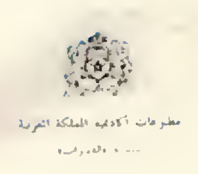
بدأ الباحث بحثه بأنه ليس مختصاً في الاقتصاد، ولكن للموضوع الاقتصادي امتدادات اجتماعية وسياسية وتعليمية وأخلاقية، وقد تكون هذه الامتدادات هي السبب المباشر في تفجر هذه الأزمة. والأمر الآخر أن هذه الأزمة نشبت حديثًا، ولابد من الحذر من قبل إصدار أي حكم، وهذا ما حدا بالدول الثماني الكبار التي اجتمعت في لندن في ٢١ و ١٩٩٨/٢/٢٢م للترحيب بالتجاوب الدولي مع الأزمة، واستعداد صندوق النقد الدولي للإسهام في حلها، دون الخوض في أية تفاصيل أخرى.

يقول الكاتب: إننا نحتاج إلى كثير من الوقت لكي نحكم على هذه الأزمة حكمًا حقيقيًا، فقد تغيرت كثير من المواقف في الأشهر الأخيرة، واستشهد بالمشكلات التي حدثت بين صندوق النقد الدولي والرئيس الأندونيسي سوهارتو.

ولمعرفة أسباب الأزمة يلجأ الباحث إلى مناقشة ثلاثة مصطلحات كثر استعمالها، والاستشهاد بها، وهي «النموذج الغربي»، و«القيم الآسيوية»، و«المعجزة الآسيوية».

ويذكر أن عددًا من المحللين الاقتصاديين لايرون أملاً في انفراج قريب لهذه الأزمة ويخافون من امتدادها شمالاً. وعلى عكس هؤلاء يرى بعض المحللين أن اقتصاد دول شرق آسيا هو اقتصاد حقيقي قد تصيبه الهزّة ولكنه لا ينهار.

الاختلاف نفسه لازم المحللين في تحديد أسباب الأزمة: فبعضهم يرجعها إلى أسباب داخلية محضة تتمثل في



لماذا احترقت
«النمور» الآسيوية؟

موضوع الدورة الأولى لسنة ١٩٩٨

لماذا احترقت النمور الآسيوية ؟

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

الرباط: سلسلة «الدورات»، الدورة الأولى ١٩٩٨م، فاس (٦- محرم ١٤١٩هـ/ ٤ - ٦ مايو/ أيار ١٩٩٨م).


رئيس الوزراء الماليزي محاضر بن محمد

طبيعة نظام الحكم والبناء الاقتصادي في تلك البلاد. وبعضهم الآخر أرجعها إلى عوامل خارجية من ورائها الولايات المتحدة الأمريكية.

استعرض الباحث بعد ذلك التقرير الإستراتيجي العربي لعام ١٩٩٧م، الذي قدم تحليلاً وتفصيلاً لأبعاد هذا الصراع، وقد تبنى فكرة قوة الاقتصاد الآسيوي وصلابته.

ويورد في نهاية بحثه بعض الملاحظات، ويسأل هل حقق هذا الدرس هدفه، وخضعت هذه الدول لسياسة البنك الدولي؟ وهذا يعني سيادة المقاييس والمعايير الأمريكية، وانهزام الخصوصيات الآسيوية.

وجاء بحث الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة تحت عنوان: مع النمور الآسيوية، وإلى أين؟

بدأ الكاتب بحثه باستعراض لحوار صحفي أجري مع الرئيس الماليزي محاضير محمد نُشر في أوائل يناير / كانون الثاني عام ١٩٩٧م، وقد تعرض الرئيس الماليزي في هذه المقابلة لماضي ماليزيا وحاضرها، وأوضح أنها أصبحت من الدول القوية بفضل جهد شعبها وكفاحه.

وتحت عنوان «الأزمة المالية والاقتصادية في جنوب شرق آسيا» نوه الباحث بأن هذه الأزمة ليست الأولى في عقد التسعينيات، فقد بدأت بأوربا في عامي ١٩٩٢و ١٩٩٣م، ثم مرّت بأمريكا اللاتينية عام ١٩٩٤م لتصل إلى مجموعة دول جنوب شرق آسيا في عام ١٩٩٧م، وأوضح أن الفرق بين هذه الأزمات أن الأخيرة أكثر حدة.

ثم تحدث بعد ذلك عن ظواهر الأزمة في دول (آسيان)، وعن هبوط عملتها المحلية؛ مما اضطرها إلى التعويم لتفقد العملة كثيراً من قيمتها.

أوضح الكاتب رأي الغربيين في هذه الأزمة، وبيّن أنهم بعد أن هلّلوا لهذه الدول، وعدّوا ذلك أمراً يثير الغبطة لكونه دليلا على صواب الاعتقاد السائد لديهم، نجدهم بعد الأزمة يكتبون عكس ذلك. كتب أروين متلز معلق الصاندي تايمز: «لعل أهم أحداث ١٩٩٧م هو انهيار الاقتصاديات الآسيوية، فقد أعاد الثقة بالنموذج الاقتصادي الأمريكي بعد أن قيل لنا طوال سنوات: إن الرأسمالية الآسيوية التعاضدية هي موجة المستقبل».

وتعرض بعد ذلك إلى انشغال العالم بهذه الأزمة، ودلّل على ذلك بانكباب مؤتمر منتجع «دافوس» السويسرية الذي يضم الآلاف من رجال المال والاقتصاد والسياسة في دورته الأخيرة في ٢٩ يناير/ كانون الثاني - ٢ فبراير/شباط ١٩٩٨م على مناقشة أبعاد هذه الأزمة من كل الجوانب.

يرى الباحث أن أسباب الأزمة - وهذا عنوان - هو التداخل الكبير بين الأسباب السياسية والاقتصادية، الداخلية والخارجية، وتطرق إلى نظام الاستثمار والمضاربة والعملة في هذه الدول قبل حدوث الكارثة، ثم تحدث عن نظام العولمة، وأشار إلى المظاهر والنذر التي سبقت هذه الكارثة، وكانت تدل على حدوثها.

ثم تحدث بعد ذلك عن المواقف التي اتخذتها دول العالم للتخفيف من آثار الأزمة عليهم، وفي الوقت نفسه عقدوا العزم على مساعدة هذه الدول لتجتاز محنتها.

يتفاءل الكاتب في قرب انفراج هذه الأزمة معللاً ذلك بالتصريحات الإيجابية لوكالات منظمة الأمم المتحدة للتجارة والتنمية وغرفة التجارة الدولية، ثم إشارة الشركات الكبرى في العالم إلى ثقتها في الاقتصاد الآسيوي على الرغم من هذه الأزمة.


صامويل هنتينغتون

وكان بحث الأستاذ أحمد صدقي الدجاني تحت عنوان: «دروس الأزمة الاقتصادية في آسيا»، الذي يسأل في بداية بحثه عن حقيقة النمور الآسيوية: هل هي حقًا نمور أم نمور من ورق خلقها الإعلام؟.

بداية يورد الباحث أن كل الدراسات التي قدمت دلت على أن هذه الدول الآسيوية الثماني حققت نهوضاً حقيقياً ولافتاً للنظر، وأن وراء هذا الازدهار عوامل داخلية وأخرى خارجية.

الداخلية: وقد أجملها أحد الباحثين في «استقرار سياسي، وقوى عاملة مدربة ورخيصة، وأسواق ضخمة للمنتجات الاستهلاكية الأساسية والكمالية، والسلع الوسطية، والآلات والمعدات في أكثر المجالات»، وعامل داخلي ثانٍ هو أن الدول وفرت إطاراً قانونياً، ونظاماً ضريبياً جاذباً للاستثمارات الخارجية المباشرة وغير المباشرة في أسواق رأس المال المنظمة.

العامل الخارجي: يقول عنه الباحث: إنه أمر متعلق بالعولمة، وهو أن الدول

ناصر الدين الأسد: ما حدث هو نوع من أنواع «صراع الاقتصاديات» على غرار «صراع الحضارات»

الغربية الغنية خاصة الولايات المتحدة الأمريكية - فتحت أسواقها أمام المنتجات الآسيوية، ثم إن كثيراً من الشركات الأجنبية أقبلت على الاستثمار في هذه الدول.

ويشير إلى أن أول إرهاصات هذه الأزمة بدأت في النصف الثاني من أيار/مايو ١٩٩٧م حينما حاولت تايلاند المحافظة على سعر صرف عملتها (الباهت) فأعلنت فك ارتباطه بالدولار الأمريكي؛ مما جعل قيمته تنخفض فوراً بنسبة ٢٠٪، ثم تلا ذلك انخفاض أسعار صرف باقي عملات المجموعة.

كما أن أحد أسباب هذه الأزمة هو استمرار العجز في ميزان الدفوعات، وفي ميزان التجارة، وفي الميزان الحكومي. سبب آخر هو تمويل العجز في ميزان المدفوعات من خلال رأس المال المحلي PORT FOLIO CAPITAL، والقروض الخارجية المشتركة. وسبب ثالث هو تصاعد عمليات الإقراض المحلي بمعدلات غير مسبوقة في السنوات الأخيرة. وأرجع الباحث السبب الرابع إلى رد الفعل الحكومي في بداية الأزمة، واتهامها المضاربين بالتآمر والفساد، والقيام ببعض الإجراءات الاقتصادية.

وتحدث بعد ذلك عن ضعف الرقابة الحكومية في هذه الدول، مثل ضعف رقابة البنك المركزي على النظام المالي المصرفي، والفساد الحكومي الذي وصل إلى قمة السلطة في حكومات بعض هذه الدول؛ هذا بالإضافة إلى استعصاء قوة رأس المال المحلي الكبير على سلطة الدولة بعد أن تحالفت مع رأس المال الأجنبي، واحتكرت السوق المحلية.

لعلاج هذه الأزمة يرى الباحث أن يكون علاج الأسباب الداخلية هو مسؤولية الدول الآسيوية نفسها، ويصف الخروج منها باعتماد نظام (المحاسبة) حتى يُقضى على الفساد، ثم بسط الشورى والديمقراطية.

أما علاج السبب الخارجي فهو - كما يرى الكاتب - مسؤولية دولية، ولابد أن تتكاتف جميع دول العالم لإصلاح هذا النظام.

وعرج بعد ذلك على انعكاسات هذه الأزمة على النظام الاقتصادي العالمي، والضرر الذي أصاب اقتصاديات بعض الدول من جراء هذه الأزمة.

ويسأل في نهاية البحث هل ستخرج النمور من هذه الأزمة؟ ويرى أن ذلك ممكن، فقد أعلنت كثير من الشركات عن ثقتها في الاقتصاد الآسيوي على الرغم من الأزمة. ثم شهادة مؤتمر القمة الأوربية - الآسيوية الثانية الذي انعقد في لندن في يوم ١٩٩٨/٤/٣م، والتي تقول: «إن الدول الآسيوية قادرة على الخروج من محنتها، وقد بدأت تسير في الطريق الصحيح لاسترداد عافيتها بعد أن تجاوزت الأسوأ».

يختم الباحث حديثه بالجهود المبذولة إقليمياً ودولياً للخروج من هذه الأزمة، وعلى رأس هذه الجهود البنك الدولي الذي يُخشى أن يؤدي تدخله، وفرض شروطه إلى تفجر الاستياء الشعبي.

ويخلص إلى أن الدرس المستخلص من هذه الأزمة: أن النظام الاقتصادي العالمي يعاني من خلل، وهو محتاج إلى مراجعة وتقويم تقوم بهما كل دول العالم.

ويضم الكتاب ملخصات لأبحاث قدمت باللغات الأجنبية مترجمة إلى العربية.

وأعقب تقديم هذه البحوث نقاش مستفيض تناول جوانب هذه الأزمة كلها.



الرئيس الأندونيسي السابق سوهارتو

محمد الحبيب ابن الخوجة: تتداخل الأسباب السياسية والاقتصادية، الداخلية والخارجية للأزمة، كما تختلف التأويلات والمسوغات

أحمد صدقي الدجاني: النظام الاقتصادي العالمي في حاجة إلى مراجعة وتقويم من جميع دول العالم

فخ العولمة:

الاعتداء على الديموقراطية والرفاهية

هانس - بيتر مارتين وهارالد شومان
مراجعة: أحمد حسين الجهماني

في نهاية الثمانينيات من القرن العشرين الميلادي ظهر للوجود مفهوم العولمة. وأخذ يتبلور شيئًا فشيئًا بعد تفكك الاتحاد السوفييتي.

اختُلف في إعطاء مفهوم محدد للعولمة، فمنهم القائل إنها «حرية حركة السلع والخدمات والأيدي العاملة ورأس المال والمعلومات عبر الحدود». ومنهم من يرى أنها «قوى السوق والشركات العابرة للقومية التي لايمكن السيطرة عليها». وهناك من يذهب إلى أن العولمة وفق المنظور التاريخي والاجتماعي هي «الإمبريالية في مرحلة سقوط التعددية القطبية». وهناك عدة أقوال في تعريف العولمة تدور حول ما سبق. ويعتقد أكثر المفكرين والمثقفين في عالمنا العربي والإسلامي أن العولمة هدفها الأساسي تذويب الهوية الثقافية بهوية جيوسياسية. كما هي الدعوة إلى الشرق أوسطية أو المتوسطية.

وما أراه في هذه القضية هو أننا لا نتجاوز الحقائق إذا قلنا إن هناك الكثير من الإشارات التي تدل على وجود من يسعى جاهدًا، لجعل العالم سوقًا كونية واحدة (كوسموسوقية)، تحمل المظهر الاقتصادي، من أجل تمرير هويته وثقافته. وهذه النزعة المركزية لا تظهر في عالمنا إلا في حالة أحادية القطب، ولا غرو إن قامت الولايات المتحدة الأمريكية بهذا الدور في أيامنا هذه.

وقد صدر في السنوات الأخيرة الكثير من الدراسات حول قضية العولمة، ومن آخرها هذا الكتاب الذي نقوم بعرضه؛ والدليل على نجاح هذا الكتاب، هو طبعه تسع مرات في عام واحد، وقد صدرت طبعته الأولى باللغة الألمانية، في برلين عام ١٩٩٦م عن دار (روفولت rowohlt)، وما يميز الكتاب هو تناوله لقضية العولمة من منظور عقلاني شامل، وإحاطته بأبعادها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والبيئية والإعلامية والحضارية.. بالإضافة إلى المنظور الإنساني الذي عالج المؤلفان من خلاله الأبعاد المختلفة للعولمة، وما يصاحبها من ازدياد معدلات البطالة، وانخفاض الأجور، وتدهور مستوى المعيشة، واتساع الهوة بين الفقراء والأثرياء.. وقد دافع المؤلفان عن العدالة الاجتماعية، والديموقراطية، وحقوق الإنسان.

يتألف الكتاب من تسعة فصول، وثبت في آخره للهوامش والمراجع، ويتصدر الكتاب مقدمة رائعة للأستاذ الدكتور رمزي زكي يقول فيها: «ينتقد المؤلفان الحجة التي يروجها بعض منظري العولمة، التي تقول: إن هذه العولمة ذات الاتجاه الليبرالي المغرق في التطرف، هي من قبيل الحتميات الاقتصادية والتكنولوجية الشبيهة بالأحداث الطبيعية التي لا يمكن الوقوف في وجهها. ويعتقدان - على العكس من ذلك - أن هذه العولمة إن هي إلا نتيجة حتمية خلقتها سياسات معينة. بوعي وإرادة الحكومات والبرلمانات التي وقعت على القوانين التي طبقت السياسات الليبرالية الجديدة، وألغت الحدود والحواجز أمام حركات تنقل السلع ورؤوس الأموال، وسحب المكاسب التي حققها العمال والطبقة الوسطى، وانتهاء بالتوقيع على اتفاقية منظمة التجارة العالمية (الجات) التي ستتولى توقيع

العقوبات على من لا يذعن لسياسة حرية التجارة...». يشير المؤلفان إلى أن ٣٥٨ مليارديراً في العالم يمتلكون ثروة تضاهي ما يملكه (٢٫٥ مليار) من سكان المعمورة، وأن هناك ٢٠٪ من دول العالم تستحوذ على ٨٥٪ من الناتج العالمي الإجمالي وعلى ٨٤٪ من التجارة العالمية، ويمتلك سكانها ٨٥٪ من مجموع المدخرات العالمية. ومع تسارع عمليات العولمة، فإن مصطلحات العالم الثالث، والتحرر، والتقدم، وحوار الشمال والجنوب، والتنمية الاقتصادية لم يبق لها في دنيا العولمة أي معنى؛ لأن العالم المتقدم أصبح يتجاهل على نحو خطير مشكلات البلاد النامية، وبشكل خاص مشكلات إفريقية.

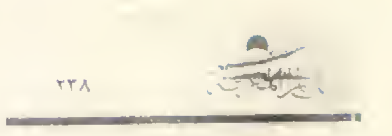
وعلى الرغم من أن نذر قيام حرب عالمية ثالثة مدمرة قد ضعفت، بعد انتهاء الحرب الباردة، فإن الخطر الذي تفرزه الرأسمالية المعولمة من جراء هذا التطور الفوضوي في البورصات والأسواق النقدية العالمية، يعد أشد خطراً إذا ما حدث انهيار اقتصادي عالمي بسبب ضعف وهشاشة ضوابط الرأسمالية. مما يؤدي إلى الانكفاء على الذات، وحماية الأسواق الوطنية.

يقول مقدم الكتاب: «هذا الكتاب سيكون له شأن كبير، في إغناء الحوار العقلاني الذي يدور الآن في بلادنا حول قضية العولمة، خاصة أن مؤلفيه قدما وجهة نظر مختلفة عما هو شائع من الأحاديث والأفكار الملتهبة حول العولمة التي تدور الآن بين المثقفين العرب...»، وختم بأفكار يغلب عليها الطابع الكينزي والديموقراطي والإنساني والعقلاني بشكل عام.

مجتمع الخمس الثري وأربعة الأخماس الفقراء

لقد سمح لثلاثة صحفيين فقط بحضور جميع أعمال لجان ملتقى سان فرانسسكو، في الفترة الواقعة بين ٢٧ سبتمبر/أيلول و١ أكتوبر/تشرين الأول من عام ١٩٩٥م. وكان هانس ـ بيتر مارتين ـ أحد مؤلفي هذا الكتاب ـ أحد هؤلاء الثلاثة. وقد شهد فندق فيرمونت أحداثًا عالمية جسامًا عندما اجتمع فيه خمسمئة من قادة العالم في مجالات السياسة والمال والاقتصاد، وكذلك علماء من كل القارات، وقد اختير هذا الجمع بعناية شديدة، والذي وصفه آخر رئيس للاتحاد السوفيتي وحامل جائزة نوبل ميخائيل جورباتشوف بأنه: ما هو إلا هيئة خبراء جديدة. وقد التقى في ذلك الملتقى قادة من المستوى العالمي، من أمثال جورج بوش، بقادة كوكبنا الأرضي الجديد من أمثال رئيس مؤسسة CNN. أو بعملاق التجارة واشنطن سي سيب.

لقد ظن منظمو هذه الأيام الثلاثة في فيرمونت أنهم على أبواب حضارة جديدة. إلا أن الحقيقة هي على خلاف ذلك؛ إذ لم يعد مجتمع الثلثين الأثرياء والثلث الفقير، الذي كان الأوربيون يخافون منه في الثمانينيات هو الذي يقرر توزيع الثروة والمكانة الاجتماعية، بل سيحددها في المستقبل، حسب ما



فخ العولمة :

الاعتداء على الديموقراطية والرفاهية

هانس ـ بيتر مارتين، وهارالد شومان

ترجمة: د. عدنان عباس علي

مراجعة وتقديم: أ.د. رمزي زكي

الكويت: سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ع ٢٣٨، جمادى الآخرة ١٤١٩هـ، أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩٨م.

يقول هؤلاء، النموذج العالمي الجديد القائم على صيغة ٢٠٪ يعملون و ٨٠٪ عاطلون عن العمل. لقد لاح في الأفق، حسب رأيهم، مجتمع الخمس، هذا المجتمع الذي سيتعين في ظله تهدئة خواطر العاطلين فيه عن العمل بما يسمونه TITTY TAIN-MENT، وإن هذا المصطلح منحوت من الكلمتين - حسب ما يقوله زبجنيو برجنيسكي - كلمة ENTER TAIN-MENT، وتعني (تسلية)، TITS تعني (حلمة)، الكلمة التي يستخدمها الأمريكيون للثدي دلعًا. ولا يفكر برجنيسكي هنا بالجنس طبعًا، بل هو يستخدمه للإشارة إلى الحليب الذي يفيض عن ثدي الأم المرضع؛ فبخليط من التسلية المخدرة والتغذية الكافية يمكن تهدئة خواطر سكان المعمورة المحبطين. فهل يمكن عدّ هذا المنهج هو الطريق الصحيح الذي يسلكه مُسيِّرو العالم في العمل على بناء صرح حضارة جديدة؟ بالطبع كلا.

إن من أهم واجبات قادة العالم، الإصلاح والتنظيم من وجهة نظر أخلاقية سامية؛ لأن التشابك الدرامي السريع، سيتحول إلى انهيار ذي طابع عالمي، في الوقت الذي يكون فيه الفقراء لم يفقدوا فيه ما يفقده الأثرياء.

فهل يتدارك البشر ذلك الخرق الصغير في السفينة التي تحملهم؟ قبل وقوع المحظور. أم يبقى قصور النظر هو السبب في قتل حكماء العالم؟.



هيلموت كول

كل شيء صار موجودًا في كل مكان

يتحدث الكتاب في هذا الفصل حول ضغوط العولمة والانهيار المعولم، فقد غدت الأحلام والأماني متشابهة، من الصين إلى البرازيل، ومن الهند إلى مصر. كما أن أسلوب الحياة السائد في الولايات المتحدة غزا العالم، بفضل مؤسسات الإعلام العملاقة. ولم تسلم أوربا من هذا الغزو، فالجمهور الألماني العريض قد صار شغوفًا بنيويورك وبقصص رعاة البقر في الغرب الأمريكي.

ويشير الكتاب إلى أن هذا العصر هو عصر المدن. وظهور مدن في آسيا أخذت أهمية أشهر مدن أوربا. إن شانغهاي في الصين تتطلع لتأخذ دور طوكيو ونيويورك. وفي هذا الفصل يشير المؤلفان إلى مقولة (صراع الحضارات)، وهي إشارة إلى نظرية صموئيل هنتينغتون القائلة «بأن المستقبل سيتحدد من خلال ما يدور بين الحضارات من صراعات دينية وثقافية..»، ولا ريب في أن هذا الكلام أيقظ الفزع القديم الذي كان يهيمن على أوربا، حينما اجتاحها الهُون والأتراك والروس. وإننا نشك في صحة هذه النظرية شكًا كبيرًا. إن نداء العصر الجديد هو: «لينقذ نفسه من يستطيع ذلك»، ولكن من هو الذي يستطيع ذلك؟ فانتصار الرأسمالية لا يعني أبدًا نهاية التاريخ التي تحدث عنها فوكوياما، إنما هو يعني نهاية ذلك المشروع (الحداثة)، فثمة تحول تاريخي بأبعاد عالمية، إذ لم يعد التقدم والرخاء، بل صار التدهور الاقتصادي، والتدمير البيئي، والانحطاط الثقافي.. هي الأمور التي تخيم بطابعها على الحياة اليومية للغالبية العظمى من البشرية.

ولا تعني العولمة (استعمارًا ثقافيًا أمريكيًا) في مجال اللهو والتسلية فقط، هذا الاستعمار الذي حمل عليه وقبّحه وزير الثقافة الفرنسي جاك لانغ، فأمريكا بوصفها «القوة العظمى في الثقافة المستهلكة من الجمهور العام»، لن تهيمن على وسائل اللهو والتسلية فقط، بل ستوزع الخبز

هل سيتحول العالم إلى دول تسودها اللامساواة مع وجود أحياء مقفلة تسكنها النخب الثرية؟!

أيضاً، فهل كان برجنيسكي مستشار الأمن القومي الأمريكي يفكر بهذا أيضاً؟، عندما تحدث عن مصطلح TITTY TAINMENT.

دكتاتورية ذات مسؤولية محدودة

خصص هذا الفصل للحديث عن صندوق النقد الدولي، والأسواق النقدية العالمية، فنجد أن تحرير الأسواق المالية والنقدية، قد ارتبط بالعولمة التي تعتمد على فلسفة ليبرالية حديثة، تخلت عن الضوابط التقليدية التي كانت تسيّر سوق المال العالمي.

«فما يحدث الآن على ساحة الأسواق النقدية والمالية، هو النتيجة الطبيعية والمنطقية للسياسات والقوانين التي شجعتها وأقرتها حكومات الدول الصناعية الكبرى»، مع وجود قوى خفية تعمل لمصلحتها مما دعا مدير صندوق النقد الدولي، أن يشعر بأنه «دمية تحركها أصابع لا يعرفها هو نفسه». ويذكر الكتاب عدة أمثلة عن قوى في سوق المال، تستطيع التحكم في رفاهية أمم ودول برمتها أو فقرها.

ويشيد المؤلفان بالتجربة الماليزية، بقيادة رئيس الوزراء محاضر محمد، فقد وصلت هذه الدولة إلى مصاف أكثر البلدان الآسيوية الصاعدة اقتصادياً، بعد أن أدركت أن العولمة في أسواق المال، تعمل على أمركة العالم إلى حد ما، فراح محاضر محمد لا يلتزم قواعد اللعبة، فأخذ يضارب بنجاح ضد عملات مجموعة الدول الصناعية السبع الكبرى. بناء على ما لدى الماليزيين من وسائل رهان كبيرة وغير محدودة. ويختتم المؤلفان هذا الفصل بالحديث عن هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم حديثاً، موجهين للعالم ـ في خضم العولمة ـ أنهم قادة الشركات الأممية بمختلف أنواعها. فهم حققوا إثر التحولات الكبيرة التي عصفت بالعالم في عام ١٩٨٩م، انتصاراً غيّر العالم تغييراً لم تحققه أي إمبراطورية، أو حركة سياسية في السابق من حيث السرعة والجذرية، ولكن، ومع هذا، ينطوي هذا الانتصار على مذاق مر. ولن تدوم مشاعر الانتصار طويلاً؛ لأنهم نهجوا شريعة ليست من الإنسانية في شيء.

شريعة الذئاب

يتحدث الكتاب في هذا الفصل، عن الأزمة غير المحدودة في سوق العمل والأممية الجديدة، وعن تلك الملايين من الضحايا البشرية التي تقدم قرباناً للسوق العالمية؛ لأن الاقتصاد القائم على الجدارة العالية، والتقانة المتقدمة يتسبب عن طريق إعادة الهيكلة والتخلص من التعقيد والرتابة (الروتين) وما يتبع ذلك من تقليص فرص العمل وتسريح الأيدي العاملة، في تفاقم البطالة، وخفض عدد المستهلكين في مجتمع الرفاهية. ويوضح المؤلفان بالرسوم البيانية، تلك العاصفة الهوجاء التي تعصف بفرص العمل المهددة بالضياع لدى أهم المؤسسات الخدمية في أوروبا، مثل المصارف، وشركات الاتصالات، وشركات الطيران،



جورباتشوف

هل يمكن بخليط من التسلية المخدرة والتغذية الكافية تهدئة خواطر سكان المعمورة المحبطين؟

وشركات التأمين.

إن التحرير، والليبرالية، والخصخصة غدت هي الوسائل الفعالة (الإستراتيجية) في السياسة الاقتصادية الأوربية والأمريكية، وقانون العرض والطلب هو أفضل الأنظمة، وصار توسع التجارة الحرة هدفًا بحد ذاته.

يقول المؤلفان عن سوق المال المتعددة الجنسية: إنها مركز القوة للعولمة، والتعامل العابر الحدود بالأسهم يلغي الروابط الوطنية على نحو أشد مما يفعله تشابك الإنتاج.

لهذا تمضي إستراتيجية التحرير الاقتصادي بعملية رفع الجدارة إلى حدٍّ يدمّر الذات.

ومع هذا تطالب الغالبية العظمى من الخبراء لدى المؤسسات الرائدة في الاقتصاد العالمي، سواء أكانوا يعملون في منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي أم لدى البنك الدولي أم لدى صندوق النقد الدولي، تطالب بضرورة المضي قدمًا في عملية التكامل على المستوى العالمي. «فمن خلال العولمة فقط سيكون بوسع ستة مليارات مواطن في العالم المشاركة في تلك الانتصارات التي لم ينعم بها حتى الثمانينيات سوى ستمئة مليون مواطن في البلدان الصناعية القديمة ليس غير».

يقول المؤلفان إنه هدف نبيل بلا شك. ولكن هل سيتحقق فعلاً؟ هل سيذهب ما يخسره الشمال من رفاهية إلى فقراء الجنوب حقًا؟

أكاذيب ترضي الصغير

يتحدث هذا الفصل عن استقطاب الاستثمارات، وخرافة العولمة



جورج بوش

العادلة، ويشير المؤلفان إلى الاتفاقية التي عقدت في عام ١٩٩٣م، بين الولايات المتحدة الأمريكية وكندا والمكسيك، وهي منطقة التجارة الحرة المسماة (النافتا NAFTA). وقد كان لتلك الاتفاقية الكثير من السلبيات التي تضررت منها المكسيك بشكل خاص؛ فقد أثبتت تلك التجربة السيادة المطلقة لقوى السوق، لم تحقق الرفاهية الاقتصادية، والتجارة الحرة تعني أن الغلبة ستكون للأقوى فقط. ويشير الكتاب إلى التجربة التركية، وتوصف بأنها المكسيك الأوربية عندما وقعت مع الاتحاد الأوربي اتفاقية ترمي إلى إنشاء اتحاد جمركي. ويشير المؤلفان بإعجاب إلى النهضة التي تمت في جنوب شرق آسيا، لأن البلدان الآسيوية تقتدي بالنهج الياباني من ناحية سوق المال، إذ تسعى مصارفها المركزية للإبقاء على سعر صرف العملة الوطنية منخفضًا.

ويتساءل المؤلفان عن سياسة الحماية، أهي السياسة التي ستحمي سوق العمل في الدول المتقدمة؟ إن التشابك العالمي هو الذي يمنح التقدم التقاني تلك القوة الفعالة التي تهمش ملايين العاملين. كما أن تقييد التجارة وفرض رسوم جمركية للحماية، سيبقى سلاحًا غير فعّال، مادامت سياسة الحماية هذه مقتصرة على مواجهة البلدان الزهيدة الأجور. ويذكر المؤلفان ما يدور في ألمانيا من جدل حول مدى جاذبيتها حيال استقطاب الاستثمارات، وأنه أضحى مهزلة غريبة، وصار يفرز سياسة خاطئة على نحو رهيب. وما هذا النموذج الألماني، سوى أكذوبة ضياع القدرة التنافسية. فهي السياسة التي تجعل المنافسة المعولمة هدفًا بحد ذاته. ومن هنا فإن استعادة الإرادة السياسية، أي استعادة أولوية السياسة على الاقتصاد، هي المهمة المستقبلية الأساسية.

إن التكيف الأعمى مع الضرورات التي تفرزها السوق العالمية يقود المجتمعات - التي تتمع بالثراء الآن - إلى فوضى لا مناص منها، إنه يقود إلى هدم البنى الاجتماعية. ولا طائل من انتصار ما ستقدمه الأسواق والشركات العابرة للقارات من حلول، لمواجهة القوة التدميرية الآتية من أولئك الذين سيدفعهم التهميش والخسران إلى التطرف، فلا الأسواق ولا الشركات العابرة للقارات لديها الحلول لمواجهة هذه المخاطر.

لينقذ نفسه من يستطيع، ولكن من هو الذي سيفلح؟

يسلط المؤلفان في هذا الفصل

الضوء على ضمور الطبقة الوسطى، وبزوغ نجم المضللين المتطرفين، ويستهلان الفصل بفقرة من خطاب مخيائيل جورباتشوف في فندق الفيرمونت في ١٩٩٥/٩/٢٩م: «هل سيتحول العالم بأجمعه إلى برازيل كبيرة، أعني إلى دول تسودها (اللامساواة)، مع وجود أحياء مقفلة تسكنها النخب الثرية؟ إنكم بهذا السؤال تطرحون لب المشكلة على بساط البحث. وإنها لحقيقة أن روسيا نفسها ستصبح على شاكلة البرازيل». أما في الولايات المتحدة فإن الهجوم على الطبقة الوسطى، قد صار بمنزلة بارود جديد يغذي النار التي تصيب فئات كثيرة من هذا المجتمع. فالعالم الهادئ الذي كانت تعيشه الطبقة الوسطى البيضاء لم يعد له وجود يذكر. ويُتهم الديموقراطيون بأنهم السبب؛ لأنهم يزوِّرون الإحصاء، ولا يحسبون معدل التضخم حساباً صحيحاً. فقد صار يتعين على البيض من أبناء الطبقة الوسطى، أن يعمل الزوج والزوجة معاً عملاً مضنياً لكي يحققا، ولو على وجه التقريب، المستوى المعيشي الذي كان سائداً في السبعينيات. أما في ألمانيا فقد كف ربع السكان، على أدنى تقدير، من التطلع إلى الرفاهية، إن الفئات الدنيا من الطبقة الوسطى تزداد فقراً بخطا وئيدة. ويُترك هذا البلد ـ الذي هو أكثر المجتمعات الأوروبية ثراء ـ شبيبته، على وجه الخصوص، تعاني من الإهمال والإحباط. وهناك مليون طفل صاروا يعيشون على مدفوعات الرعاية الاجتماعية. إن الهوة بين الفقير والغني تزداد وتتعمق، مع سيادة (تمرد النخب)، كما أن اعتزال الأغنياء أصبح قاعدة، والبرازيل غدت القدوة الحسنة. ففي البرازيل تنتشر (ألفافيل alphaville)، وهو اسم الجنة التي تقع في الغرب في مدينة ساوباولو. أهذا هو النموذج الذي يتطلع إليه العالم منذ أخذت نتائج العولمة تمزق النسيج الاجتماعي في البلدان التي لا تزال تنعم بالرفاهية أيضاً؟

ويقول المؤلفان تحت عنوان فرعي «أصوليون في السلطة. أنقذونا من هؤلاء بحق السماء»: تدوي صيحات بعض المراقبين السياسيين، المرهفي الإحساس، محذرة من التحولات السائدة الآن في أكثر ديموقراطيات العالم استقراراً حتى الآن، «إننا نمر في ظرف يسبق عادة المرحلة الفاشية». كما أن النزعة إلى تأسيس النظم الاستبدادية تنتشر، كرد فعل على التطبيق الزائد على الحاجة لليبرالية المحدثة.

جناة أم ضحايا

يقول المؤلفان، إن العولمة ليست واحدة، بل هناك العديد منها. وذلك نقلاً عن الأمين العام السابق للأمم المتحدة بطرس غالي: [كان أميناً عاماً حين صدور الكتاب] «ليست هناك عولمة واحدة، بل ثمة عولمات عديدة، هناك عولمة في مجال المعلومات والمخدرات والأوبئة والبيئة، وفي مجال المال أيضاً. ومما يزيد الأمر تعقيداً أن العولمة قد



فرانسوا ميتران

أسلوب الحياة الأمريكية غزا العالم بفضل مؤسسات الإعلام العملاقة، ولم تسلم أوربا من هذا الغزو!!

صارت تتعاظم في المجالات المختلفة بسرعة متباينة».

إن كثرة التحولات التي تعصف بالعالم، تؤدي كما يقول بطرس غالي إلى: «تعقيد المشكلات على نحو بالغ، وبالتالي فإنها يمكن أن تفضي إلى توترات وخيمة». وحول دور متخذي القرار، وفي خضم العولمة، يقول: «إن القادة السياسيين لم يعودوا يمتلكون الكثير من المجالات في السيادة الفعلية التي تمكنهم من اتخاذ القرار. إلا أنهم يتصورون أنهم قادرون على حل المسائل الرئيسة. إني أقول: إنهم يتوهمون، إنهم يتخيلون أن هذا بوسعهم». إن انتظار وقوع الحدث، وليس اتخاذ المبادرة الحازمة، والإصلاح المكلف للأخطاء، وليس تفادي وقوع الخلل، إن هذا هو كل ما تستطيع فعله السياسة الدولية، حسب تقدير اللاعبين الدوليين. يؤكد ميشيل كامديسو، رئيس صندوق النقد الدولي، وصلة الوصل بين عالم السياسة وإمبراطورية سوق المال أن «التكيف مع البيئة العالمية المعولمة قد أضحى أمراً لا مفر منه»، كما أنه لا يترك مجالاً للشك بأن الوول ستريت وقادة صناديقه الاستثمارية هي المهيمنة «إن العالم في قبضة هؤلاء الصبيان»، ولكن هؤلاء الصبيان


بطرس غالي

يقولون: «إن السلطة للسوق، وليس لنا نحن»، ويردد هذه العبارة سادة سوق المال جميعهم، وأشهرهم ستيف ترنت في واشنطن، هذا الرجل المضارب بمبالغ تصل إلى المليارات، والذي يبدو البيت الأبيض من نافذة مكتبه الفاخر العملاق، كما لو كان لعبة أطفال صغيرة.

فمن هم هؤلاء اللاعبون الدوليون في مجالات السياسة والمال والإعلام والاقتصاد، أهم مُسيَّرون دونما إرادة أم هم جناة مع سبق الإصرار؟.

لمن الدولة؟ انحطاط السياسة ومستقبل السيادة الوطنية

يذكر المؤلفان في هذا الفصل، مشكلة التهرب الضريبي في أوربا، وفي ألمانيا بشكل خاص. ويذكران ما قاله المستشار الألماني هلموت كول: «إن أي بلد يرى في التهرب الضريبي خطيئة طفيفة، يضيع مستقبله، بلا مراء». إن التهرب الضريبي ليس من مبتكرات المؤسسات الصناعية الكبيرة فقط، إنه ينطبق على المشروعات المتوسطة الحجم بمواجهة هذا التهرب، وتحاول الحكومات والمؤسسات التشريعية في كل أرجاء المعمورة، إجراء الإصلاحات في طرق الرقابة والتحري، وسد الفجوات والثغرات القانونية، ولكن تبقى هناك سبل تدليس كثيرة. ويشير المؤلفان إلى أهمية السياسة النقدية، والقدرة على تحديد مستوى أسعار الفائدة، وأسعار الصرف. كما أن استنزاف أموال الدولة يتم نضوبه بفعل الاقتصاد العابر للحدود، فالأممية الجديدة تستحوذ على حصة متزايدة من الإنفاق الحكومي أيضاً. إن التنافس على دفع أدنى الضرائب يتزامن مع تنافس على الحصول على أسخى التبرعات والمساعدات، مما يعرض السيادة الوطنية لأخطار كثيرة، نتيجة للمطالبة بالحقوق والتهاون في أداء الواجبات.

ويشير المؤلفان إلى الاعتداء على الرفاهية، الذي يتم في ألمانيا بشكل خاص، مما أدى إلى رعب يثير القلق «إننا في طريقنا إلى فقدان القدرة على تحقيق التوازن الاجتماعي». وإذا استمر هذا التطور «فسيكون التعايش السلبي بين الطبقات والقوميات، وطرائق الحياة عرضة للانهيار». ويصف

نتائج العولمة تمزق النسيج الاجتماعي عبر تدمير الطبقة الوسطى حتى في البلدان التي تنعم بالرفاهية

المؤلفان، التخفيض الإجباري في الموازنات الحكومية بأنه «إجرام إلى أقصى مدى»، ولا شك في أن الأزمات الدائمة في المالية الحكومية ليست سوى مظهر من بين المظاهر الكثيرة للانحطاط السياسي. مع أن تدفق السلع، ورأس المال قد اتخذا أبعاداً عالمية، إلا أن التوجيه والرقابة ظلتا مهمة وطنية. لقد صار الاقتصاد هو المهيمن على السياسة.

وينظر المؤلفان إلى نسيج شبكة العلاقات الدولية في عصر العولمة نظرةً يشوبها الشك في صدق النوايا. فقد ازداد، على نحو كبير، عدد المؤتمرات، والاتفاقيات العابرة للحدود. فمن معاهدات السوق الأوربية المشتركة، وتأسيس الاتحاد الأوربي، إلى مؤتمر البيئة في ريودي جانيرو عام ١٩٩٢م، ومؤتمر السكان في القاهرة عام ١٩٩٥م، ومؤتمر مستقبل المدن في إستانبول عام ١٩٩٦م، وهناك سلسلة طويلة من المؤتمرات التي نظمتها الأمم المتحدة، تشير إلى أن السياسات الوطنية قد اتخذت أبعاداً دولية متزايدة التأثير؛ إذ يتبلور شيئاً فشيئاً، على ما يبدو، نوع من التنسيق الحكومي على المستوى العالمي. أيعني هذا كله أن العالم قد أخذ يقترب من التعاون الشامل الهادف إلى إنقاذ الاستقرار الاجتماعي والتوازن البيئي؟ أبات الأمر لا يحتاج إلا إلى تحركات بسيطة حتى تتحقق الإدارة الشمولية للعالم؟ يبدو لنا الحال كما لو كنا نقف على عتبة عصر جديد، إلاّ أن الأمر ليس كذلك في الواقع، فالنتائج المتحققة حتى الآن مخيبة للآمال.

التوقف عن السير على غير هدى

يحاول المؤلفان، في هذا الفصل، عن طريق طروحات بديلة في محاولة للإفلات من المأزق التي وقعت فيه أوربا الغربية بشكل خاص، ويتساءل المؤلفان، هل نتقدم عائدين إلى مرحلة الثلاثينيات المنصرمة؟

يقول الكتاب: إن الشؤم سينزل علينا لو كان أنصار العولمة محقين في هذه المقارنة.

ويركز المؤلفان على توضيح الصورة الاجتماعية السائدة في أوربا، من وجود لمشاعر الخوف والضياع، ويدعوان إلى تكافل اجتماعي ترعاه الدولة، وعلى تهذيب السوق العابرة الحدود من خلال نظام حكومي، يرعى التكافل الاجتماعي، ويضمن إشراك جميع المواطنين في ثمار الارتفاع العظيم في الجدارة الاقتصادية. ويشير المؤلفان إلى شرطي العالم الخطر، بأن الولايات المتحدة الأمريكية هي القوة الاقتصادية والعسكرية العظمى في العالم؛ لذا فإنها الأمة الوحيدة القادرة على فرض التحولات بمحض إرادتها، ويصر المؤلفان، على الخيار الأوروبي، فلا مناص من اتخاذ موقف موّحد؛ لأن القوة الاقتصادية هي القوة المهمة الوحيدة في الأسواق المعولمة، كما أن هناك قوى عظمى قادمة، سيكون لها ثقل في لعبة القوى في السياسة العالمية، وهي الصين والهند.

ما يحدث الآن في الأسواق النقدية والمالية نتيجة طبيعية للسياسات والقوانين التي شجعتها الدول الصناعية الكبرى

يقول المؤلفان، في دفاعهما عن الديمقراطية، ودعوتهما (لإعادة طرح مشروع دولة الرفاه)، بصيغة معرفية جديدة، تحترم الإنسان، وتراعي حقوقه. يقولان: بالنسبة إلى مواطني القارة الأوربية العتيدة، عليهم أن يقرروا أي عقيدة من العقيدتين المتوارثتين في أوربا، هي التي ستحدد طبيعة أوربا مستقبلاً: العقيدة الديموقراطية، التي اندفعت شرارتها الأولى في باريس عام ١٧٨٩م، أو العقيدة التسلطية التي انتصرت في برلين في عام

الصين والهند من القوى العظمى القادمة التي سيكون لها ثقل في لعبة القوى في السياسة الدولية

١٩٣٣م. إن الخيارين: هذه العقيدة أو تلك يتوقف علينا، نحن الناخبين، الذين لا تزال غالبيتنا العظمى ديموقراطية العقيدة.

فإذا نحن أخذنا زمام المبادرة من أيدي المخدوعين الذي يعبّدون الطريق أمام الحركة اليمينية الجديدة بإيمانهم المطلق بالسوق، إنما نكون قد أثبتنا أن أوروبا قادرة على تحقيق ما هو أفضل، ويختتم المؤلفان الكتاب، بذكر عشر أفكار تعوق قيام مجتمع الخمس الثري وأربعة الأخماس الفقراء:

- اتحاد أوروبي ديموقراطي وقادر على النهوض بالتحولات المطلوبة.
- تقوية المجتمع المدني، وتعزيز مشاعره الأوروبية.
- الاتحاد النقدي الأوروبي.
- توحيد القوانين الضريبية الأوربية.
- فرض ضريبة مبيعات على المتاجرة بالمشتقات (ضريبة توبين) وعلى القروض الأوروبية الممنوحة إلى مصارف غير أوروبية.
- معايير اجتماعية وبيئية دنيا للتجارة الخارجية.
- إصلاحات ضريبية ذات أبعاد أوروبية لحماية البيئة.
- فرض ضريبة أوروبية على السلع الكمالية.
- النقابات العمالية الأوروبية.
- التوقف عن تحرير الاقتصاد من دون تعزيز للرعاية الاجتماعية.

الخاتمة

إن الحقيقة التي لا نستطيع إنكارها، هي حقيقة ظاهرة العولمة، تلك العولمة التي يصنعها الأقوياء. وإذا كانت شهوة الأبرار هي للخير فقط، فإن التاريخ يصنعه الأقوياء. فعندما ودعت البشرية القرن التاسع عشر، كانت هناك ظواهر متعددة تعلن عن حلول القرن العشرين، أهمها قومية السياسة، والاقتصاد، والثقافة. وما هذه العولمة إلا بداية لدخول القرن الواحد والعشرين، ومن يريد الإفلات من قبضة العولمة، فما عليه سوى الانغلاق الداخلي؛ لأن هناك فارقًا كبيرًا جدًا بين ظهور أزمات آنية تخلقها ظروف ذاتية وموضوعية، ومنعطف تاريخي ينذر بظهور نمط حضاري جديد للبشرية.

وإذا كانت بعض المجتمعات ينتابها الرعب من هذا التحول السريع. فإني على يقين بأن مجتمعنا العربي لديه من المؤهلات والإمكانات ما يجعله قادرًا على مواجهة التحديات والمخاطر؛ لأننا قد تعرضنا في السابق إلى ظروف في منتهى الشراسة، وقد خرجنا منها أكثر قوة وتماسكًا. وإن كنا نرى أن تحدي العولمة يحمل مقدرات التقدم التقاني الهائل، وتحالف الإعلام، وسوق المال ضمن لعبة السياسة الدولية، تلك اللعبة التي لا تخلو من الدهاء في نصب الشرك لضعفاء العالم، حتى شعرت بعض الدول القوية، مثل فرنسا، بأنها مهددة من جراء العولمة. فقد قال الرئيس الفرنسي السابق فرانسوا ميتران: «هل تحقق قوانين المال والتكنولوجيا ما أخفقت الأنظمة الشمولية في تحقيقه؟». ويقول تاريخ البشرية المكتوب وغير المكتوب: إن الضعيف لا يقرر، ولا ينظّر لغيره. والشيء الذي يدعو للعجب والأسف، هو إنكار بعضهم لما جاء به الإسلام العظيم، عندما قدم نظرة شاملة للكون والحياة والإنسان صالحة لكل زمان ومكان. وانطلاقا من رسالة الإسلام العالمية الفكر والمحتوى والممارسة، تعاملت الحضارة الإسلامية مع الإنسان على أساس الصلاح والتقوى. إن الحاضر والمستقبل يتطلب التفاعل الحضاري، ويرفض التبعية.

إضاءة زوايا جديدة للتقنية العربية الإسلامية

لطف الله قاري

مراجعة: أبو بكر خالد سعد الله

هناك الكثير من المؤلفات التي كتبت حول تاريخ العلوم في الحضارة العربية الإسلامية، من قبل العرب والمسلمين أنفسهم، أو من قبل مؤرخي العلوم في الشرق والغرب. والجميع يعرف ما لهذا الموضوع من حساسية؛ لأن التمتع بالموضوعية العلمية في هذا المجال أمر عسير سواء من هذا الطرف أو ذاك. ولعل أفضل سبيل للقارئ الذي يبحث عن الحقيقة، هو الإكثار من الاطلاع على مختلف هذه المؤلفات حتى يصل بنفسه إلى حكم يميل إلى الموضوعية، عما أتى به صانعو الحضارة العربية الإسلامية. ومن بين المؤلفات التي يتعين علينا الاطلاع عليها في هذا الإطار كتاب المهندس لطف الله قاري حول التقنيات العربية الإسلامية. وحسب علمنا فإن الأمر يتعلق هنا بموضوع لم يتناوله الكثير من الدارسين. ويشتمل هذا الكتاب على ثمانية فصول مستقلة كان المؤلف قد قدّم مادتها الأولى في مؤتمرات علمية خلال السنوات الأخيرة، مثل المؤتمر السنوي لتاريخ العلوم عند العرب بسورية، والندوة العالمية الخامسة لتاريخ العلوم عند العرب بغرناطة (إسبانيا)، وفي الملتقى المغاربي الثالث حول تاريخ الرياضيات العربية بالجزائر، وبعضها الآخر نشر في المجلات، مثل مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، وقد أشاد الدكتور خالد ماغوط - مدير معهد التراث العلمي العربي (بحلب) - بهذا العمل في تصديره للكتاب؛ لأنه تعبير أمثل عن الرغبة في إغناء تجربة البحث والتحقيق، وإيضاح الفهم المتكامل لموقع تراثنا العربي من الحضارة الإنسانية عامة. يتناول أبرز موضوع في كتاب لطف الله قاري الرسم الهندسي في التراث الإسلامي، وقد حدد فيه المؤلف خواص الرسم الهندسي قبل الإسلام، ثم تطرق على كيفية تطبيق الرياضيات في الهندسة والعمارة، ورسم خرائط المدن، ومخططات الأحياء. ونبه المؤلف إلى أن الدولة الإسلامية في عهد ازدهار الحضارة العربية الإسلامية كانت ممتدة من الصين إلى فرنسا، وكانت لها لغة رسمية واحدة هي لغة الضاد. وفي تلك الفترة كان علماء المسلمين وغيرهم ممن عاشوا في ديار الإسلام يكتبون باللغة العربية فقط. وبعد ضعف الدولة بدأت اللغات الأخرى تقوى شيئًا فشيئًا. ففي القرن الحادي عشر كان البيروني يقول: إنه لا يحب غير اللغة العربية، وإن لغته

إضاءة زوايا جديدة للتقنية العربية الإسلامية
لطف الله قاري
الرياض: مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية
١٩٩٦م، ٣٢٠ ص.

الأصلية غير صالحة للعلوم، وإن الفارسية أقل مستوى من العربية. ثم جاء بعده عمر الخيام فكتب شعره بالفارسية، ومؤلفاته في الرياضيات بالعربية، كما اعتذر الطبيب حاجي باشا - ألّف جلّ كتبه بالعربية في القرن الخامس عشر - عندما كتب باللغة التركية موسوعته الطبية المختصرة. ويحتوي هذا البحث على عدد من صور الرسومات الهندسية الأصلية، بعضها ملوّن. إن البحث في هذا المجال لازال في بداية عهده، ومن ثم فلا شك أن الأعوام القادمة ستكشف لنا المزيد من الرسومات الهندسية التي ستضيف الكثير إلى المعلومات الحالية. ويشير المؤلف إلى بعض العوامل التي جعلته لا يحصل على عدد كبير من الرسومات فيذكر: - فقدان كثير من المخططات والوثائق.

- عدم احتساب المخططات المعمارية وثائق مهمة خلال القرون الأولى.
- عدم الاهتمام بتقنيات العمارة بقدر الاهتمام بالعلوم التقنية الأخرى.

الحسبة ودورها

واستعرض المؤلف بعد ذلك موضوعاً شائقاً هو وسائل السلامة الصناعية في التراث العلمي العربي الإسلامي. واستهل دراسته بالحسبة ومراقبة الأسواق والصناعات، ثم تحدّث عن التوقي من الحرائق، والتهوية، وسلامة التنفس، وسلامة المباني، والنظافة في الأسواق والشوارع، وصحة البيئة، ومكافحة التلوث. والحسبة وظيفة المسؤول عن السوق، الذي يرتبط عمله إدارياً بقاضي المدينة، ويسمى هذا المسؤول المحتسب، ويتمثل دوره في قطع دابر التحايل في المعاملات، وتأمين سلامة المعروضات، وصحة النقود والمكاييل والموازين والمقاييس، ومكافحة الاحتكار وتقدير الأسعار والتزامها. وتطبق هذه الرقابة أيضاً على الصناعة والمهن حيث يعين المحتسب عريفا لكل طائفة من أهل المهن والحرف. كما كانت سلامة العمال والمجاورين لمواقع الصناعات من مهام المحتسب.

من وسائل السلامة الصناعية

وعندما تطرق المؤلف إلى التوقي من الحرائق أشار إلى أن الاهتمام بهذا الموضوع بدأ في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد أوضحت كتب الحسبة القديمة قواعد التوقي من الحرائق. ومما ورد فيها:

- مُنع الطباخون من ممارسة عملهم بعد منتصف الليل، كما مُنع الخبازون من العمل قبل الفجر.
- طُلب من الحدادين وضع حواجز بين دكاكينهم والشارع تفاديا لتطاير الشرر إلى الطريق.
- مُنع الفرّانون والزجّاجون من جعل الأحطاب على مقربة من النار تجنبًا لنشوب الحرائق...

وقدم المؤلف خطة طوارئ اتخدت ذات مرة في أثناء القرنين الثالث والرابع الهجريين في أسواق بغداد (بعد نشوب عدة حرائق) وتأمر تعليمات هذه الخطة بـ:

- تناوب أهل السوق في حراستها، والطواف عليها للمراقبة.
- منع أهل السوق من إضاءة السرج، وإشعال النار.
- أمر أصحاب الدكاكين أن يضعوا أمام محلاتهم أواني ملأى بالماء تحسباً لأي طارئ.
- صار السقاؤون يبيتون في مراكز الشرطة.

وقد أمر الناس في عدة مناسبات بإعداد الماء فوق سطوح المنازل لإطفاء الحرائق عند اللزوم. وفي عام ٦٧٥ هـ هيئت



آلة «ذات الحلق» الفلكية الضخمة كما وردت في كتاب ألف في إستانبول بالفارسية

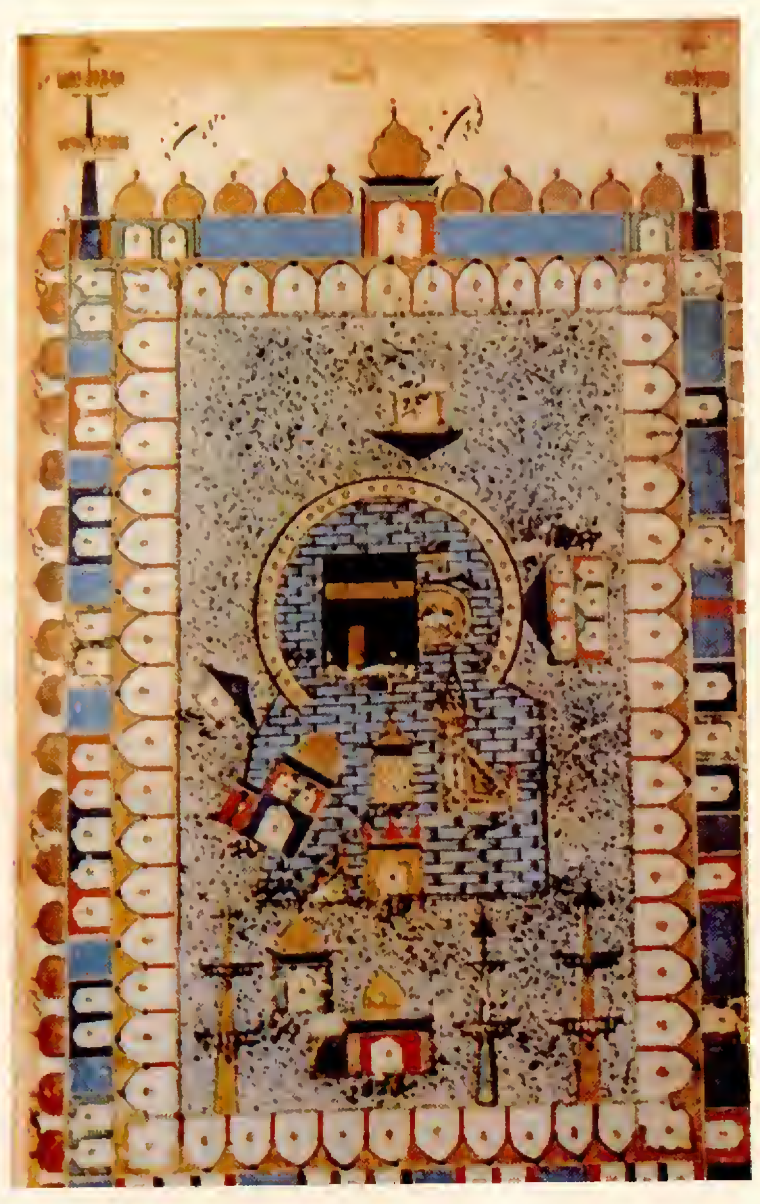
حياض لهذا الغرض في دروب بغداد، كما اتخذت في القاهرة تدابير مماثلة.

واستعرض المؤلف بعض القواعد والإجراءات التي كانت تتخذ عند أسلافنا في سبيل تهوية وسلامة التنفس في الحمامات، والأسواق، وأماكن المعالجات الكيماوية، وخلال الغوص في البحار، وكذا في التعدين، وحفر الآبار. يقول ابن عبد ربه الأندلسي (ت:٣٢٨هـ - ٩٤٠م): إنه يعيش الإنسان حيث تعيش النار، ويتلف حيث لا تبقى النار. وهي قاعدة استغلت آنذاك في الحفائر والمناجم. وقدّم الكاتب، لدى تناوله موضوع سلامة المباني، قائمة طويلة من التعليمات التي وضعت أيام ازدهار الحضارة العربية الإسلامية. وترمي هذه التدابير إلى توضيح كيفية تحضير مواد البناء (الآجر، والقرميد، والطوب...) حماية للمباني التي ستشيد بها هذه المواد، كما تنص هذه التعليمات على القواعد التي ينبغي أن يحترمها البناؤون والعمال خلال عملية البناء داخل المدينة.

ولاشك أن قارئ هذه التعليمات سيندهش من دقتها ومن بعد نظر واضعيها. ثم تطرق الكاتب إلى الترتيب والنظافة في الأسواق والشوارع، فأوضح دور المحتسب في السهر على النظافة. وهكذا كان هذا المسؤول يمنع رمي النفايات والقمامة في الشوارع، وقذف مياه المجاري فيها. ويأمر المحتسب أيضاً أصحاب الميازيب بإقامة مسيل مكلّسٍ ومحفور إلى الحائط يجري فيه ماء الأسطح. ونجد عدة مدن إسلامية عريقة قد بلّطت شوارعها ورصفت، ولا سيما في المناطق التي يكثر فيها نزول الأمطار تجنباً للوحل، مثل صنعاء التي جهزت طرقها بمجارٍ لتصريف مياه الأمطار.

البيئة في الحضارة الإسلامية

وتحدث لطف الله قاري عن حماية البيئة، ومكافحة التلوث، مؤكداً أن كتب الطب والحسبة القديمة اعتنت عناية كبيرة بهذا الجانب، وعدّد أهم النقاط التي ترتكز عليها، مشيراً - بصفة خاصة - إلى ما جاء في كتاب «القانون» للشيخ الرئيس ابن سينا حول جعل الماء صالحاً للشرب. ولاحظ المؤلف في الختام أن دراسة تاريخ التقنية العربية الإسلامية مفيد لعدد من الأسباب، إلا أن مجال السلامة الصناعية من مجالات التقنية المهمة التي تستحق المزيد من الدراسة.



صورة المسجد الحرام بمكة المكرمة كما وردت في كتاب باللغة الفارسية من تأليف غلام علي في القرن العاشر الهجري

طبق المسلمون قاعدة ابن عبد ربه الأندلسي القائلة: يعيش الإنسان حيث تعيش النار

وتطرق الكاتب، ضمن مواضيع أخرى، إلى تلوث الهواء قديما وحديثا موضحا أنواع الملوثات، ومقدماً قائمةً (أولية) بالكتب المؤلفة في التراث العربي الإسلامي حول تلوث الهواء، والأوبئة، وتأثير نوع الهواء في الصحة. وقد احتوت هذه القائمة على ٣٨ مرجعاً من المراجع القديمة، منها المطبوع، ومنها المخطوط.

كما نجد في الكتاب دراسة قيمة حول المقياس في العمارة الإسلامية وأهميته (حسب كتب التراث) وردت فيها مختلف وحدات القياس في الحضارة الإسلامية، وكذا المقاييس والنسب الهندسية في الخرائط المعمارية، والبناء، وعند المحتسبين.

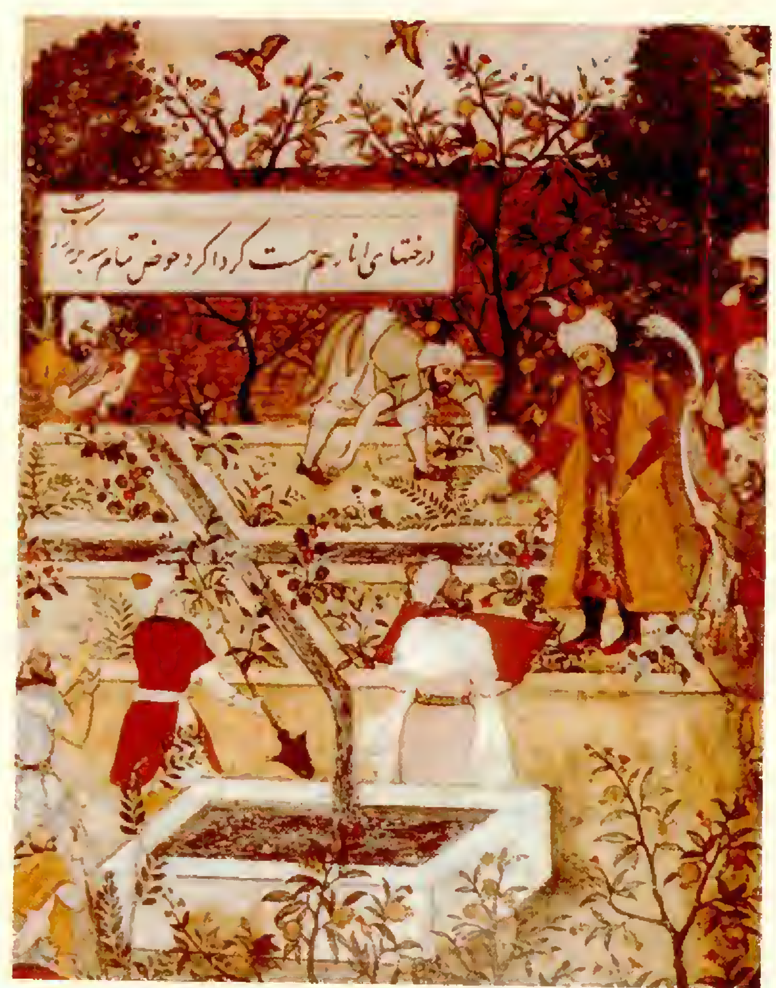
وفي دراسة أخرى تناول المؤلف كتب الحسبة، وكتب الحِرَف في التراث القديم. وتعدّ كتب الحِسبة كتباً جديرةً بالدراسة والعناية من المؤرخين؛ لأنها بمنزلة السجل الذي يصور لنا مجتمع الأسواق والصناعات عند الأسلاف، فنجد فيها أسماء الحِرَف (التي تُعد بالمئات)، وضبطاً للمقاييس والموازين والمواصفات الفنية لكل حرفة، واستقصاء لأنواع الغش في كل مهنة وصناعة. ويحتوي الكتاب أيضاً على بحث تطرق إلى الكتب الأساسية في تاريخ الطبيعة عند العرب والمسلمين، صنّفها المؤلف، إلى كتب مطبوعة، ومؤلفات مخطوطة، وكتب تراجم الحكماء السابقين للإسلام، ولم تقتصر الدراسة على تقديم هذه القائمة، بل نجد توضيحات مختلفة أمام كل عنوان يورده الكاتب.

عالمان لهما جهودهما

وهناك دراستان قدمهما الأستاذ لطف الله قاري في هذا الكتاب يبدو أنهما لا تندرجان تماماً ضمن الموضوع الرئيس للكتاب؛ وهما التعريف بالعالمين أبي الفتح الخازني (ولد سنة ١٠٧٧م) المعروف عند بعض الناس بالخازن، ومحمد بن إسحاق النديم (ولد نحو سنة ٩٣٢م). وقد سلط المؤلف الضوء على هذين العالمين مؤكدا الجوانب المجهولة أو تلك التي لم يوفها المؤرخون حقها في الدراسات السابقة. كان الأجدر بالمؤلف إصدار هاتين الدراستين في كتاب آخر يعنَى بالشخصيات العربية الإسلامية المغمورة.

وما يلفت الانتباه في كتاب «إضاءة زوايا جديدة للتقنية العربية الإسلامي» هو سعة اطلاع صاحبه والتزامه، في آخر كل دراسة، بوضع قائمة المراجع والمصادر، فضلاً عن الهوامش، مما يفيد القارئ الذي يطلب الاستزادة. وهكذا نجد في موضوع «الرسم الهندسي في التراث الإسلامي» مثلاً ٩٦ مرجعاً وفي «وسائل السلامة الصناعية» ٧١ مرجعاً. وقد قارب العدد الإجمالي للمراجع الواردة في الكتاب ٤٠٠ مرجع. كما أن سلاسة أسلوب لطف الله قاري يزيد متعة قارئ هذا الكتاب، ولا سيما أن المؤلف تجنّب عموماً التعقيدات التقنية التي يتطلب فهمها دراسة تخصصية.

وخلاصة القول أن لطف الله قاري قد وفق في تقديم هذه الدراسات، ونرجو أن يواصل كشف زوايا جديدة للتقنية العربية الإسلامية، وإضاءتها؛ إذ إن هذا العمل الأصيل لازال لم يتجاوز مرحلته الأولى.



مهندس حديقة الملك بابر وقد أمسك بيده لوحات رسمت عليها مربعات



التجريب بين المسرح الغربي والمسرح العربي

سعيد الناجي
مراجعة: قسم التحرير

يقع هذا الكتاب في ١٣٠ صفحة من الحجم المتوسط موزعة على مقدمة وفصلين وخاتمة.

الكتاب في عمومه موجه إلى المهتمين بالمسرح وقضاياه من كتّاب ومخرجين ونقّاد ومديري فرق ومسارح، وقد ركّز الكاتب على توضيح عملية الإخراج المسرحي وأشكاله التجريبية في نظريات المسرح الغربي ومقارنة ذلك بما وصل إليه المسرح العربي، كذلك بحث الكاتب في أسلوب التجريب وفي طرق الإخراج في المسرح الغربي، وتحدث عن رواد هذا الفن من أمثال برتولد برشت وأنتونان أرتو وغروتوفسكي وتادوز كانتور، ووازن ذلك بما قام به المسرحيون العرب.

ناقش الفصل الأول من الكتاب عملية التجريب في المسرح الغربي عموما، وركّز على التحولات الثقافية التي طرأت على المسرح الغربي ذاكراً أن الوعي المسرحي بدأ يزداد منذ أواسط القرن التاسع عشر، وبدأ اهتمام الجمهور - على مختلف مشاربه الثقافية والفكرية - يزداد، وكان ما تثيره مسرحيات إميل زولا (E. ZOLA) من صخب ونقاش بين الجمهور أكبر دليل على هذا الاهتمام. تحدث الكاتب أيضاً عن النقلة الكبيرة التي صاحبت ظهور الإضاءة في تاريخ المسرح الغربي، وكيف أن الإضاءة سمحت ببروز إدراك جديد للفضاء المسرحي، وللإمكانيات التي تتيح استثمار أبعاده.

السينما وأثرها في المسرح

وكان ظهور السينما سنة ١٨٩٥م عاملاً مؤثراً في نظرة الجمهور والمبدعين لتجربة المسرح السابقة، وقد تمثّل هذا الأثر في ثلاثة جوانب:

الأول: أن السينما أوجدت قيماً جديدة عند المشاهد لتضبط علاقته بالمشاهدة وبأشكالها، ووصلت إلى حد التباس هذا الفن الجديد الطارئ بالمسرح.

الثاني: أنها أثّرت في ثوابت

التجريب في المسرح
بين المسرح الغربي
والمسرح العربي
سعيد ناجي
الدار البيضاء: مطبعة دار النشر المغربية،
ط١، ١٩٩٨



من المسرح التقليدي

حاول التجريبيون العرب إيجاد أصول مسرحية عربية تتجاوز ضعف المسرح العربي التقليدي ولا تتغرب

التجريب في المسرح الغربي عملية منظمة شاملة تسعى إلى تغيير جوهري في الإبداع المسرحي

الإبداع المسرحي، كما أقامت علاقة جديدة بين المبدع والواقع، احتلت فيها الصورة مكانة مهمة بوصفها وسيطاً جديداً للإبداع.

الثالث: أنها بدأت تنقل صوراً حيّة للواقع اليومي إلى درجة أن أصبحت الحياة الخارجية مجسدة كما هي على الشاشة، فما فائدة استمرار المسرح في الوفاء الساذج لتفاصيل الحياة اليومية؟

هذه التحديات جعلت المسرح يحاول تدارك هذا الخلل الذي أحدثته السينما وجعل يحاول البحث عن خصوصية أمام هذا الفن الجديد، وكان نتاج ذلك ظهور الرمزية في الأعمال المسرحية.

تحدث الكاتب عن نظريات السينوغرافيا وأثرها العميق في الجهود التجريبية في القرن العشرين، وتعرض أيضاً للتجريب وفن التشكيل وعلاقة هذه الفنون بالمسرح.

اتجاهات التجريب

ناقش الكاتب اتجاهات التجريب في المسرح الغربي، وأورد تقسيمات أندريه فانيستاين في كتابه «المسرح التجريبي» عن اتجاهات التجريب، وهي ثلاثة اتجاهات، أهدافها كالتالي:

الأول: إصلاح المسرح وتجديده لكونه فناً خاصاً وشعبياً.

الثاني: تجاوز حدود المسرح المعروفة: في أفق تأسيس مشاهدة شاملة.

الثالث: تأسيس مسرح ذي فعالية اجتماعية وسياسية.

اعترض المؤلف على هذه التقسيمات واصفاً إياها بعدم الدقة، واقترح تقسيم الاتجاهات التجريبية منذ بداية هذا القرن إلى اتجاهين:

الأول: تغير قوانين الخشبة

وقدم شرحاً وافياً لهذا الاتجاه، ولخصّ انجازاته في الآتي:

١ـ الاستفادة من إنجازات الثورة التقنية (التكنولوجية) لإخصاب أساليب تنظيم الفضاء المسرحي.

٢ـ الارتكاز على عطاءات التشكيل لاقتراح مبادئ فضائية جديدة.

٣ـ اقتراح حركية الجهاز السينوغرافي عوض ثباته وسكونيته، لتنويع المشاهد، وإغناء مجال الرؤية، وإبعاد الفضاء عن التمركز الأحادي.

٤ـ اقتراح الفضاء الفارغ ثابتاً بشكل امتلاؤه بقطع الديكور احتمالاً يثّمن جدلية الفارغ والممتلئ.

ـ تمنح حركة السينوغرافيا وفراغ الفضاء حرية أكبر للممثل كي يكشف عن بلاغته الجسدية، ويتجاوز طرق الأداء التقليدي (الكلاسيكي).

ـ الاعتماد على مصادر متعددة لتحقيق مشاهدة شاملة توظف النص، والجسد، والموسيقى، والأغاني، في انسجام تام.

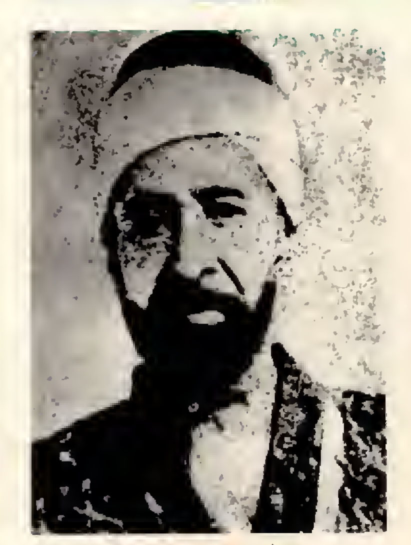
ـ إرجاع السلطة الأولى للمخرج لكونه فعالية إبداعية مهمة تعقّد عملية الإبداع المسرحي، وتعدد مشاربه والنشاطات المساهمة فيه.

ـ تتوخى هذه المبادئ الجديدة منح وظيفة جديدة للمسرح تربطه بالمجتمع وبالتاريخ، وتضمن علاقة جديدة مع الجمهور تنزاح عن السلبية، وترتقي بذوقه وفكره إلى مدارات جديدة.

ـ البحث عن التمسرح، والكشف عن مكانه في العرض، لأنه يضمن خصوصية المسرح وتفرده، ويبلور تعريفاً جديداً به يتمشى مع التطورات التي لحقت الإبداع الفني، (الفرجوي) منه على الخصوص. وقد كان الفضاء المسرحي هو المجال الأمثل للبحث عن المسرح.

الثاني: تفجير الخشبة الإيطالية

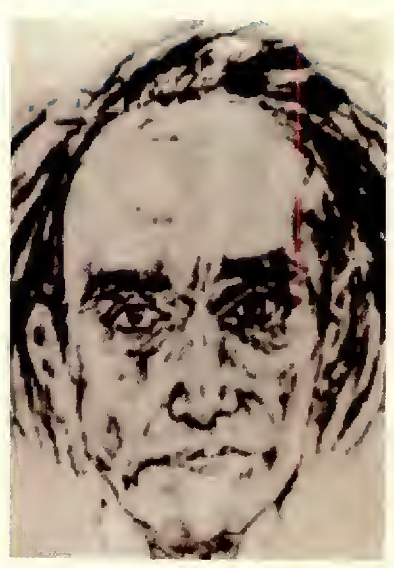
وكان الألماني ماكس رينهارت MAX REINHART (١٨٧٣ ـ ١٩٤٣م) من أوائل الذين مهدوا لهذا الاتجاه ورسموا خطوطه، وكان التصور الأساسي عنده أن المسرح «يمثل الشكل الفني الأقوى والأكثر مباشرة؛ لأنه لا يتوجه إلى الفرد فقط، ولكن إلى الجمهور عامة، ولأنه يملك القدرة على التحكم فيه والتأثير فيه». أما أرتو فقد أعلن مقاطعته للمسرح (الكلاسيكي) الذي تقادمت أسسه وقواعده، وكانت القسوة هي الخيار الوحيد ـ في نظر أرتو ـ للخروج بالمسرح من اهترائه، والقسوة هي نوع من الضغط على الذات في بعدها الجسدي بالمثابرة والممارسة. وهو بذلك كان يرمي إلى الوصول إلى ذهن المشاهد عبر جسده، موظفاً التقنيات الفضائية بشكل جيد، وهي: ـ الموسيقى: تستعمل أدواتها في مسرح



أبو خليل القباني



من التجريب في المسرح الغربي


أرتو

القسوة قطعًا للديكور، وتراعي «ضرورة التأثير المباشر والعميق في الإحساس عبر الأعضاء»، وهذا ما يلزم بالبحث عن تمويجات جديدة وغير عادية تمتلكها بامتياز الأدوات الموسيقية القديمة المنسية.

ـ الإضاءة: يبحث أرتو عن استعمال جديد لها يوزع الضوء بالذبذبات أو كلية، أو بالتمويجات، لتستطيع أن تشير إلى بعض الحالات كالبرودة، والحرارة، الغضب.. الخ.

ـ الإكسسوارات: تظهر في العرض المسرحي لـ: «تؤكد الجانب المادي لكل صورة وكل تعبير»، وهي بهذا تتجه نحو التأثير الحسي في المشاهد.

ـ الملابس: تبرم أرتو من الملابس المسرحية الحديثة، وأعجب بالملابس الألوفية ذات الطابع الطقوسي، التي تحافظ على جمالية خاصة ومظهر إيجابي.

ـ الديكور: لجأ أرتو إلى مبدأ الفراغ مثل معاصريه، يقول: «لن يكون هناك ديكور يكفي من أجل هذه المهمة، شخصيات هيروغليفية، ملابس طقوسية، تماثيل، من عشرة أمتار طولاً.. أدوات موسيقية كبيرة».

ـ التمويج الصوتي: يندمج في العرض المسرحي لكونه مكونًا ماديًا ملموسًا يؤسس فضاء المشاهدة، ويتوجه إلى حواس المشاهد مباشرة لخلق الصدمة والإحساس بالقسوة التي لا تطاق: صراخ واستغاثة، ألم، أصوات غريبة، شهيق، زفير، عويل.

تركيب: أسلوب التجريب في المسرح

تحدث المؤلف عن أسلوب التجريب في المسرح الغربي، وأورد التغيرات التي لحقت فضاء المسرح المعاصر، والتي ذكرتها أوبرسفيلد، والتي شملت الآتي: الفراغ، والتمزق، والابتعاد عن المركز، واختراق التعارضات، والتمسرح، والهجرة. خلاصة ما وصل إليه الكاتب في هذا الخصوص «أن صلب مفهوم التجريب في المسرح الغربي هو أنه عملية منظمة وشاملة تسعى إلى إجراء تغيير جوهري في الإبداع المسرحي، وفي علاقته بالجمهور، من خلال التركيز على الفضاء المسرحي بما يشمله من سينوغرافيا، وأدوات مسرحية، وممثلين».

التجريب والحداثة

تحدث الكاتب بعد ذلك عن التجريب والحداثة في المسرح الغربي، فأوضح أن الحداثة المسرحية في المجتمعات الغربية جزء من حداثة الحياة في هذه المجتمعات، وهي حداثة تؤمن بالتجريب غير المشروط، وناقش آراء ديدرو DIDEROT، وأرتو، وبرشت، وتادوز كانتور في هذا الموضوع. تعرض الكاتب للملامح التي ظهرت في الإنجازات التجريبية في المسرح التي تمثلت في:

الانتقال من المشخّص إلى المجرد، وحداثة التعدد، وحداثة التجاوز، وحداثة النشاطات الإبداعية، وحداثة الفضاء، وحداثة التمسرح.

وتساءل الكاتب: ما حدود القطيعة التي أجرتها الحداثة المسرحية مع النموذج المسرحي التقليدي؟ وما مشروعية الحديث عن مرحلة ما بعد الحداثة؟

ويجيب الكاتب: نظن أن الإجابة الفاصلة عن هذه الأسئلة تتطلب انتظار ما ستؤول إليه وضعية المسرح في سياق انتقال المجتمع الغربي من مرحلة التصنيع إلى مرحلة الإعلاميات وتقانة (تكنولوجيا) التواصل. ويخلص الكاتب في نهاية هذا الفصل إلى القول: «إن التجريب في المسرح الغربي كان يستهدف في



العمق الانفتاح على حداثة مسرحية تخالف النماذج السابقة، حداثة تستقي ملامحها من التطور التاريخي للفن المسرحي من جهة، ومن جماليات أخرى مختلفة عن الجمالية الغربية أشد الاختلاف من جهة أخرى».

التجريب في المسرح العربي

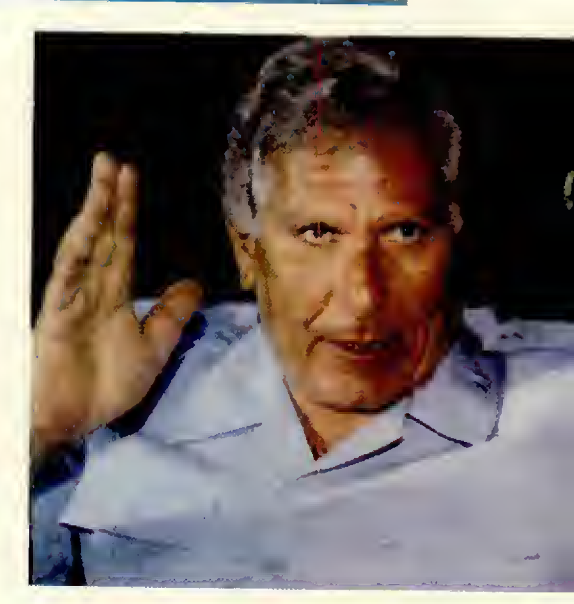
وفي الفصل الثاني الذي أفرده المؤلف للحديث عن التجريب في المسرح العربي. تحدث بداية عن طلائع التجريب في المسرح العربي بادئاً بفذلكة تاريخية عن علاقة العالم العربي بهذا الضرب من الفنون.

يرى الكاتب أن المسرح العربي ارتبط بسنة ١٩٤٨م حيث عُرضت أول مسرحية عربية قدمها مارون النقاش في لبنان، وكان مارون النقاش (١٨١٧ - ١٨٥٥) تاجراً تعرّف المسرح في إحدى زياراته إلى إيطاليا، وكانت أول رواياته التي عرضها هي رواية «البخيل». فالمسرح فن مستورد وصل إلى البلاد العربية من ضمن ما وصل من مظاهر الحداثة الغربية الأخرى، وكان هدف المستعمر هو «تلبية الحاجة الفنية للجاليات الأجنبية في البلاد العربية، وأيضًا من أجل تحديث المجتمع العربي حسب الوصفة الغربية، وتوجيه تطوره في سياق تابع لتطورات المجتمعات الغربية». تطرق الكاتب أيضًا إلى المحاولات الأخرى التي قام بها بطرس البستاني (١٨١٩ - ١٨٨٣م) وابناه سعد البستاني وسليم البستاني، وحفيده سليمان البستاني، ثم نجيب حداد (١٨٦٧- ١٨٩٩م)، وأبو خليل



بريشت

توظيف تقنيات الفضاء المسرحي للوصول إلى ذهن المشاهد


يوسف إدريس


الاستفادة من التقنيات الحديثة في المسرح التجريبي

القباني (١٨٣٣-١٩٠٣م)، الذي حدث بينه وبين بعض الشخصيات كثير من المشكلات قاموا على أثرها بحرق مسرحه؛ لأن المسرح بدعة تجب محاربتها، مما اضطره إلى الهجرة إلى مصر. وخلص المؤلف إلى أن هذه المحاولات الأولى للممارسة المسرحية عند العرب لا تعدو أن تكون محاولات متفرقة لا تستطيع أن تكوّن بداية مسرح عربي شامل، وخلص أيضاً إلى أن المشرق العربي عرف المسرح قبل المغرب العربي، فقد عرف المشرق العربي المسرح في أواسط القرن التاسع عشر بينما لم يعرفه المغرب العربي إلا مع اقتراب أواسط القرن العشرين. ناقش المؤلف بعد ذلك الأطر الثقافية للتجريب في المسرح العربي، الذي تمثّل أولاً في الدعوة التي أطلقها يوسف إدريس من خلال مقالته: نحو مسرح مصري. ثم توالت الاجتهادات بعد ذلك في خطين: أحدهما يحاول إيجاد أصول مسرحية في تاريخ المشاهدة العربية، كما هو حال يوسف إدريس نفسه، والثاني يحاول إيجاد شكل مسرحي يكتسب صفة العربي، وينفصل عن شكل المسرح الغربي. وجد التجريبيون العرب أنفسهم في أواسط هذا القرن أمام مصدرين مسرحيين:

- المصدر الأول: ريبرتوار مسرحي عربي ضعيف تمثله محاولات مارون النقاش وخليل القباني ويعقوب صنوع، ومن عاصرهم من رواد النهضة الفكرية الذين اهتموا بالكتابة المسرحية من حيث كونها مظهراً من مظاهر التقدم والنهوض.

- المصدر الثاني: مسرح غربي متطور متشعب الاتجاهات والتيارات التجريبية التي تكاثرت منذ أواخر القرن التاسع عشر.

البحث عن هوية

لم يقتنع المسرحيون العرب بهذين المصدرين؛ لضعف الأول، وغرابة الثاني، وبعده عن موروثات الأمة العربية وتاريخها، وزاد من بعد الناس عنه تصاعد الاتجاه القومي .. ثم كانت هزيمة يونيو/ حزيران ١٩٦٧م، والتي قال عنها سعد الله ونوس في كتابه «بيانات لمسرح عربي» ص١٠٧: إنها «كانت شديدة الوطأة، وقد خلقت نوعاً من الصحوة الفكرية في كل أوساط المثقفين؛ لذا كان لابد من اكتشاف ما هو بديهي، وأعني أن المسرح كان منذ نشأته سياسياً.. وأن المسرح لا يستطيع أن يدير ظهره للأحداث السياسية القائمة في مجتمعنا».

مسارات التجريب وسلطاته

تعرض الكاتب بعد ذلك للتجريب في المسرح العربي: مساراته وسلطاته، وتعرض لآراء علي عقله عرسان ويوسف إدريس التي تحاول أن تثبت أن العرب عرفوا المسرح منذ الجاهلية، ويرى أن ذلك كان «وهماً غالب الكثير من المسرحيين العرب بوجود ممارسة مسرحية مكتملة سابقة عن النهضة العربية». ثم تحدث بعد ذلك عن التجريب وسلطة التراث، وانفتاح التجريب في المسرح العربي على التراث واستدعاء أشكاله لتوظيفها في بناء مسرح عربي متميز، وذكر أن التراث قد أدى وظيفتين أساسيتين:

الأولى: يضمن بها التراث ملامح هوية مفقودة، ومعالم انفراد قومي تجاه الغرب. لقد كان التراث ذلك الماضي الذي تنحاز إليه الذات الإبداعية لحظة عجزها وإحساسها الحاد بالنقص، ليضمن لها ذلك الانسجام الداخلي المستمد من مرحلة مجيدة أصبحت الآن بعيدة المنال. فكان استلهامه الوجه الآخر

للبحث عن وجود الظاهرة المسرحية عند العرب.

الثانية: يعوّض فيها التراث غياب التراكم المسرحي العربي سواء عند القائلين بوجود المسرح في الماضي أو عند الذين نفوا ذلك.

تحدث الكاتب بعد ذلك عن برتولد برشت وتأثيره في المحاولات التجريبية المسرحية العربية في السرد والارتجال، وكيف يتيح الارتجال حواراً مكشوفاً بين صانع المشاهدة ومتلقيها؟

ثم تعرض لسلطة النص وإلغاء الممثل، وتحدث عن أفكار توفيق الحكيم وسلطة الأيديولوجيا، وخلص أخيراً إلى أن الممارسة التجريبية في المسرح العربي قد بقيت رهينة أربع سلطات لم تستطع تجاوزها، وهي:

- سلطة المسرح الغربي، وقد كان البحث عن صيغة مسرحية عربية متميزة أكبر اعتراف بما لهذه السلطة من تأثير وحضور.

- سلطة الماضي التراثي، وهي تضمن ملامح هوية مفقودة توهم بالتميّز والانفصال عن ضغط السلطة الأولى.

- سلطة النص وهي برهان عن العجز عن امتلاك ممارسة مسرحية متكاملة.

- سلطة الأيديولوجيا وهي ملاذ العبور إلى جمهور بقي مبتعداً عن المسرح.

ثم ختم الكتاب ذاكراً نقاطاً توصّل إليها خلال هذه الدراسة، وملخصاً فيها كل ما يختص بالمسرح، وخلاصة ما توصل إليه من خلال هذا البحث.

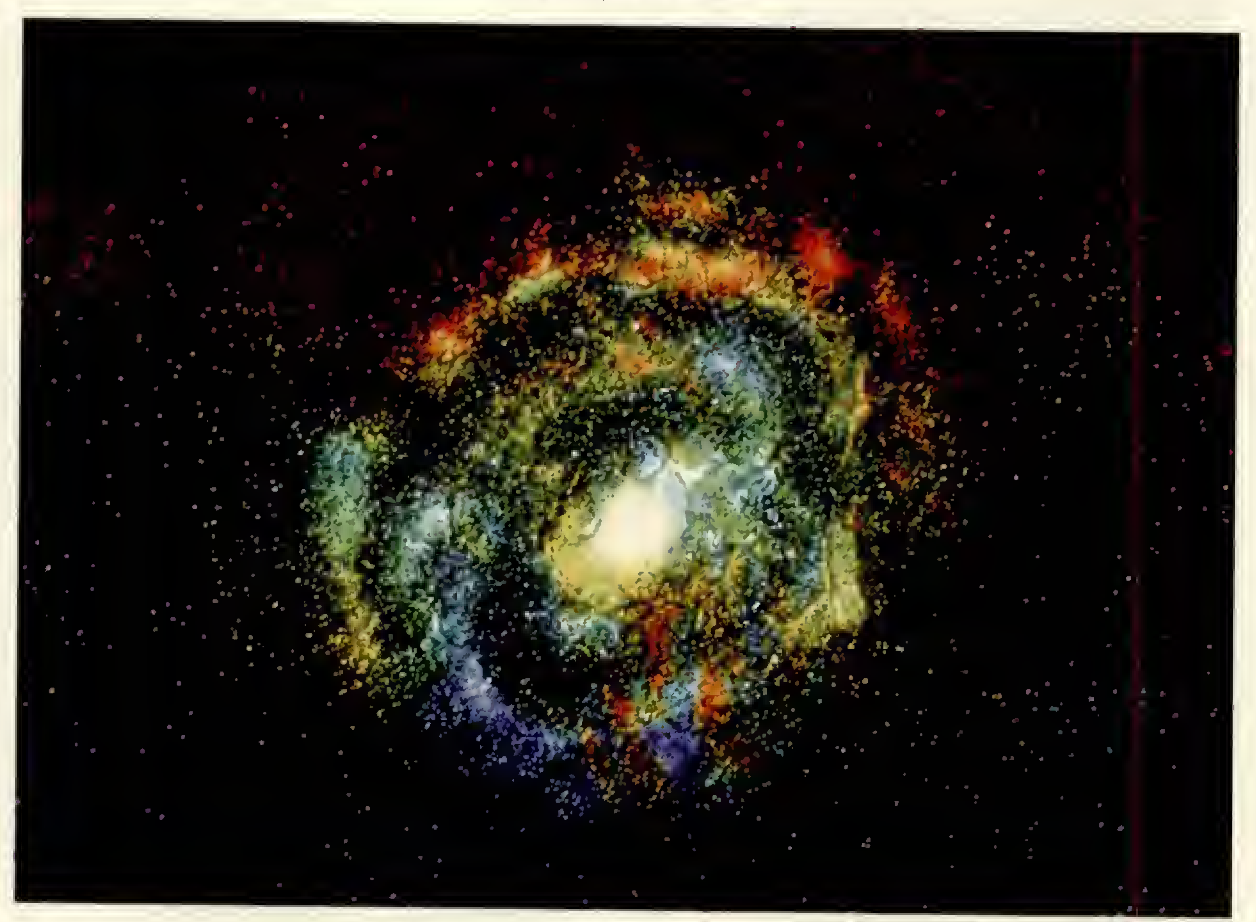

توفيق الحكيم


تأسيس مسرح ذي فعالية اجتماعية من أهداف التجريب

دليل النجوم الحديث

مساعد حمد الحماد

مراجعة: قسم التحرير



المجرة تجمع هائل من النجوم والأجرام السماوية

يحتوي هذا الدليل على مقدمة تعريفية بعلم الفلك، ومواقع رصد الأجرام السماوية، و ٨٨ مجموعة مرقّمة، وأورد المؤلف في آخره أكثر من ٨٠ جدولاً بأسماء النجوم، والأجرام السماوية تسهيلاً لرصدها، مع إعطاء نبذة تعريفية عن كل مجموعة. ذكر المؤلف في مقدمة هذا الكتاب أن قدماء العرب عرفوا علم الفلك، واهتموا به لحاجتهم إلى معرفة النجوم، والاهتداء بها في تحديد طرق سيرهم ليلاً في الصحراء، وأيضاً لمعرفة مواعيد مواسمهم.

وجاء الإسلام، وحثّ على العلم

والتفكر في السموات والأرض والنجوم، فازداد اهتمام العرب بهذا العلم، وترجموا كثيراً من الكتب الفلكية من الحضارات القديمة، وأضافوا إليها ما عندهم، وأشار المؤلف إلى أن أغلب أسماء النجوم المستعملة في الأطالس الأجنبية هي أسماء من أصل عربي. ذكر المؤلف أن الأوربيين ورثوا هذا العلم من العرب، وطوّروه، بينما أهمله العرب مما جعل المكتبة العربية فقيرة جداً في هذا المجال، وهو ما حدا به إلى تأليف هذا الدليل؛ خدمة للناطقين بالعربية. يبدأ المؤلف كتابه بمدخل إلى علم الفلك متحدثاً عن معنى كلمة السماء، فيوضح أنها لغة تعني: كل ما علاك فأظلك، أما من الناحية العلمية فإنها تعني: «الانطباع البصري الذي يراه المشاهد على شكل قبة. ثم تحدث المؤلف عن النجوم، فذكر أن الشمس نجم من النجوم، وهي لا تعدّ أكبر نجم، بل هي نجم متوسط الحجم، ثم يتطرق إلى حياة النجوم، فيوضح أن حياتها تبدأ عندما يتجمع الهيدروجين على شكل سحب، ثم تتقلص تحت تأثير الجاذبية مما يجعل الحرارة ترتفع إلى ملايين الدرجات داخل النواة بسبب شدة ضغط المادة على داخل هذه النواة، ونتيجة لهذه الحرارة والضغط الشديدين تتحول ذرات الهيدروجين إلى ذرات هليوم، ثم عدّد أنواع الأشعّات التي تصاحب هذا التفاعل، وأوضح أن حياة النجوم تنتهي بانتهاء مخزونها من غاز الهيدروجين، ثم تتحول هذه النجوم بعد الموت إلى واحد من أشكال ثلاثة: قزم أبيض، أو نجمة نيوترونية، أو ثقب أسود، وأوضح

أن ذلك يتوقف على مدى ضخامة كتلتها. ثم تحدث الكاتب بعد ذلك عن كيفية حساب المسافات بين النجوم، والوحدات القياسية المستعملة في ذلك، وتحدث أيضاً عن حرارة النجوم، وعن مقدار لمعانها، وقال: إن ذلك اللمعان يتوقف على بعدها وحجمها، وذكر الكاتب بعد ذلك النجوم الثنائية، وأوضح أن أكثر من نصف النجوم ثنائي، والثنائية تعني أن نجمين أو أكثر يدور بعضها حول بعض، ثم ذكر النجوم المتغيِّرة، وهي النجوم التي لا تستطيع ملاحظتها؛ لأن درجة لمعانها غير ثابتة، وذكر أنواعها وهي: ـ المتغيرات الخاسفة الدورية.

ـ المتغيرات غير المنتظمة.

ـ المتغيرات الدورية الطويلة.

ـ المتغيرات الدورية القصيرة.

ـ النوفا والمستعرات.

وأعطى نبذة قصيرة عن كل نوع من هذه الأنواع:

الشهب والنيازك

عرفّ المؤلف الشهب بأنها أحجار صغيرة بحجم رأس الدبوس، وترى محترقة في الغلاف الجوي للأرض، مكونة خطاً رفيعاً من النور سرعان ما ينطفئ. أما النيازك فقال: إنها قطع من الأحجار المعدنية المنتشرة في الفضاء، ثم تحدث عن مجرة درب التبانة، وتدعى أيضاً نهر المجرَّة، فأورد التعريف الذي ذكره ابن قتيبة الدينوري في كتابه «الأنواء في مواسم العرب»، يقول ابن قتيبة: «ويقال: إن النجوم تقاربت في المجرَّة، فطمس بعضها بعضاً فصارت كأنها سحاب». وتحدث المؤلف بعد ذلك عن (السُّدم)، وأوضح أن كلمة (سديم) تعني



دليل النجوم الحديث
مساعد حمد الحماد
مراجعة: عبدالوهاب الجاسم
الكويت: الأمانة العامة للأوقاف، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ٢٣٣ص.

النجم المسمى (يد الجوزاء) أكبر من الشمس بـ ٥١٢ مليون مرة، والشمس أكبر من الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة



أكمل علماء الغرب ما بدأه العلماء العرب حتى وصلوا إلى آفاق بعيدة

الضباب الرقيق، وقال: إن في مجرتنا كميات من الغيوم السديمية بعضها مضيء وبعضها مظلم، ثم ذكر أنواع السدم، وهي ثلاثة أنواع: السدم المضيئة، والسدم المظلمة، والسدم الكوكبية الحلقية.

العناقيد النجمية

وهي التجمعات النجمية المتراصة أو القريبة بعضها من بعض، ويوجد نوعان من العناقيد النجمية: نوع داخل المجرة، ونوع خارجها، ثم تحدث عن كل نوع من نوعي هذه العناقيد.

المجرات

وهي تجّمع هائل من النجوم والأجرام السماوية الأخرى، وتنقسم ثلاثة أقسام:

مجرات بيضاوية (إهليلجية)، ومجرات حلزونية، ومجرات غير منتظمة.

الإحداثيات الفلكية

شرح المؤلف الكيفية التي يقيس بها الفلكيون المسافات (البعد الزاوي) بين الأجرام السماوية ونقطة أول، وأوضح أنها بالساعات والدقائق والثواني والاعتدال الربيعي، وأيضاً يقيسون المسافات (البعد الزاوي) بين النجوم وخط الاستواء السماوي بالدرجات وأجزائها، وأورد جدولاً يعطي القيم بكلا النوعين من المسافات. وأشار المؤلف إلى أقسام الإحداثيات الفلكية وهي:

المطلع المستقيم، والميل، والسمت، والنظير، ودائرة الأفق، والقطبان السماويان، وخط الاستواء السماوي (دائرة المعدل)، ومنطقة البروج.

ثم قدم شرحًا لكل نوع من أنواع هذه الإحداثيات

وشرح المؤلف كيفية تحديد موقع أي جرم سماوي.

البروج

تحدث بعد ذلك عن البروج، فقال إنها: «اثنتا عشرة مجموعة تقع في منطقة من السماء تدور فيها الشمس والقمر والكواكب السيارة» وقال: «إن العرب عرفت هذه البروج، وقالت شعرًا في ترتيبها:

حمل الثورُ جوزة السَّرَطان
ورعى الليثُ سُنبلَ الميزان
ورمى عقربٌ بقوسٍ لجدي
نزح الدلو بركة الحيتان

منازل القمر

وهي ٢٨ منزلة يمر عليها القمر من خلال حركته حول الأرض وهي: الشَرَطان ـ البُطَيْن ـ الثُّريّا ـ الدَّبَران ـ الهَقْعة ـ الهنعة ـ الذِّراع ـ النَّثْرَة ـ الطَّرْفة ـ الجَبْهة ـ الزُبْرة ـ الصَّرْفة ـ العوّاء ـ السِّماك ـ الغَفْرة ـ الزُباني ـ الإكْليل ـ القَلْب ـ الشَّوْلة ـ

النَّعـــايم - البَلْدَة - الذابح - البُلَع - السُّعود - الأخبية - المقدَّم - المؤخَّر - الرِّشاء.

الأطالس الفلكية

ذكر المؤلف أن هنالك كثيرًا من الأطالس المتخصصة، وأن لكل زمان أطالسه، وذكر أن أهم أطلس في القرن الثاني بعد الميلاد كان كتاب المجسطي الذي ألَّفه الفلكي اليوناني بطليموس. وفي القرن الرابع الهجري كان أطلس الصوفي (ت عام ٩٨٦م) «صور الكواكب الثمانية والأربعين» من أهم ما كتب في هذا المجال. وجاء بعد فترة طويلة الفلكي الفرنسي شارل مسييه Messier / / Charles (١٧٣٠-١٨١٧م) فرصد أكثر من ١٠٠ نجم قام برصدها من مرصده الخاص، وبوبها في جدول عُرِف باسمه، وهو عمل غير مسبوق.

ثم جاء الفلكي يوهان درير ١٨٥٢ - ١٩٦٢م في القرن التاسع عشر، فوضع قائمة للأجرام السماوية كانت أشمل من قائمة مسييه، وقد عرفت هذه القائمة بالفهرس العام الجديد New General Catalogue، وتعرف اختصاراً بـ N G C، وقد نشرها في عام ١٨٨٨م، بالإضافة إلى ملحقين عرفا بكتالوج الفهرس Index Catalogue واختصاره I.C. أما في العصر الحديث فقد استخدم الفلكيون أطالس أهمها:

١ - مرصد سمثسونيان الفلكي: Smithsonian Astrophysical Observatory (SAO) Star Catalog، ويعد هذا الأطلس من أهم الأطالس الفلكية فيما يتعلق بالنجوم فقط، وقد وضع فيه أكثر من ٢٦٩ نجماً.

- دليل النجم المفهرس - Guide Star Catalog، وقد عُدّ هذا الفهرس من أكبر الفهارس للأجرام السماوية حتى اليوم، وقد احتوى على أكثر من ١٩ مليون جرم سماوي.

المجموعات النجمية (الكوكبات)

قسَّم القدماء النجوم اللامعة مجموعات، حتى يستطيعوا حصرها، وتعرفها بسهولة، وقد أطلقوا عليها أسماء أبطال الأساطير، والحيوانات، والوحوش، والآلات التي كانوا يستخدمونها.

ويرجِّح المؤلف أن الكلدانيين هم أوّل من أطلق هذه الأسماء، ثم يشير إلى أن الأقدمين قسموا السماء ٤٨ مجموعة نجمية منها: اثنا عشر برجًا وإحدى وعشرون مجموعة شمالية وخمس عشرة مجموعة جنوبية. وعند اختراع التلسكوب في القرن السابع عشر، وقيام الأوربيين بالاستكشافات الجغرافية الجديدة

منطقة البروج هي دائرة تميل عن خط الاستواء بزاوية قدرها ٢٣٫٥ درجة ويقع حولها الاثنا عشر برجًا



(خاصة في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية) بدأ الفلكيون يضيفون مجموعات نجمية جديدة إلى المجموعات المعروفة قديماً، حتى حُصرت المجموعات النجمية في النهاية بواسطة الاتحاد الفلكي في عام ١٩٢٨م في ٨٨ مجموعة.

المجموعة النجمية الشمالية:

وهي تقع باتجاه الشمال قريبة من القطب، وهي معروفة ومشهورة لأهل البحار والبادية عندهم، وقد كانوا يعتمدون عليها في معرفة الاتجاهات، وموقع النجم القطبي. ومن أهمها الدب الأكبر (بنات نعش)، وذات الكرسي (الناقة). ثم تحدث المؤلف بعد ذلك عن مجموعات الربيع، ومجموعات الصيف، ومجموعات الخريف، ومجموعات الشتاء موضحاً عدد نجوم كل مجموعة، وواصفاً شكلها، وموضحاً أيضاً الطريقة التي بواسطتها نتمكن من معرفة موقع بعض البروج والنجوم. ثم يخبرنا المؤلف أن هنالك مجموعات نجمية أخرى يقع أغلبها في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية، وهي مجموعات أغلبها غير لامعة.

أسماء النجوم

أشار المؤلف إلى أن النجوم سُميت بالحروف الهجائية اليونانية الصغيرة لتسهيل معرفتها، وقد أُطلق على النجم الأكثر لمعانا الحرف الأول (ألفا) والذي يليه لمعانا الحرف الثاني (بيتا)، وهكذا، فإذا انتهت الحروف اليونانية - وعددها أربعة وعشرون حرفاً - ولم تكتمل تسمية النجوم استعانوا بالحروف اللاتينية الكبيرة وهي الحروف المستعملة في اللغة الإنجليزية. وبعد اكتشاف التلسكوب، واكتشاف نجوم جديدة لم تعد هذه الحروف تكفي مما حدا بالفلكيين إلى استعمال الأرقام لتسمية تلك النجوم الزائدة على عدد الحروف اليونانية واللاتينية.

وهنالك بعض النجوم لها أسماء مشهورة، وهي من أصل عربي مثل الشِّعْرَى اليمانية، ورجل الجبار، وفم الحوت، ولهذه النجوم أرقام خاصة بها.

استخدام الدليل

أعدّ الكاتب - كما يقول - هذا الكتاب ليكون دليلاً للراصد، وهو يحتوي على طريقة خاصة لمعرفة مواقع النجوم والمجرات والسُّدم المراد رصدها، وتتلخص هذه الطريقة في الآتي:

- أعطى المؤلف لكل نجم رقمين لتعرفه داخل الدليل، الرقم الأصغر هو رقم مجموعته في هذا الدليل، أما الرقم الكبير فهو رقم النجم في (الكتالوج) الفلكي (S A N) الذي يضم ويصنّف ما يزيد على ربع مليون جرم سماوي.

فعندما يجد القارئ النجم في أي صفحة من صفحات الدليل، يجد في الصفحة المقابلة له خريطة للسماء، فيستطيع تعرفه، وتحديد مكانه في السماء، ومن ثم يستطيع رصده. وقد قدّم المؤلف في هذا الدليل رصداً لأكثر من ثمانية وثمانين نجماً وجرماً، ليتمكن من تعرفها، ومن ثم رصدها.

وفي ختام الكتاب أورد المؤلف أيضاً جدولاً بأسماء الثماني والثمانين مجموعة نجمية ذاكراً في هذا الجدول الرقم المسلسل، ثم اسم المجموعة النجمية بالعربية، واختصاره باللاتينية. وجدولاً آخر بأسماء النجوم موضحاً فيه اسم النجم ورمزه في المجموعة، والاسم العربي للنجم، ومن ثم رقم النجم في دليل النجوم الحديث.

قسم الأقدمون السماء إلى ٤٨ مجموعة نجمية، منها: اثنا عشر برجًا، وإحدى وعشرون مجموعة شمالية، وخمس عشرة جنوبية